

موجز تاريخ الحروب الصليبيّة

في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسّط

للمؤرخ الفرنسي

رنيه غروسّيه

ترجمة وتعليق: د. أحمد إيبش

رواد المشرق العربي

موجز تاريخ الحروب الصليبيّة

في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسّط

للمؤرخ الفرنسي

رنيه غروسّيه

عضو الأكاديميّة الفرنسيّة

ترجمة وتعليق

د. أحمد إيبش

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

D158 .G712 2014
Grousset, Rene, 1885 -1952
موجز تاريخ الحروب الصليبية/ رنيه غروسيه؛ ترجمة وتعليق: أحمد إيبش. -ط. 1.- أبوظبي:
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2014.
ص. ؛ سم.- (رواد المشرق العربي)
ترجمة كتاب: Les Croisades
تدمك: 6 - 595 - 01 - 9948 - 978
1. الحروب الصليبية - تاريخ، 1094-1184. أ. إيبش، أحمد. ب. العنوان. ج. السلسلة.





الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380
publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

هذا الكتاب

ترجع أهمية الحروب الصليبية بالنسبة لنا إلى أنها تشكّل تجربة فريدة في تاريخ العروبة والإسلام على حدّ سواء، في مشرقهما ومغربهما. هذه التجربة ليست بحال من الأحوال من التجارب العابرة المحدودة الأثر والنتائج، وإنما هي تجربة كبرى خطيرة مليئة بالدروس والعظات، ينبغي لنا أن نتأملها ونبحثها في كل وقت.

وسواء أكان التاريخ يعيد نفسه أو لا يعيد، فمن الواضح أن الأوضاع التي تحيط بالعالمين العربي والإسلامي اليوم تجعلنا نشعر بأننا في وضع أقرب ما يكون إلى الوضع الذي عاش فيه أسلافنا منذ تسعة قرون مضت، الأمر الذي يتطلّب منا دراسة تاريخ هذه الحروب الصليبية دراسة علمية وافية.

* * *

جرى المؤرخون المحدثون في كتابتهم عن الحروب الصليبية على اتخاذ اتجاهين، يتعلق الأول منهما بامتداد الحد الزمني، حتى شمل دراسة ما سبق القرن الحادي عشر الميلادي من أحداث، وما تلى سقوط عكا سنة 1291 م، مما تمّت تسميته بالحروب الصليبية المتأخرة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. أما الاتجاه الثانـي فينبع من ازدياد الاهتمام في الآونة الأخيرة بالمظاهر الحضارية، لما لها من تأثير في توجيه الحملات الصليبية، وما ترتّب عليها من قيام الإمارات اللاتينية وتنظيماتها.

والمعروف أن الشرق الأوسط تعرّض أواخر القرن الحادي عشر لحركة استعمار من قِبَل الغرب لم يشهد لها مثيلاً في العصور الوسطى، اتّخذت الدين ستاراً لإخفاء ما انطوت عليه من مطامع وأغراض. وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية تُعدّ أخطر المغامرات التي أقدم عليها المحاربون الأوروبيون وأكثرها إثارة، فلا زالت تؤلف حقيقة ثابتة في العصور الوسطى، إذ أن مراكز الحضارة استقرت قبل نشوب الحروب الصليبية في كل من العالم الإسلامي وبيزنطة، بينما غلب على أوروبا النظام الإقطاعي. فلما ركدت ريح الحرب الصليبية بالقرن الرابع عشر، اختفى في أوروبا ما سبق أن اشتهرت به في مستهل الحركة الصليبية من الروح الدينية والتفكير في الحياة الأخرى، وسيطرت عليها العلمانية والدنيوية، فانصرفت إلى دراسة القانون والفلسفة.

وفي العالم الأوروبي اجتمع في الحرب الصليبية الأولى مظهران أساسيان: هما الحج والحرب المقدسة، وكان الحج أقدم هذين المظهرين لأنه يرجع إلى بداية ظهور المسيحية، فلم يلبث الحج أن لقي التوجيه والاهتمام من الكنيسة فأضحى من مظاهر التوبة والاستغفار، وتضاعفت قيمته بما أتيح للحاج بأن يسعى للأراضي المقدسة. وبتأثير الحركة الكلونية، التي بدأت نشاطها في القرن العاشر ازداد نشاط حركة الحج، ولم يلبث هذا النشاط أن تحول إلى الحرب المقدسة في القرن الحادي عشر الميلادي، بعد أن ارتفع شأن البابوية وصارت لها السيادة على سائر الكنائس الأوروپية بفضل سلسلة من البابوات الأقوياء، أمثال غريغوار السابع وأوربان الثانـي. إذ حضّت البابوية على نبذ الحروب الداخلية بين أمراء الإقطاع، وتوجيهها ضد غير المسيحيين. وأكثر ما امتاز به أوربان أنه دعا إلى تحول القتال إلى الشرق الإسلامي وانتزاع الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين. فالموجة العارمة من الحماس والعاطفة التي اجتاحت غرب أوروپا وحشدت الألوف من الرجال والنساء تحت ألوية أمثال بطرس الناسك وغوتييه سانزاڤوار (المفلس)، تعتبر مرحلة هامة في التاريخ.

وعلى الرغم من أن غرب أوروپا استجاب لنداء بيزنطة، بأن مدّ الحركة الصليبية إلى شرق البحر المتوسط، فالواقع أن بيزنطة لم تتصور ما حدث من تدفق القوات الصليبية التي باتت تهدد كيانها، إذ أن بيزنطة درجت في علاقاتها مع جيرانها من المسلمين وغير المسلمين، على أن تلتمس من الوسائل الحربية والديپلوماسية، ما يكفل لها المحافظة على كيانها، فتوقفت سياستها الصليبية على ما يربطها بالمدن الإيطالية وسائر القوى بإيطاليا، من علاقات ودّية أو عدائية، وعلى ما كان بينها من علاقات تقليدية مع شعوب الشرق الأوسط وإماراته ودوله ، وعلى ما تزعمه لنفسها من حقوق في حماية المسيحيين بالشرق.

كان النظام الإقطاعي في أوروپا يدعو إلى التوسع والسيطرة والحرب، ولم تُجد نفعاً فكرة سلام الرّب وهدنة الرّب، وما لجأت إليه الكنيسة من فرض قيود على المبارزات الفردية لم يثمر، لذا حرصت على تشجيع الفرسان على قتال المسلمين، فبذلك يُشبع الفارس نزعته الحربية وينال الخلاص والتطهير من الذنوب، وهو ما يرضي الجانب الروحي من طبيعته. يضاف إلى ذلك ازدياد عدد السكان في غرب أوروپا من وتقاصر الأراضي عن سد حاجة المقطعين، فكان لا بدّ من السعي للحصول على إقطاعات جديدة بالتوسّع شرقاً، وهذا يفسّر اشتراك أمثال بودوان وبوهيمون وتانكريد في الحروب الصليبية، إذ هيّأت لهم الفرصة لإقامة إمارات في الشرق.

ولم يكن التجار الإيطاليون من دعاة السلام، فما قامت به جنوة وپيزا من مهاجمة المسلمين في البحر المتوسط في سردينيا وشمال أفريقية، جعل الحرب مهنة مقبولة لتحقيق الأغراض التجارية. أما توسّع النورمان في صقلية فلقي من موافقة الكنيسة وتشجيعها ما جعل الأمراء النورمان يعتبرون أنفسهم أتباعاً للكنيسة، فتقلّدوا منها حكم كل ما فتحوه في صقلية. فلما تحدّث البابا أوربان الثاني أواخر القرن الحادي عشر إلى المسيحيين بالغرب، لمس من استجابتهم ما يصوّر خصائص أوروپا الإقطاعية وما تنطوي عليه من نشاط وحماس ديني ونزوع للقتال.

وأما ما كانت ترمي إليه البابوية من إقامة حكومة ثيوقراطية في الشرق، تجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية، فلم يكن إلا أملاً بدّدته قوة الأحداث والمطامع الدنيوية والتجارية. وإذ حلّ الصليبيون بالشرق، اتخذوا من النظم والوسائل ما يتفق مع أوضاعهم الإدارية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية، وأبقوا على صلات وثيقة بالغرب المسيحي، وشجعوا الهجرة إلى الشرق الأوسط.

على أن نجاح الصليبيين في أول الأمر، لم يرجع فحسب إلى كثرة أعدادهم، وإلى ما تلقّوه من مساعدات من الغرب المسيحي ومن الدولة البيزنطية، بل يرجع أساساً إلى تفرّق كلمة المسلمين، ونشوب الفتن الداخلية واضطراب الأمن، وإلى ما اتّبعه القادة الصليبيون من أساليب الغدر والخيانة، واستخدام العملاء في تحقيق أغراضهم، وإلى ما قاموا به من مذابح في سكان البلاد التي استولوا عليها برغم ما بذلوه لهم من الأمان، ففرضوا نوعاً من الإرهاب المعنوي على أبناء البلاد.

وأدرك المسلمون آخر الأمر أن الصليبيين لم يستهدفوا إلا مصلحتهم الخاصة، وأنهم يتطلّعون إلى مدّ نفوذهم وسلطانهم إلى سائر البلاد الإسلامية، ولم تلبث فكرة الجهاد أن خرجت إلى حيّز التنفيذ، واشتدت ثائرة المسلمين، وتهيأ للأمة الإسلامية القادة الذين مضوا بها إلى طريق النصر.

***

حرص ملوك القدس الأوائل من اللاتين، وهم: بودوان الأول وبودوان الثاني وفولك، على توطيد ملكهم في بيت المقدس، وفرض سلطانهم على سائر الإمارات الصليبية، فامتدّت رقعة المملكة، وتوافرت لها أسباب الدفاع بما شيّده هؤلاء الملوك من استحكامات على أطراف المملكة، وبما أقاموه من قوات عسكرية تشمل فئات عديدة، وبتشجيع نموّ طبقة النبلاء الإقطاعيين.

على أن انقسام العالم الإسلامي هيّأ للصليبيين الاستقرار في الشرق الأدنى، وحملهم على أن يقيموا من النظم السياسية والقضائية والعسكرية والاجتماعية ما كفل لهم البقاء في جسم العالم الإسلامي. فلم يكُ خافياً على الصليبيين ما كان من عوامل الفرقة والاختلاف بين القوى الإسلامية، فحاولوا عزل المسلمين بالشام عن سائر المسلمين في الدول الإسلامية المجاورة، بما لجأوا إليه تارة من التحالف مع بعض الإمارات الإسلامية ومساندتها لمناهضة الإمارات الأخرى في داخل بلاد الشام أو خارجها، وبما سعوا إليه تارة أخرى من استمالة بعض الزعماء الثائرين على الحكومة الإسلامية في بغداد أو القاهرة، وأفادوا في ذلك من الاختلافات الشعوبية: العرب، الترك، الكرد، التركمان؛ ومن الاختلافات المذهبية أيضاً.

غير أن كل الجهود التي بذلها الملوك الثلاثة الأوائل في الفترة الممتدة بين سنة 1100–1143 م في سبيل المحافظة على كيانهم في الشرق الأدنى، لم تصمد لما حدث في المرحلة التالية بين 1143–1174 م من تغييرات في أوضاع الإمارات الصليبية والدول الإسلامية المجاورة والدولة البيزنطية ودول غرب أوروبا. ففي هذه المرحلة يُعدّ بودوان الثالث أول من حكم بيت المقدس من الفرنجة المستوطنين، بعد أن انقرض بوفاة فولك الجيل الأول من الأمراء الصليبيين الذين اشتركوا في الحروب الصليبية منذ بدايتها.

في هذه المرحلة اكتمل نموّ الإمارات الصليبية فنال تقاليدها السياسية والاقتصادية والعسكرية من التعديل والتغيير ما يتلاءم مع أحوال الشرق. وبلغت الإمارات اللاتينية في تطورها مرحلة تهيأ عندها لكل إمارة أن تستقل بأمورها، وأن تنزع إلى إغفال الروابط الإقطاعية التي كانت تجمع بين سائر الإمارات، فلم يعد لملك بيت المقدس المكانة العليا إلا باعتباره مقدّم الأسوياء، ولم يدفعه إلى التدخل في شؤون الإمارات الأخرى إلا ما كان يربطه مع بعض الأمراء من صلات القرابة والمصاهرة، أو استنجادهم به. فلم تكن هذه الإمارات سوى حلف مفكك مهدّد بالانهيار. يضاف إلى ذلك ما حدث من ظهور الأحزاب في مملكة بيت المقدس وسائر الإمارات، بسبب التنازع على الحكم، ولما كان من الاختلاف بين البارونات المحليين الذين يميلون إلى المسالمة والمحافظة على التقاليد التي استقرّت بين اللاتين في الشرق، وبين القادمين حديثاً من الغرب الذين اشتهروا بالمغامرة والحرص على اغتنام الإقطاعات وشدّة كراهيتهم للمسلمين وميلهم إلى القتال، وشجّعهم على ذلك انحلال بعض الإقطاعات من أصحابها الأصليين وانتقالها إلى أراملهم. فوفد من غرب أوروبا من التمس الجاه والثراء، ومن هؤلاء رُنو دى شاتيّون وغي دى لوزينيان.

يقابل هذا التطور في الإمارات اللاتينية ما اتخذه الأمراء المسلمون من خطوات نحو الوحدة، والمبادرة إلى استرداد الأراضي الإسلامية التي استولى عليها الغزاة الصليبيون. ومن نتائج هذا الاتحاد سقوط الرُّها في يد زنكي، وامتداد هجماته إلى بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس. والواقع أن حركة الجهاد الديني انبعثت عند المسلمين، منذ أن تعرضوا للقتل والتشريد والتعذيب عند سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين، غير أن تفرّق كلمة المسلمين وشقاقهم عطّل هذه الحركة، وهيّأ للصليبيين الفرصة للتمكين لأنفسهم في الشرق الأدنى.

فالفترة الممتدة من قيام مملكة بيت المقدس حتى ظهور زنكي اتّسمت بالجهود المتفرّقة التي بذلتها القوى الإسلامية، والتي دلّت على ما ادّخره المسلمون من بسالة وشجاعة وقوّة وبأس، إذ أن عدّة من قادة الحملة الصليبية الأولى وزعمائها، أمثال بوهيمون الأول، وبودوان، وجوسلان، وقعوا في أيدي الأمراء المسلمين. وتحقق للمسلمين النصر الحاسم في وقائع عديدة، فاندحرت جيوش الفرنجة في معارك كثيرة، وتعرّضت أملاكهم في أنطاكية والرُّها للضغط الشديد من قبل المسلمين.

على أن افتقار المسلمين إلى الوحدة وتغلّب المصالح الشخصية والأسرية والشعوبية، فضلاً عن الحاجة إلى زعيم قوي يؤمن بالمصالح الإسلامية العامة، كل ذلك أطال أجل الإمارات اللاتينية. ثم أدرك عماد الدين زنكي أهمية توحيد الجبهة الإسلامية قبل المضي لمنازلة الصليبيين، فبادر إلى توطيد ملكه في الموصل وحلب، واستطاع ابنه نور الدين أن ينتزع دمشق من التحالف مع الفرنجة، فلم تلبث أن دخلت في نطاق ممتلكاته، واكتملت الوحدة باندماج مصر في أملاك نور الدين، وصار في مقدور السلطان العادل الشروع جدياً في استرداد القدس الشريف ودحر المحتلّين الصليبيين.

وبهذا تهيأ الطريق للبطل الخالد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، كيما ينجز ما استهلّه عماد الدين زنكي وابنه نور الدين من جهد في سبيل الوحدة، وينزل بالصليبيين الضربة القاصمة في معركة حطين، وينتزع منهم بيت المقدس سنة 1187 م.

***

أما ما تلا معركة حطين من الحملات الصليبية، فهو ينقسم إلى مرحلتين: تنتهي المرحلة الأولى سنة 1291 م، بسقوط عكا التي كانت عاصمة مملكة بيت المقدس الثانية؛ بينما امتدت المرحلة الثانية، التي تشمل الحملات الصليبية المتأخرة، إلى القرن الخامس عشر.

تُعدّ معركة حطين الفاصلة نقطة تحوّل كبرى في تاريخ الحروب الصليبية، فالمعروف أن الفرنجة استطاعوا في المئة سنة الأولى من هذه الحركة أن يقيموا لهم إمارات في الشرق الأدنى، وحرصوا على أن يجعلوا لها من نظم الحكم والقضاء والجيش والمالية والإدارة ما اعتقدوا أنه يهيء لهم الاستقرار. ولكن في أعقاب معركة حطين انهار كل ما أقامه الفرنجة من إمارات، وكل ما نعموا به الرخاء، وما توافر لهم من أسباب الدعة، وما جرى من النشاط التجاري. ولم يبق للصليبيين إلا أنطاكية وطرابلس وصور، وذلك بفضل أسطول صقلية.

وراح بعض المؤرخين ينحون باللائمة على صلاح الدين لعدم تمكنه من الإيقاع بصُور، التي أضحت من بعد حطين الملجأ الأول لفلول القوات الصليبية، ونقطة الانطلاق التي استند إليها الفرنجة لإعادة غزو بعض أقسام الساحل الشامي من جديد. غير أن السبب الحقيقي للردّة الصليبية آنذاك يكمن في ما استثارته في أوروپا الهزيمة الساحقة لجيوش الصليبيين في حطين وسقوط بيت المقدس وغالبية الإمارات الصليبية في الشام بأيدي المسلمين من جديد، فجُرّدت حملة صليبية جديدة - هي الثالثة - بحجم فائق الضخامة، وشارك فيها ملك فرنسا فيليپ أوغست وملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد. ولم يتوجه بعد هذه الحملة إلى الشرق ما يماثلها في ضخامة حجمها، هذا فضلاً عن اتحاد أوروپا واشتراكها فيها.

غير أن هذه الحملة الثالثة مع ذلك لم تؤدِّ إلا إلى نتائج ضئيلة، وما حققته من أهداف لم يتجاوز الاستيلاء على المدن الساحلية من عكا حتى يافا، وانتزاع جزيرة قبرص من سيدها البيزنطي، والمحافظة على أنطاكية وطرابلس وبعض الحصون التي حازها الداويّة والإسبتاريّة سابقاً. وبرغم الجهود الجبّارة التي بُذلت من أجل إنجاح هدف الحملة الثالثة في استعادة بيت المَقدس، لم يصل بها الأمر أبداً إلى حصار المدينة المقدسة. غير أن أهم ما أسفرت عنه الحملة الصليبية الثالثة هو أن الحركة الصليبية أفلتت من يد البابوية لتضحي نظاماً دنيوياً صرفاً.

بعد هذه الحملة الثالثة شهدت الحركة الصليبية انحرافاً خطيراً عام 1204 م بقيام الجيوش اللاتينية بالإغارة على القسطنطينية عاصمة بيزنطة، وإقامتهم لإمبراطورية لاتينية كاثوليكية فيها. وفي هذا الأمر الدليل الدامغ على أن الحركة الصليبية استهدفت ضرب الكنيسة الشرقية المنشقّة (الأرثوذوكسية)، والبرهان على أن المكاسب المادية كانت من أكبر الدوافع التي حملت بارونات الغرب على تجييش الفرق وإرسالها لغزو المشرق، سواءٌ كان هذا المشرق إسلامياً أم مسيحياً.

والواقع أن ما اشتهرت به الحروب الصليبية من حماس وصيت قد اختفى بما جرى من تحوّل الحملة الرابعة، برغم ما اقترنت به حملات لويس التاسع فيها بعد على مصر وتونس من روح دينية. وبعد ذلك الحين تبيّن أن أيام الحروب الصليبية ولّت، إذ كانت الحملات التالية تعتبر فشلاً ذريعاً برغم ما أصابته من بعض نجاح.

وأخيراً، في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد انهارت جميع الدول الصليبية في ما أطلق عليه مؤرخو الغرب «سوريا الفرنجية»، وذلك بسقوط عكّا عاصمة مملكة القدس الثانية على أيدي المماليك في عام 1291 م. ولم يؤدّ سقوط عكا بأيدي المسلمين إلى إثارة دول أوروبا للقيام بأي مجهود حربي جديد، إذ أن فرنسا التي تعتبر الموئل الأساسي للحركة الصليبية، بلغ من شدّة انصرافها إلى الحروب مع إنكلترا ثم صراعها مع البابوية أنها لم تستطع بعد ذلك تركيز جهودها نحو الشرق.

ويُعدّ أمراء أوروبا أيضاً مسؤولين عما أصاب الحركة الصليبية من فشل، لأنهم اتخذوها وسيلة للحصول على أغراض دنيوية، وبذا أسهموا في إخماد الحماس الديني الذي اشتهرت به الحرب المقدسة. كما حملت المصالح التجارية للمدن الإيطالية على اشتداد التنافس والنزاعات المريرة فيما بينها بالشرق، مما أدى إلى وقوع معارك عديدة بينها. يضاف إلى ذلك ما وقع من نزاع بين الطوائف الدينية والعسكرية، وما درجت عليه من سياسات تتصف بالأنانية والوصولية لتحقيق مآربها الشخصية.

الواقع أن الحركة الصليبية، التي امتدّت منذ أواخر القرن الحادي عشر إلى أواسط القرن الخامس عشر للميلاد، كانت كما يرى المؤرخ رنيه غروسيه صاحب هذا الكتاب: «كمن يسعى إلى حتفه بظلفه أو ينتحر بيده».

***

الكتاب والمؤلف

رنيه غْروسيه René Grousset مؤرخ ومستشرق فرنسي شهير (1885-1952)، شغل منصب أستاذ في مدرسة اللوفر عام 1928، ثم محافظ لمتحف تشيرنوسكي Cernuschi في عام 1933، ومدرّس لتاريخ الحضارات في المدرسة الوطنية للّغات الشرقية في عام 1941، ثم أضحى محافظاً عاماً لمتحف غيميه Guimet في عام 1944، وعضواً في الأكاديمية الفرنسية بعد ذلك بعامين. ترك رنيه غروسيه انطباعاً طيباً كإداري ممتاز ومدرّس قدير، غير أن اسمه يبقى بالدرجة الأولى مرتبطاً بأعماله العلمية في حقل العلوم الإنسانية، هذه الأعمال التي أسفرت في فرنسا بشكل كبير عن فهم الشرق وتقديره.

رغم أن غروسيه لم يزر الشرق ولم يبارح وطنه الأم فرنسا، ورغم عدم إجادته لأي من اللغات الشرقية، فقد تمكّن من الإحاطة التامة بخفايا الشرق وشؤونه. وترك لنا عدداً غير قليل من المؤلفات التاريخية والدراسات المختصة بفلسفة الحضارات الشرقية، ما بين عامي 1922-1948، من أهمها: تاريخ آسيا؛ حصيلة التاريخ؛ شخصيات تاريخية بارزة؛ تاريخ الفكر الفلسفي الهندي؛ تاريخ الحروب الصليبية ومملكة القدس الفرنجية؛ إمبراطورية السهوب؛ تاريخ آسيا الشرقية منذ أقدم العصور حتى القرن السادس عشر؛ تاريخ الصين؛ تاريخ أرمينيا منذ أقدم العصور حتى عام 1071 م.

أما مؤلَّف غروسيه الضخم عن تاريخ الحروب الصليبية (1934-1936) في 3 أجزاء تتجاوز 2500 صحيفة، فما زال إلى يومنا هذا أفضل وأوسع ما كتب عنها بفرنسا رغم مضي سبعين عاماً على نشره، وكان المؤرخ البريطاني الشهير ستيفن رنسيمان قد امتدحه في كتابه المعروف *A History of the Crusades*، بقوله[1]: «قُبيل نشوب الحرب العالمية الثانية أصدر غروسيه كتابه عن تاريخ الحروب الصليبية في ثلاثة أجزاء، وتبعاً للتقليد الفرنسي جمع غروسيه بين غزارة العلم وسلاسة الكتابة ووطنية الغاليين المعروفة».

---

(1) راجع: Steven Runciman: *A History of the Crusades*, Penguin Books, vol. I, p. xii.

فلا غرو إذن أن نعدّ كتابه هذا المختصر مثالاً للمدرسة الفرنسية حول الحروب الصليبية وخلاصتها المفيدة. وكان الكتاب قد صدر بپاريس ضمن السلسلة الثقافية المعروفة «Que sais-je?» العدد 157. وللمؤلف بالطبع كتب أخرى حول الموضوع، منها كتابه المتميز عن الحروب الصليبية:

l'Histoire des croisades et du royaume franc de Jérusalem.

وكتابه الآخر حول الموضوع ذاته: *l'Epopée des croisades*.

فالواقع أن ترجمة هذا الكتاب من شأنها إغناء مكتبتنا العربية حول موضوع الحروب الصليبية، بالإضافة إلى إعطاء صورة وافية عن نظرة الفرنسيين إلى تاريخ هذه الحروب، التي كانت بالأصل فرنسية اللُّحمة والسّداة.

وسيلي ذلك إن شاء الله ترجمة كتاب غْروسيه الكبير عن «تاريخ الحروب الصليبية ومملكة القدس الفرنجية»، بأجزائه الثلاثة وصفحاته التي فاقت 2500 بحرف دقيق، ثم كتاب «تاريخ الحروب الصليبية» *Geschichte der Kreuzzüge* للمؤرخ الألماني المُجيد هانز إبرهارد ماير.

* * *

في هذه الترجمة، استخدمتُ للتعبير عن حرف G المتبوع بحرف ساكن الحرف (غْ) وفق نطق أجدادنا العرب في الأندلس، كقولهم: غرناطة، أراغون. أما عبارة de أو du الفرنسية فعبّرتُ عن حرف العلّة فيها بألف مقصورة إطلاقاً، جرياً على رسم حروف العلّة الأخيرة في الأبجديّة العثمانية القديمة، بدلاً من: دو، دي.

وأمنيتنا أخيراً أن يشاركنا القرّاء الأكارم أفكارهم وانطباعاتهم حول هذا الكتاب أملاً في تعميق التواصل وتبادل الأفكار[1].

بيروت، 27 ديسمبر 2009

د. أحمد إيبش

(1) عنوان المترجم للمراسلة: a.ibesch@hotmail.com

RENÉ GROUSSET
DE L'ACADÉMIE FRANÇAISE

HISTOIRE
DES
CROISADES
ET DU ROYAUME FRANC
DE JÉRUSALEM



L'ANARCHIE MUSULMANE
ET LA MONARCHIE FRANQUE

Avec deux cartes hors texte et deux dans le texte.

PRÉFACE DE JEAN RICHARD
de l'Institut

PERRIN
12, avenue d'Italie
PARIS

أنموذج صفحة عنوان كتاب غروسّيه الموسّع
«تاريخ الحروب الصليبيّة ومملكة القدس الفرنجيّة»

الفصل الأول

المسألة الشرقية
ما قبل الحروب الصليبية

المسألة الشرقية في العصور القديمة

تمثّل فترة الحروب الصليبية مرحلة من مراحل الصّراع الأوروبي الطويل ضد آسيا. بدأ هذا الصراع منذ أن وجدت أوروبا في نفسها - متمثلة بالحضارة الهيلينية - القدرة على مواجهة العالم الشرقي المتمثّل آنذاك بالإمبراطورية الفارسية، وهذا ما أدى إلى قيام الحروب الميدية التي تم من خلالها إحكام السيطرة الإغريقية على آسيا (490-469 ق.م).

ثم تحت قيادة الإسكندر الأكبر (336-323 ق.م) استمرّ الهيلينيون قُدماً في حملاتهم التوسعية فأخضعوا الإمبراطورية الفارسية، حتى تجاوزت حدود النّفوذ الأوروبي نهر الهندوس. وأعقب ذلك ردّة فعل آسيوية قام بها الپارثيون فردّوا الهيلينيين على أعقابهم إلى غربي نهر الفرات (129 ق.م). وخلال أربعة قرون ونصف منذ عام 64 ق.م حتى 395 م أخذت روما، وريثة الولايات الإغريقية والوصيّة على الحضارة الهيلينية، على عاتقها مهمّة الدفاع عن هذه الحدود ضد إيران الپارثية، ثم (بدءاً من عام 224 م) ضد إيران الساسانية.

بعد ذلك، أخذ الصراع بين روما والعالم الإيراني منحىً خاصاً، فقد تغيّر وجه المسألة الشرقية كلياً عندما قام الإمبراطور قسطنطين Constantin عام 325 باعتناق الديانة المسيحية قطعياً، وازداد عمق التغيير بدءاً من عام 395 م عندما تحوّلت الإمبراطورية الرومانية إلى إمبراطورية بيزنطية، واكتسبت بوضوح طابعاً دينياً. وصارت عبارة «الرُّوميّة» Romanité بالمفهوم البيزنطي لهذه الكلمة، مرادفة لمعنى الأرثوذوكسية المسيحية، فيما صارت إيران من جهة أخرى، منذ الإصلاحات الساسانية بها عام 224 م، مقترنة بالعقيدة المزدكيّة.

هكذا نرى أن المسألة الشرقية، التي كانت حتى ذيّاك الحين مجرد نزاع عرقي وحضاري، قد أضحت نزاعاً دينياً. وهذا ما أدّى بالنتيجة إلى اندلاع حرب مقدسة بين الطرفين، كالحرب التي شنّها إمبراطور الشرق هراكليوس Héraclius (هرقل) بين عامي 622-628 م على الملك السّاسانـي خُسرو الثانـي. وقد كان الفرس قبل ذلك قد استولوا على أورشليم عام (614 م) وانتزعوا منها صليب المسيح الأصلي. ثم في عام 630 م تمكن هراكليوس المنتصر من استرجاع الصليب وإعادته باحتفال مهيب إلى كنيسة القبر المقدّس بالقدس. لقد كانت هذه في الواقع باكورة ما يسمى بالحملات الصليبية.

الفتوحات الإسلامية

بينما كانت فارس وبيزنطة تنهكان نفسيهما في أُوار الحروب الطويلة الطاحنة قام النبي محمّد[1] (570-632 م) بتوحيد قبائل العرب تحت عقيدة جديدة (الإسلام)، أفضت إلى حثّ العرب لغزو هاتين الإمبراطوريتين في آن واحد.

ولا يمكن لنا تعليل الانتصارات الإسلامية الساحقة[2] وفتوحاتها بمعزل عن كون الثورة الإسلامية قد طرأت في خضمّ يقظة الشرق وتأهّبه لإيقاف زحف الحضارة الهيلينية بشكلها الأخير، أي الأرثوذوكسية البيزنطية. وقبل ظهور الإسلام بما يزيد على القرنين من الزمان، كانت الإمبراطورية الإغريقية الرومانية تستمدّ مشروعية وجودها في الشرق من خلال كونها تتمثّل عقيدة دينية. فظهرت في المقابل في العالم الإسلامي من خلال شرائع القرآن دعوة «الجهاد»، أي الحرب المقدّسة الإسلامية. ويبدو فضلاً عن ذلك أن الفتوحات الإسلامية قد أفادت في كلٍ من سوريا ومصر ممن تعاطف معها من الملل المسيحية القائلة بوحدانية طبيعة المسيح monophysisme، وهي المذاهب السّريانية والقبطية، التي ناصبتها العقيدة الأرثوذوكسية البيزنطية العداء كمذاهب هرطقية منشقّة.

---

(1) رسول الله، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(2) ما كاد القرن الهجري الأول ينقضي، حتى كانت حدود الدولة الإسلامية الجبّارة آنذاك قد تخطّت آفاقاً شاسعة في قلب العالم القديم، في قارتي آسيا وأفريقيا، فامتدّت يومها من حدود الهند والصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن آسيا الوسطى وجبال القفقاس شمالاً إلى الصحراء الأفريقية الكبرى جنوباً.

ومما يعلّل الانتصارات الإسلامية أيضاً بعض الشيء، تلك السهولة النسبية التي استطاع بها المسلمون انتزاع سوريا وفلسطين من أيدي البيزنطيين (معركة أجنادين 634 م، ومعركة اليرموك 636 م، وفتح القدس 638 م)، وكذلك فتح مصر (فتح الإسكندرية 643 م) دون مقاومة تذكر، وفتح أقطار شمال أفريقية بدءاً من عام 647 م، أو بالأحرى لاحقاً في 670 م (تأسيس القيروان). وعند هذا التاريخ الآنف الذكر، كانت رقعة الإمبراطورية البيزنطية في آسيا قد انحسرت إلى ما لا يزيد عن شبه جزيرة الأناضول.

المقاومة البيزنطية
في القرنين السابع والثامن

توصّلت الفتوحات الإسلامية إلى حد من الانتصارات المتلاحقة كادت معها أن تؤدي إلى القضاء المبرم على الإمبراطورية البيزنطية، وذلك منذ انطلاقتها الأولى، فبين الأعوام 673-677 م بلغ الاجتياح الإسلامي أسوار القسطنطينية Constantinople نفسها بعد اجتياز بحر مَرْمَرَة، وحاصر المسلمون المدينة التي لم يتيسّر لعاهلها لإمبراطور قسطنطين الرابع إنقاذها إلا بفضل اختراع النار الإغريقية feu grégeois. وفي عام 717 م، تمكن جيش إسلامي بعد أن قطع آسيا الصغرى من أقصاها إلى أقصاها، من اجتياز مضائق الدّردنيل نفسها، وبالتالي محاصرة القسطنطينية عن طريق البر. ولقد أجبر الإمبراطور ليون الثالث الإيسوري Léon III l'Isaurien هذا الجيش على التراجع والانسحاب (عام 718 م)[1].

ينبغي لنا - نحن الأوروپيين - الاعتراف بحق لهؤلاء الأباطرة الأشدّاء الذين حكموا في تلك «الظروف العصيبة» بفضلهم في إنقاذ «معقل» الحضارة الأوروپية. فإن أيام القسطنطينية المشهودة في عامي 717-718 م، التي صدّ فيها ليون الإيسوري زحف الهجوم الإسلامي في الشرق، لا تقلّ في أهميتها بشيء عن يوم معركة پواتييه Poitiers عام 732 م، الذي أوقف فيه قائدنا الفرنسي شارل مارتل Charles Martel هجوماً آخر مشابهاً في الغرب.

---

(1) أمر بهذه الغزوة سليمان بن عبد الملك (98 هـ) فأرسل أخاه مسلمة إلى القسطنطينية حتى يفتحها، فأقام عليها شتاءً وضيّق الخناق عليها شهوراً قبل انسحابه.

وفي عام 739 م أحرز ليون الإيسوري وابنه قسطنطين الخامس نصراً جديداً على المسلمين في آكروينون Akroïnon من أراضي فريجيا، وحقق هذا النصر فترة مؤقتة من الأمن لآسيا الصغرى. لكن عندما انتقلت الخلافة الإسلامية إلى بني العبّاس[1] عاودت الغارات الإسلامية على شبه جزيرة الأناضول سيرتها الأولى، وتكرّرت حملات جيوش الخليفة هارون الرشيد (786-809 م) على البيزنطيين فراحت تدكّ مواقعهم في كل من كپادوقيا وفريجيا.

وفي عام 838 م اقتحم المسلمون مدينة آموريوم Amorium الواقعة في قلب فريجيا وانتهبوها، وأما قادة حاميتها البيزنطية فقد أُبقو في الأسر مدة طويلة، ثم صدر الأمر بإعدامهم لرفضهم اعتناق الديانة الإسلامية (عام 845 م)، وقد اشتهر هؤلاء باسم «شهداء آموريوم الاثنان والأربعون»[2]. وتوضح هذه الحادثة بجلاء كيف أن تلك الحروب القديمة بين المسلمين والبيزنطيين يمكن اعتبارها بشكل أو بآخر بمثابة «حروب صليبية باكرة».

ومن جهة أخرى، كان المسلمون قد أثبتوا موطئ قدم لهم في جزيرة قبرص (686 م)، واستطاعوا استخلاص جزيرة كريت من البيزنطيين (827 م).

الانتصارات البيزنطية

تغيّر مجرى الأحداث في منتصف القرن التاسع بسبب انهيار خلافة بني العبّاس بعد انحدارها المتدارك، وسرعان ما باتت سلطة حكم الخلفاء العباسيين مقتصرة فقط علي العراق (بغداد)، بينما توزّعت باقي أقسام الإمبراطورية العباسية الدويلات الإسلامية الإقليمية الأخرى. كان من نتيجة ذلك أن آلت مهمة الدفاع عن ثغور العالم الإسلامي ضد البيزنطيين إلى أسرة حاكمة صغيرة محليّة هي أسرة أمراء حلب الحمدانيين (944-1003 م) الذين لم يكونوا بقادرين على أداء مثل هذا الدور الخطير بمفردهم.

---

(1) وكان ذلك عام 750 م (132 هـ)، عندما تغلب العباسيون على الحكّام الأمويين، ودمّروا عاصمتهم دمشق بقيادة عبد الله بن علي العباسي، وصارت بغداد عاصمة الخلافة بدلاً من دمشق، حتى القرون الوسطة.

(2) يحتفل الروم الأرثوذوكس بعيد الشهداء الـ 42 في 9 مارس من كل عام، ولو أن الشائع الآن أن عددهم 40. أما أموريوم فهي عمورية التي غزاها المعتصم العباسي ودمّرها.

بالإضافة إلى ذلك، قامت بمصر خلافة جديدة منفصلة (969-1171 م) هي خلافة الفاطميين، الذين كانوا قبل ذلك (منذ 908 م) حكاماً لتونس، وكان هذا الانفصال خطيراً للغاية، لأنه لم يندرج فقط على نطاق الحكم، وإنما كذلك على النطاق الديني: وذلك بين الخلافة العباسية، ذات المذهب السنّي الشائع في آسيا الإسلامية برمتها تقريباً، والخلافة الفاطمية، ذات المذهب الشيعي المنتشر في مصر؛ وكانت شقّة الخلاف العقائدي بين الطرفين حادّة وعميقة كتلك التي أصابت العالم المسيحي، وأدّت إلى فصل بيزنطة عن البابوية.

بيد أنه في نفس الوقت الذي أثمرت فيه بذور الشقاق والفرقة في العالم الإسلامي، كانت الإمبراطورية البيزنطية أثناء حكم الأسرة المقدونية (بين 867-1057 م) بدأت تشهد نهضة باهرة وعهداً جديداً من القوة. وبدأ الغزو المسيحي المعاكس بقيادة القائد البيزنطي نيسيفور فوكاس[1] Nicéphore Phocas، الذي استرجع كريت من المسلمين (961 م).

وعندما أصبح إمبراطوراً (963-969 م) قام فوكاس باسترجاع قبرص منهم أيضاً (964-965 م)، وكيليكية Cilicie (احتلال أذَنة في عام 964 م، وطرسوس 965 م). وفي عام 968 م وجّه إلى الشام حملة جرّارة أحرق في خلالها حمص وضواحي طرابلس كما ضمّ منطقة اللاذقية إلى الإمبراطورية البيزنطية. وفي عام 969 م تمكن قائده ميخائيل بورتزيس Michel Bourtzès من انتزاع مدينة أنطاكية Antioche الكبيرة من أمير حلب، وقد بقيت أنطاكية في أيدي البيزنطيين حتى عام 1078 م (أو بقيت نظرياً كذلك حتى عام 1085 م).

بعد نيسيفور فوكاس، قام جان تزيميسكيس[2] Jean Tzimiskès الذي خلفه في عرش القسطنطينية (969-976 م) بإرسال حملة ظافرة إلى الشام الإسلامية (975 م). فبلغ دمشق عن طريق حمص وبعلبك ومنها اخترق الجليل، وقد وصلتنا عنه رسالة كتبها (مشكوك بها) تبيّن حجّه إلى الأماكن المقدّسة في الناصرة وجبل الطُّور. لكنه بدلاً من توجيه قواه لانتزاع القدس من الفاطميين بذل جهوده في استرجاع أنطاكية عن طريق الساحل اللبناني، وقد نجح في ذلك.

---

(1) سمّاه المؤرخون العرب المعاصرون لتلك الفترة: «نقفور»، وهذا أصحّ كلفظه اليوناني.

(2) سمّاه المؤرخون العرب: «يوحنا ابن الشمشقيق».

وفي الواقع، كان أهم ما يعيق البيزنطيين عن الاستمرار في غزو فلسطين هو استحالة أخذهم لمدينة طرابلس الساحلية، التي يسميها البعض نظراً لموقعها الاستراتيجي الحصين «جبل طارق السوري» Gibraltar syrien. بينما سنرى كيف أن الفرنجة الصليبيين، في عام 1099 م، قد تميّزوا بقدر أوفر من الإقدام مما مكّنهم من التوغل أعمق من طرابلس نفسها.

عندما انتقل الحكم في بيزنطة من بعد تزيميسكيس إلى الإمبراطور باسيليوس الثانـي Basile II (976-1025 م)، قام هذا الأخير بترسيخ السيطرة البيزنطية على شمال سوريا بنجدته لأمير حلب عندما هاجمه فواطم مصر. ولكنه مع ذلك لم يأت بأية حركة عندما فرض الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله على النصارى تضييقاً قاسياً (1009-1010م)[1]، حتى أن كنيسة القبر المقدّس (كنيسة القيامة) بالقدس هُدمت وسوّيت بالأرض بأكملها تقريباً.

ثم كانت آخر أعمال الغزو البيزنطي المعاكس ضد المسلمين احتلال الرَّها (أورفة) Edesse الواقعة شرقي نهر الفرات بالجزيرة العليا. افتتحها القائد الملكي جورج مانياكيس Georges Maniakès بين عامي 1030-1031 م، وبقيت الرَّها تحت السيطرة البيزنطية حتى عام 1086-1087 م.

صحيح أن الغزو البيزنطي المعاكس في القرن العاشر الميلادي قد استطاع أن يعيد إلى الإمبراطورية القديمة قسماً من شمال سوريا (أنطاكية واللاذقية)، وكذلك الرَّها شمال غرب الجزيرة، ولكنه مع ذلك لم يتوصل بحال من الأحوال إلى بلوغ مدينة القدس نفسها.

وعلى عكس ما كان مأمولاً من هذا الغزو، فإنه فشل في تحقيق غايته كحملة صليبية. على أن إعادة تنصير أنطاكية والرَّها على أيدي البيزنطيين كانت لها فيما بعد نتائج هامة، فقد وجد الصليبيون عام 1098 م في مسيحيي هاتين المدينتين نقطة ارتكاز لا غنى عنها، ومن هناك بالذات (من أنطاكية والرَّها) بدأوا غزواتهم في سوريا.

---

(1) الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي، منصور بن العزيز، سادس الخلفاء الفاطميين بمصر، حكم بين 996-1021 م. كان في السنوات الأولى من حكمه متفانياً في خدمة البلاد والعمل على ازدهارها، لكن نهاية عهده اشتهرت بالظلم والاستبداد.

دور أرمينيا في المقاومة المسيحية

في خضمّ الصراع المستعر بين أوروپا وآسيا، أي بين المسيحية والإسلام، ثمّة دور هام لعبته الأمة الأرمنية أثّر في مجريات الأحداث، نبيّنه فيما يلي:

في غضون القرون الثلاثة الأولى للميلاد، وقعت أرمينيا فريسة لتنازع القوتين العظميين آنذاك: الرُّومانية من جهة، والإيرانية (الپارثية ثم السّاسانية) من جهة أخرى. ولكن هذا الوضع تغيّر عندما تحوّل الملك الأرمني تيريدات الثالث Tiridate III إلى الديانة المسيحية. وفي هذا النزاع القائم بين أوروپا وآسيا انحازت أرمينيا إلى الجانب المسيحي، أي بعبارة أخرى إلى أوروپا.

لم يجد الأرمن ثمّة من غضاضة في ربط مصيرهم بغيرهم من الدول، وليس ينطبق ذلك فقط على المحيط اليوناني الروماني بل وحتى بالنسبة للمحيط الإيراني، إذ أُلحقت أرمينيا بإيران عندما تخلّى الإمبراطور البيزنطي تيودوس Théodose عنها لصالح الإمبراطورية الساسانية في عام 390 م تقريباً. إلا أن الأرمن كانوا يثورون على السّاسانيين كلما حاولوا حملهم على ترك ديانتهم المسيحية (كثورة وارطان ماميكونيان ومقتله البطولي في عام 451 م)، وأخيراً سمح البلاط الفارسي لأتباعه الأرمن بممارسة طقوسهم الدينية بحرّيّة (عام 485 م).

غير أن رجال الإكليروس الأرمني قاموا حوالي عام 527 م باعتناق مذهب الوحدانية monophysisme (القائل بوجود «طبيعة» واحدة للمسيح)[1]، وهذا ما وضع أرمينيا في موضع الخلاف الجذري مع الأرثوذوكسية اليونانية. ولكن أرمينيا ضمنت بذلك استقلالها الروحي التام: فإن معموديتها المسيحيّة حفظتها من الانصهار في الحضارة الفارسية (وكذلك في الإسلام فيما بعد) من جهة، بينما وقاها مذهب الوحدانية من الانصهار في بوتقة بيزنطة من جهة أخرى.

بعد انهيار الإمبراطورية الساسانية قام المسلمون بغزو أرمينيا (كفتح دوڤين Dovin العاصمة الأرمنيّة عام 642 م)، لكن رغم وقوع الأرمن تحت السيطرة الإسلامية استطاعوا الحفاظ على عقيدتهم المسيحية. وعموماً كان الخلفاء يعيِّنون على أرمينيا في الغالب حكاماً من أبناء الأسر الإقطاعية الأرمنيّة نفسها، وبخاصة من أفراد أشهر أسرتين كبيرتين: ماميكونيان وبقرادونيان.

(1) ظهر هذا المذهب في القرن الخامس الميلادي، وحُرِّم في مجمع خلقيدونية عام 451 م.

وممن تولى حكم أرمينيا من أسرة پقرادونيان آشود ميدز Achot Medz المعروف بالأكبر (856–890 م). وفي عام 885 م قام بلاط بغداد بإعادة نظام الملكية الأرمنيّة لصالح هذا الأمير. على أن ملوك آل پقرادونيان اللاحقين الذين امتدت أملاكهم في منطقتي قارص وآنـي لم يتمتعوا بسوى سلطة إسمية على أمراء الأرمن الآخرين. ومن العائلات الأرمنيّة الأخرى التي تمتعت بقدر من النفوذ آنذاك، أسرة آرتسرونيان المحلّية الحاكمة في واسپوراكان (شرقي بحيرة وان). أما ثاني ملوك پقرادونيان فكان الملك سمباط الأول Sembat I^{er} المعروف باسم «الشهيد» (890–914 م)، الذي انتهى حكمه بقبض المسلمين عليه وقتله.

ثم عادت الأمور إلى مجاريها بتنصيب ابنه ملكاً، وهو آشود الثانـي آركا «الرجل الحديدي» (914–929 م)، الذي يؤرَّخ عهده كبداية للاستقلال التام لأرمينيا، ولكن هذا الاستقلال تعرض للاختلال أثناء حكم الملك آشود الثالث الشفوق (953–977 م)، الذي وصل في ضعفه إلى الحد الذي حمله على التنازل لأخيه عن مدينة قارص العاصمة القديمة، بينما أقام هو في آنـي (عام 962 م)، وهذا ما أدى إلى استفحال التجزئة الأرمنيّة. ويضاف إلى هذه الانقسامات الإقطاعية تفاقم المجادلات اللاهوتية العنيفة بين الكنيسة الأرمنيّة (ذات مذهب الوحدانية) والكنيسة البيزنطية (ذات العقيدة اليونانية الأرثوذوكسية).

وبالرغم من كل هذه المشاحنات، بقيت أرمينيا، التي عاد إليها استقلالها التام جرّاء انحسار النفوذ الإسلامي، مركزاً لحضارة عالمية بارزة. وقد أشاد الملكان البقرادونيان سمباط الثانـي (977–990 م) وخاتشيك الأول (990–1020 م) في مدينة آنـي كاتدرائية شهيرة، فضلاً عن عمائر أخرى، وقد اعتبر كل من الباحثين ستجيغوڤسكي Strzygowski وبالتروزايتيس Baltrusaitis أن لطراز عمارة هذه الأبنية أثراً ما في ارتقاء فن العمارة الأوروبية في القرون الوسطى.

كانت أرمينيا بمثابة درع مسيحي يغطي ظهر الإمبراطورية البيزنطية عند دنوّ المخاطر من جهة إيران، وهذا ما حدا بالإمبراطور البيزنطي باسيل الثانـي للشروع في الاستيلاء عليها وإلحاقها بإمبراطوريته، إمارة تلو أخرى. فأجبر أمير واسپوراكان على التنازل له عن ولايته (عام 1022 م)، وأخذ يعدّ العدّة للإيقاع بمملكة آنـي البقرادونية. وأكره ملك آنـي خاتشيك الثانـي، عام 1045 م، على الخضوع لعملية ضم مملكته إلى بيزنطة.

ثم في عام 1064 م، قام آخر الأمراء الأرمن، وهو أمير قارْص Kars، بتسليم ولايته بدوره إلى الإمبراطورية البيزنطية.

أدّت عملية ضمّ أرمينيا إلى الإمبراطورية البيزنطية إلى توسيع رقعة الحدود البيزنطية بعيداً جداً نحو الشرق، ولكنها من جانب آخر أدّت إلى زيادة حدّة التنافر المذهبي بين الكنيستين اليونانية والأرمنيّة، ونجم ذلك عن لجوء الأولى إلى أساليب الإكراه بغية اجتذاب الثانية إلى الحظيرة الأرثوذوكسية. وفوق كل ما ذُكر أسهم هذا التنافر في تسهيل نفاذ الغزو التركي.

الفتوحات السَّلچوقية

لم يكن ليقدّر للغزو البيزنطي المعاكس المضيّ بنجاح إلا بسبب انحطاط الإمبراطورية العبّاسية وإصابتها بعوامل التجزئة. ولكن، في أواسط القرن الحادي عشر الميلادي حلّ محل العرب في القيادة السياسية لآسيا الإسلامية قوم محاربون أشدّاء، هم الأتراك الذين أضرموا في الحرب المقدّسة الإسلامية (الجهاد) زخماً وانطلاقة جديدين.

تنتمي هذه الموجة الجديدة إلى قبيلة السَّلاچقة الأتراك الخارجة من سهوب تركستان، وكان زعيمها السلطان طُغْرُلْبِك[1] السَّلچوقي بعد غزوه لإيران قد فرض نفسه منذ عام 1055 م كنائب دنيوي لخليفة بغداد، الذي لم يعد يمثّل سوى السلطة الدينية. وبذلك، تم عملياً استبدال الخلافة العبّاسية بسلطنة سلچوقية، والإمبراطورية العربية بإمبراطورية تركية.

كان أول ما فعله السَّلاچقة أن أخذوا على عاتقهم مهمة متابعة الصراع ضد البيزنطيين، الأمر الذي كان العرب أهملوه منذ فترة جدّ طويلة. وفي خضمّ هذا الصراع، وجد الأتراك ذوو النّشأة العسكرية المحاربة مجالاً كبيراً لإجراء فتوحات عظيمة، وكذلك وجدوا فيه الفرصة المواتية ليثبتوا أمام ناظري العالم الإسلامي برمّته مشروعيّة انفرادهم بالهيمنة عليه[2].

---

(1) اسمه بالتركية: Toğrul-Bey، وبالتركية طغرل نوع من الطيور الجارحة.

(2) الحق أن مهمّة الدفاع عن الأمة الإسلامية بعد الانهيار الفعلي لدولة بني العبّاس بأواسط القرن الرابع قام به السلاچقة ثم أتابكتهم وبعدهم آل زنگي فالأيوبيون فالمماليك.

أفلح السلطان السَّلچوقي ألپ أرسلان[1] Alp-Arslan (1063-1072 م) في انتزاع القسم الأعظم من أرمينيا من البيزنطيين (فتم له فتح آنـي وقارص عام 1064 م). وتولّى إمبراطور بيزنطي مليء بالحماس، هو رومانوس الرابع ديوجينوس Romain IV Diogène إجراء غـزو معاكس لأرمينيا، ولكن دون جدوى، فقد كُسر كسرة نكراء على يدي السلطان ألپ أرسلان في معركة ملازكرد[2] الفاصلة Mantzikert عام 1071 م، ووقع أسيراً في أيدي أعدائه السَّلاچقة. وقد استفحلت عواقب هذه الكارثة من جرّاء الحروب الأهلية التي أدّت خلال عشرة أعوام (1071-1081 م) إلى شلّ القدرة الدفاعية البيزنطية تماماً في آسيا الصغرى.

وحيال تلاشي النفوذ البيزنطي، سنحت الفرصة لمغامر نورماندي كان يعمل في السابق في خدمة الإمبراطور رومانوس ديوجينوس، وهو روسّيل دى بايّول Roussel de Bailleul، فكاد قبل وصول الأتراك أن ينجح في اقتطاع إمارة مستقلة من جسم الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى (1073-1074 م). وما عتّم هذا المغامر أن لقي مصرعه مسحوقاً ما بين البيزنطيين والأتراك، ولكن تبقى لهذه المحاولة أهميتها الخاصة: فهي تعطينا مثالاً جليّاً عن الباحثين عن مغامرة الحملة الصليبية الأولى.

أَلْفَتْ آسيا الصغرى نفسها مُشرعة الأبواب أمام السَّلاچقة الأتراك، فانطلقوا يفتتحون أرجاءها بغاية الحماس، حتى أن الأمراء البيزنطيين المتنازعين على عرش بيزنطة لم يسعهم إلا الاعتراف بهم كحكام للمناطق التي فتحوها. وكانت النتيجة أن الأتراك استطاعوا بين عامي 1078-1081 م احتلال آسيا الصغرى برمّتها تقريباً، سواء في المناطق الداخلية مثل قونية (إيكونيوم Iconium سابقاً)، أو على الأطراف القصيّة كنيقية وإزمير.

---

(1) الاسم تركي ويعني: الأسد الجسور، فأرسلان في التركية الأسد. ولا زال الاسم معروفاً بالشام إلى يومنا هذا، ومن أشهر من سُمّي به الشيخ الصوفي أرسلان الدمشقي. وقد يرد الاسم بالتركيّة مخففاً بصيغة: أصلان Aslan. وممّا يشابه ذلك اسم: قبلان Kaplan (نمر).

(2) فتحت هذه المعركة أبواب آسيا الصغرى على مصراعيها أمام السلاچقة الأتراك، فأسسوا فيها سلطنة عُرفت باسم سلطنة سلاچقة الروم. ويعتبر مؤرخونا العرب هذا النصر واحداً من أزهى الانتصارات الإسلامية على الروم البيزنطيين، ورأو فيه الردّ - ولو بعد قرن كامل من الزمان - على انتصارات البيزنطين على العباسيين والحمدانيين بقيادة نقفور وابن الشمشقيق في القرن العاشر الميلادي.

وفي نيقية تربّع على سدّة الحكم أحد الأمراء السّلاچقة، هو سليمان ابن قُطْلُمُش، وكان هذا الأمير في الواقع المؤسس الفعلي للسلطنة السّلچوقية في آسيا الصغرى، التي عُرفت باسم دولة «سلاچقة الرّوم» (ثم عُرفت فيما بعد باسم سلطنة قونية). وقد قُدِّر لهذه السلطنة البقاء ما ينوف على القرنين من الزمان، من عام 1081 م إلى 1302 م.

أثناء الانعدام العام للسلطة البيزنطية في آسيا، بقيت بعض المناطق تقاوم الأتراك، وهي بالتحديد أنطاكية في سوريا والرُّها في الجزيرة. ومن جهة أخرى، منذ أن وقعت أرمينيا تحت الاحتلال التركي، نزلت جالية أرمنية كثيفة في الرَّها وكيليكية. وبين عامي 1071 م و 1084 م استطاع أحد المغامرين الأرمن ويدعى فيلاريتوس Philarétos، كان قد خدم سابقاً في جيوش رومانوس ديوجينوس، استطاع أن يعيد الاعتراف بسيادته على ملاطية ومرعش والرّها وأنطاكية، وكذلك على كيليكيا. ثم قضى هذا المغامر نحبه تحت سنابك الزّحف التركي، وغنم السّلاچقة أنطاكية (عام 1084 م) والرّها (عام 1087 م) وسهل كيليكيا، ومع ذلك بقي ثمّة بضعة زعماء من الأرمن احتفظوا بما في أيديهم من أملاك في ملاطية وفي طوروس الكيليكي، وحتى في الرّها التي استعادوها عام 1095 م (وسنرى كيف أن هذا الأمر سيكون له شأنه ضمن مجريات الحملة الصليبية الأولى).

بغضّ النظر عن هذه الاستثناءات كانت سوريا البيزنطية ومثلها الأناضول قد آل ملكهما إلى السّلاچقة الأتراك. وقد تسنّم السلطان السّلچوقي مَلِكشاه (1072–1092 م) مقاليد سلطنة تمتد أرجاؤها من خُراسان إلى خليج إسكندرون وتبلغ حتى حدود مصر جنوباً. لكن بعد وفاته تقسّمت ممتلكات دولته الشاسعة بين أفراد أسرته الحاكمة.

قامت تبعاً لذلك سلطنة سلچوقية في إيران، استمرّت حتى عام 1194 م، وسلطنة سلچوقية أخرى في آسيا الصغرى بقيت حتى عام 1302 م، ومملكتان سلچوقيتان مؤقتتان في سوريا، إحداهما في حلب والأخرى في دمشق[1].

---

(1) أسّس المملكة تُتُش بن ألب أرسلان السّلچوقي 1094 م، ثم حكم ابنه دُقاق دمشق (1095–1103 م)، وابنه الآخر رضوان حلب (1095–1113 م) فتلاه ابنه ألب أرسلان ابن رضوان (1113–1114 م) ثم أخوه سلطان شاه بن رضوان (1114–1117 م).

علاوة على هذه التفرقة، عانت الدول السَّلجوقية في سوريا وإيران من الدسائس التي أدّت إلى التشتت والتفرقة الداخلية التي راح يسبّبها بشكل خاص الإسماعيلية، وهو مذهب عربي فارسي مشترك، وقد عرفوا أيضاً بالحشيشية Assassins، واستطاع هؤلاء تثبيط عزائم الحكام بما كانوا يبثّونه من دعوات باطنية مناهضة للأعراف السائدة، وبما كانوا يقومون به من اغتيالات سياسية (1090-1256 م).

سرعان ما أدّى هذا التشتّت الإقليمي والتوتّر السياسي إلى إيقاف حركة التوسع التركي في المنطقة، وكان في كل ذلك الفرصة المواتية لإجراء تدخل من جهة الغرب.

* * *

الفصل الثانـي

الدول الصليبيّـة
في سوريا وفلسطين

أصول دعوة الحركة الصليبيّـة

ما الذي حمل الغرب على التدخل في شؤون الشرق؟ وما هي أصول دعوة الحركة الصليبيّة؟

إن إعلان الحرب، من جهة الغرب ضد العالم الإسلامي، سابق في الواقع للحملة الصليبيّـة الأولى. فقد حمل الغرب السلاح ضد المسلمين منذ فترة طويلة، حيث أن المسلمين أنفسهم كانوا قد هاجموا الغرب في عقر داره، أي أوروپا، فإسپانيا[1] وقعت بكاملها تقريباً تحت الفتح الإسلامي منذ الفترة الممتدة بين 711-718 م، ومنذ ذلك الحين شرعت غاليسيا وآستوريا ووديان الپيرينيه بالكفاح بضراوة لردّ الغزاة على أعقابهم.

وفي القرن التالي لذلك، قام مسلمو تونس (سلالة الأغالبة)[2] بفتح جزيرة صقلية من البيزنطيين (فتح پاليرمو عام 830 م، ومسّينا عام 842 م، وسيراكوزة عام 876 م). وقد استطاعوا تثبيت أقدامهم حتى في شبه الجزيرة الإيطالية، حيث احتلوا باري Bari (عام 848 م) وتارانتو Taranto (عام 856 م). وقامت إحدى فرق المسلمين بعملية اتصفت بجرأة واجتراء خارقين، تمكنوا فيها من الإغارة على كنيسة مار بطرس الكبرى في قلب روما (عام 846 م).

---

(1) أي الأندلس، التي فتحها الأمويون وأقاموا بها إمارة قرطبة في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الأول (الملقّب بعبد الرحمن الدّاخل أو صقر قُرَيْش) عام 752 م، وأقاموا بالأندلس حتى سقوط غرناطة عام 1492 م.

(2) حكم بنو الأغلب شمال أفريقيا إبّان عهد العبّاسيين بين 800-909 م، وكانت عاصمتهم القيروان. مؤسّس دولتهم إبراهيم بن الأغلب وآخرهم زيادة الله عبد الله الثالث.

وجاء رد الفعل المسيحي متباطئاً، بدأه الإمبراطور الكارولنجي الجسور لويس الثانـي Louis II - وهو حاكم كبير لم يُوَفَّ حق قدره - فاستردّ باري من المسلمين (عام 871 م). وأما البيزنطيون فقد استرجعوا مدينة تارانتو في عهد الإمبراطور باسيل الأول المقدونـي، ولكن المسلمين استطاعوا الاحتفاظ بجزيرة صقلية لفترة طويلة. ولم يتم إجلاؤهم عنها سوى عند مجيء النورمانديين، فقد نجح الزعيم النورماندي روجيه الأول Roger I^{er} شقيق روبير غيسكار الشهير Robert Guiscard، بعد حرب ضروس، في تحرير الجزيرة (استرجاع مسّينا عام 1061 م، وكاتانيا وپاليرمو عام 1072 م، وترابانـي عام 1077 م، وتورمينا عام 1079 م، وسيراكوزة عام 1085 م، وجيرجنتي عام 1086 م، ونوتو عام 1091 م). وعندما أضحى روجيه الأول كونتاً لصقلية، تابع أعماله بانتزاع جزيرة مالطة أيضاً من المسلمين (عامي 1091 و 1092 م).

بعد فترة وجيزة، وجدت الجمهوريات الإيطالية الساحلية نفسها مُلزمة بالمشاركة في هذه الحروب، بسبب ما شعرت به سابقاً وحاضراً من تهديد القراصنة المسلمين لمدنها البحرية. وكان المسلمون قد باغتوا جنوة فانتهبوها وأخربوها عام 935 م، وهذا ما حدث أيضاً في پيزا في عامي 1004 و 1011 م.

ثم في عام 1015 م قام الپيزيون يساعدهم الجنويون بعمل انتقامي مضاد، فأجلوا المسلمين عن جزيرة ساردينيا التي كانوا يتمركزون بها. وبعد أن أخذ الپيزيون بثأرهم قاموا عام 1034 م بإنزال بحري في الجزائر وأخربوا مدينة عنّابة. وكذلك في عام 1087 م قامت الأساطيل الپيزية والجنوية، بطلب من البابا ڤيكتور الثالث Victor III، بإجراء إنزال مماثل في تونس، ووقعت «المهديّة» العاصمة التونسية في أيديهم، وقبل إقلاعهم قام المغيرون بتحرير عدد كبير من الأسارى المسيحيين.

وتلا ذلك في القرن التالي قيام نورمانديي صقلية بدورهم في اجتياز البحر وتعقّبهم للمسلمين حتى أعتاب تونس وطرابلس الغرب. وبعدها قام ملك صقلية روجيه الثانـي Roger II باحتلال طرابلس (في يونيو 1146 م)، والمهدية وسوسة وصفاقس (يوليو - أغسطس 1148 م)، وبقيت هذه المدن تحت السيطرة النورماندية لعشرة سنين، حتى حرّرها المسلمون منهم (تحرير صفاقس عام 1156 م، وطرابلس عام 1158 م، والمهديّة عام 1160 م).

وفي إسپانيا كانت حركة «الريكونكيستا»[1] (حرب الاسترداد) المسيحية قد بدأت منذ زمن بعيد. كانت هذه في الواقع حملة صليبية باكرة وليس كما رأينا مما سبق من «حملات صليبية محلّية»، بل كانت - على الأقل في مبدئها - مشروعاً مسيحياً عالمياً، فمراراً ما استُدعي البارونات الفرنسيون للمشاركة فيها.

وأما «أولى الحملات الصليبيّـة الفرنسية» حسب تعبير المؤرّخ أوغستان فليش Augustin Fliche، فكانت تلك التي جيّشها في أراغون عام 1163-1165 م بدعوة من البابا ألكسندر الثانـي،كل من إبل دى روسي الشامپانـي Eble de Roucy le Champenois، ودوق أكيتين غي جوفروا Guy-Geoffroi. ولقد كتب فليش: «إن العالم الغربـي، بأمر من البابا، يكرِّس كل قواه لمحاربة العالم الإسلامي. لقد ولدت فكرة الحملات الصليبيّـة».

وفي عام 1085 م، أي بعشرة أعوام قبل إطلاق شعار «تلكم هي مشيئة الرّبّ» (*Deus lo volt*) الشهيرة في مجمع كليرمون Clermont الكنسي، أسفرت حركة «الريكونكيستا» المسيحية من جهتها عن إحراز أول نتيجة حاسمة لها، ألا وهي استرجاع مدينة طليطلة Toledo، بيد ألفونسو السادس Alfonso VI ملك قشتالة.

دعوة الحركة الصليبيّـة ودورها التاريخي

كانت حركة «الريكونكيستا» الإسپانية (حرب الاسترداد) قد مهّدت في الأذهان لدعوة الحملات الصليبيّـة، وكان البابا غريغوار[2] السابع Grégoire VII (1073-1085 م)، الذي عمل بفعالية للحثّ على إرسال تعزيزات إلى إسپانيا، يتطلع إلى إرسال نجدة عسكرية إلى الإمبراطورية البيزنطية، ولكن وإن كانت هذه الفكرة قيد الطرح، فإن من توصل إلى تحقيقها فعلاً كان البابا أوربان الثانـي Urbain II[3].

---

(1) العبارة باللغة الإسپانية: Reconquista، أي إعادة الغزو أو الغزو المعاكس، وقد اخترنا لتعريبها عبارة: حرب الاسترداد.

(2) كذا يُلفظ الاسم بالفرنسية، يقابله بالإنكليزية: غريغوري Gregory، وبالإيطالية: غريغوريو: Gregorio. والأصح كتابة اسمه باللاتينية: Gregorius.

(3) الاسم أصلاً باللاتينية: Urbanus أوربانوس، لكننا درجنا هنا على نُطقه بالفرنسية.

يُلاحظ أن أوربان كان سابقاً أحد رهبان دير كلونـي Cluny[1]، حيث كان للنّفوذ الكلونـي أثره الكبير لصالح حركة «الريكونكيستا» الإسپانية. ونجد في ذلك علاقة جديدة بين هذه الحركة وبين الحركة الصليبية بمعنى أو بآخر.

ولكن من جهة أخرى، وإن كان البابا أوربان الثانـي ما قبل الحركة الصليبية قد بدا بمظهر الموافق لقيام الإمبراطور البيزنطي آلكسيوس كومنينوس Alexis Comnène بتطويع فرق من المرتزقة الفرنجة لصالحه (في مجمع پليزانس Plaisance الكنسي، 1-7 مارس 1095 م)، فإنه من الخطأ القول بأن هذا الحاكم هو الذي دعاه إلى إعلان الحرب المقدّسة. بل كانت مبادرة الحركة الصليبية إنجازاً خالصاً لهذا الحبر (البابا)، وقد احتفظ البابا بهذا الأمر في طويّة نفسه لفترة طويلة، ولم يُفض به إلى الملأ إلا متكاملاً بعد رويّة وإمعان، بمنشور رسمي في مجمع كليرمون - فيرّان الكنسي Clermont-Ferrand، في 27 نوڤمبر من عام 1095 م. وفي ذلك اليوم، استصرخ البابا الملّة المسيحية لتجريد السلاح لتحرير القبر المقدّس، ولتحرير مسيحيي الشرق الرازحين تحت طغيان الإسلام[2]!

فبأي شيء تراها تتميز هذه الدّعوة عن أولئك اللواتـي أطلقهن في السابق البابوات أو الحكام «اللاتين»، بهدف تجريد مثل هذه الحملات على مسلمي صقلية وإسپانيا أو أفريقيا؟

* * *

---

(1) كلونـي مدينة في شرقي فرنسا أنشئ بها عام 910 م دير للآباء البنديكتيين، واعتبر نشاطها الديني والسياسي في دعم حركة حرب الاسترداد الإسپانية أساسياً، كما كان حاله في إطلاق دعوة الحركة الصليبية ذاتها على يدي أوربان الثانـي عام 1095 م.

(2) كذا وردت العبارة في النص الفرنسي، نقلاً عن فحوى خطبة البابا أوربانوس الثانـي في كليرمون، ترجمناها هنا دون أي تصرّف. أما حول موضوع الطغيان المذكور فنذكّر أن مسيحيي الشرق، وهم شركاء المسلمين في ملكية البلاد وفي كافة حقوق مواطنتها، إنما عانوا في الحقيقة من اضطهاد الحكام الصليبيين الجدد من اللاتين، وبخاصّة نذكر منهم المسيحيين التابعين للكنائس غير الملكية في الشرق، كاليعاقبة والنساطرة. حتى أن أتباع الملّة الأرثوذوكسية في سوريا (المعروفون بالرّوم، أي اليونان) عُدّوا من قبل الصليبيين مسيحيين من الدرجة الثانـية، وذلك كانعكاس للعداء الناشب ما بين مذهب الرومان الكاثوليك في فرنسا وإيطاليا وإسپانيا وإنكلترا ومذهب الأرثوذوكسية السائد في بيزنطة. وخير من فنّد هذه المزاعم وبيّن حقائقها كان المؤرخ الألمانـي الكبير هانز إبرهارد ماير في كتابه الممتاز عن الحروب الصليبية. راجع:

Mayer, Hans Eberhard, *Geschichte der Kreuzzüge*, Stuttgart 1965. S. 6.

حتى ذلك الحين ظلّت الحملات ضد المسلمين، في صقلية مثلاً أو في موانئ شمال أفريقية، محافظة على طابع سياسي صرف. وحتى في إسپانيا حيث كانت حركة «الريكونكيستا» (الاسترداد) كما رأينا إرهاصاً سابقاً للحركة الصليبية، لم تنتشر هذه الحركة كغيرها إلا ضمن نطاق محصور، هو شبه الجزيرة الإيبيرية ولمصلحة ممالك محلّية كالكاستيل (قشتالة) أو آراغون. أما دعوة أوربان الثانـي القوية الغامرة التي غيّرت تاريخ العالم فقد تميّزت عن المشاريع السابقة لها بطابعها الديني الواضح، وبأهدافها المتجرّدة منذ البداية وبعالميتها المطلقة.

كانت دعوة البابا لمحاربة الإسلام موجهة إلى الملّة المسيحية قاطبة. ومنذ اللحظة التي أعلن فيها خلفاء المسلمين الأوائل «الجهاد» ضد المسيحيين، لم تواجه الدّول المسيحية الإسلام - رغم طابعها الديني الذي أشرنا إليه في مكانه - بسوى مقاومة إفرادية. وحتى وإن كانت تلك الحرب بالنسبة لهذه الدول حرباً دينية حقاً فهي قبل ذلك حرب وطنية، لا بل وحتى حرب قوميات (مثل بيزنطة وأرمينيا). أما بدعوة أوربان الثانـي فقد واجهت المسيحية العالم الإسلامي بحرب مقدسة شاملة. وبهذا المعنى، صارت الحركة الصليبية مقابلة للجهاد الإسلامي وموازية له تماماً؛ ولنا أن نسمي الحركة الصليبية إذن «الجهاد المعاكس».

وهاهنا بدأ الانتصار منذ إعلان عام 1095 م بشكل لم يسبق له مثيل، وتجاوز هذا الانتصار إلى حدّ بعيد كل المبادرات الكلونـية بإرسال فرق شامپانيّة وبورغينية أو أكيتينية إلى إسپانيا. وسَرَت دعوة الحركة الصليبية بسرعة فائقة لأنها كانت ذات نزعة عاطفية أثارت إيماناً روحياً جماعياً، كما فعلت فيما بعد نزعات الحرية والقومية والعدالة الاجتماعية. وتلك النزعة الفكرية والإيمان الروحانـي اللذين ابتدعهما أوربان الثانـي في مجمع كليرمون، كانا هما اللذان أدّيا من خلال أثرهما العميق في عامة الناس إلى تأجيج الانطلاقة الروحية الخارقة في عام 1095 م. وقد كانت في البداية انطلاقة شعبية، ردّدت بصوت البابا صرخة: «تلكم هي مشيئة الرّبّ»[1] (*Deus lo volt*)، التي تجاوبت أصداؤها على مدى القرون. وكان من أثرها على سامعيها أن تصلّبوا[2] (خاطوا شعار صليب من القماش على ثيابهم كرمز للعهد الذي قطعوه على أنفسهم).

---

(1) العبارة باللغة اللاتينية أصلاً، وترجمتها بالفرنسية: «*Dieu le veut*».

(2) من فعل se croiser بالفرنسية، تصلّب: رسم إشارة الصليب على نفسه.

أجّجت هذه الانطلاقة الجماهير، ومن شواهد ذلك حملات بطرس الناسك Pierre l'Ermite التبشيرية ونجاحاته (وقد كان رجلاً فقيراً فضلاً عن أن الظروف لم تمهله للوصول إلى مبتغاه). وعمّت هذه الانطلاقة بالتّدريج طبقة الفرسان ثم طبقة البارونات، دون أن تصل في هذه المرّة إلى إدراج الأمراء الحاكمين تحت لوائها (وهذا الأمر ذو مغزى)، بل بقيت مصلحة الحكم العامة مقاومة لتقبّل تلك الحركة الواسعة للإيديولوجية العالمية.

ومثلما ظهر العنصر الإيديولوجي في البداية في جوهر الحركة الصليبية فإنه لم يختف كلياً بسهولة، ولسوف نرى كيف أن حدّته راحت تتلاشى شيئاً فشيئاً وهذا ما سيتضح في الحملات الصليبية اللاحقة، بيد أنه سيعود واضحاً وبكامل زخمه في عامي 1248 و 1270 م في حملة الملك لويس[1] التاسع Louis IX. لكنه صار بعد ذلك مرتبطاً بشكل مباشر تقريباً بنزعة الغزو conquête، ثم بنزعة الاستيطان colonisation.

كانت نزعة الغزو هي السائدة في البداية، والواقع أن إعلان الحركة الصليبية وقع في أوروبا بمرحلة كانت فيها بأشد توسع لها، هذا التوسع الذي أطلق ذلك الاستعمار الإمبريالي العسكري لكل من الإقطاعية واللوتارينجية[2] والاستعمار الاقتصادي للجمهوريات الساحلية الإيطالية.

في هذا المجتمع الصاخب الذي لا زال غير مستقر ويفور بالحيوية، أفاد إعلان غفران الخطايا الذي منحته الكنيسة للمحاربين الصليبيين بإعادة مظهر النقاء وحمل ضماناً معنوياً لأصحاب الضمائر الآثمة، كالمغامرين والفرسان قطاع الطرق. لكن هذه الفئات الباغية رغم أنها استكانت لفترة ما بتأثير النفحة الرّوحانية لعام 1095 م، فقد استرجعت مرة أخرى على أرض آسيا نزعاتها الأثيمة الشرسة[3].

---

(1) اسم Louis بالفرنسية يُلفظ «لوي»، وحرف S في أواخر الكلمات الفرنسية نادراً جداً ما يُلفظ. مثال: اسم مدينة Paris يُلفظ «باري» وليس «باريس». غير أن التعريب الشائع للأسماء المذكورة يُثبت لفظ السين، ولو أنه غلط، على الطريقة الإنكليزية. ومن الكلمات النادرة التي يُلفظ فيها حرف S: fils, ours, mœurs , sens.

(2) في الفرنسية: Lotharingie، مملكة أنشأها لوتير الأول في مقاطعة اللّورين شرقي فرنسا.

(3) يلاحظ أن المؤلف يقدّم نظرة موضوعية صادقة لدعوى هذه الحروب، التي كانت في حقيقة أمرها مشروع غزو واستيطان يتّسم بالنّزعات العدوانية.

وحتى بين البارونات أنفسهم، سرعان ما تحوّل عهد عام 1095 م المقدّس إلى نوع من أكثر المغامرات ربحاً وفائدة. ومن أبرز من أفاد من الفرص منهم بودوان الأول Baudouin Ier وبوهيمون Bohémond، وتانكريد Tancrède، الذين رأوا في الحركة الصليبية فرصتهم الذهبية غير المتوقعة لينتزعوا مقاليد السيادة لأنفسهم، وليأسسوا ممالكهم الخاصة تحت شمس المشرق الساطعة.

وقد آل أمر المحارب الصليبي فيما بعد إلى أن صار مجرد مقاتل غازٍ conquistador[1]، وصارت كل السبل أمامه مشروعة لتحقيق أطماعه، من بطش وإرهاب وحنث بالمواثيق، وحتى الاغتيال نفسه (كمقتل بودوان الأول في الرّها) طالما كان ذلك كفيلاً بمضاعفة مغانمه.

ومن أجل هذه الغايات الشخصية، لم يتردّد كل من بودوان الأول وبوهيمون[2] بالتخلّي عن الحركة الصليبية ما قبل تحرير القدس بفترة غير قصيرة. ومع ذلك سنرى كيف أن هذين الحاكمين الصليبيين الغربيين سيغدوان أكثر المنتفعين من المشروع الصليبي على الإطلاق، بودوان كملك للقدس، وبوهيمون كأمير لأنطاكية. وبذلك ندرك إلى أي حد استُغلَّت إيديولوجية الحركة الصليبية كستار لجملة من الأوضاع الراهنة، المتباينة فيما بينها أشد التباين.

* * *

ومن بعد نزعة الغزو، تبرز نزعة الاستيطان؛ فما إن خرجت الدول الفرنجية في سوريا وفلسطين منتصرة على يدي الحركة الصليبية، حتى برزت الضرورة الحتمية للاستيطان، وخلّف ذلك في تاريخ الشرق اللاتيني نزوعاً متعارضاً كلّياً مع الروح التي كانت سائدة عام (1095 م). وقد توجّب في كل من القدس وطرابلس وأنطاكية والرّها وغيرها، استنباط صيغة ممكنة للتعايش مع الدول الإسلامية التركية - العربية المجاورة، وللعيش باحتكاك دائم مع الفلاحين والتجّار المسلمين الباقين في الأراضي التي بحوزة الفرنجة، وتقبّل الحد الأدنى من التسامح الديني بين المسيحية والإسلام.

---

(1) العبارة باللغة الإسپانية (كونكيستادور)، وتعني الغازي أو الفاتح.

(2) حول طريقة كتابة هذا الاسم بالفرنسية وأصول لفظه سنأتـي على ذلك بالتفصيل أدناه، وننبّه إلى عدم صواب كتابة اسمه «بوهيموند» كما عوّدنا كتّابنا ومترجمونا العرب عن الإنكليزية.

ففي عكّا Acre أو صُور Tyr، لم يعد يُنظر إلى المسلم بنفس المنظار الذي ساد في كليرمون. وأما المستوطن الفرنجي في الأرض المقدّسة La Terre Sainte، أو «المُهر» le Poulain كما سمّاه فيما بعد - من باب الازدراء - الحجّاج الذين لا زالوا متمسكين بروح عام 1095 م، فقد أَلِف الجوار الإسلامي تدريجياً وتأقلم مع نمط الحياة الشرقية[1].

وقد وقف هذا المستوطن تجاه الأفكار والعادات الإسلامية - لا بل وحتى حيال العقيدة الإسلامية نفسها - موقفاً متساهلاً (ليبرالياً)، وقد تحوّل هذا الموقف فيما بعد ذلك إلى حجر عثرة في وجه الحجيج. وعلى النقيض من ذلك، بدت صورة الحجيج، ونموذج المحارب الصليبي في الحملات الصليبية اللاحقة، في ناظري «المهر» المستوطن، ضرباً من معالم التعصّب.

وبسبب وقوع هذا التضارب ما بين الحجيج والصليبيين الجدد من جهة وبين المستوطنين الصليبيين السابقين من جهة أخرى، برزت الضرورة الملحّة لتطبيق سياسة محلّية، أي سياسة فرنجية واضحة تجاه الإسلام بالشكل الذي لا يدع مجالاً لانعدام الرضا عند أمثال أوربان الثانـي، ولكن بما يكفل من جهة أخرى عدم التأخير في تحقيق مشروع «بارونات الأرض المقدّسة» على أرض الواقع.

يمكن القول إن تاريخ الشرق اللاتيني أضحى متمثّلاً بالنزاعات الحادّة من جهة وبجهود التسوية الدائمة من جهة أخرى، تلك التي قامت بين «فكرة الحركة الصليبية»، وبين «النزعة الاستيطانية». وينبغي لنا أن نضيف هنا أن هاتين الوجهتين كانتا متكاملتين، فلولا الانطلاقة الروحية للحركة الصليبية ولولا النزعة الإيمانية لمجمع كليرمون الكنسي، لم تكن لتوجد على الإطلاق في سوريا أية مستوطنات فرنجية. ولولا تطبيق واقعية الاستيطان على يدي شخص مثل بودوان الأول لما قُدّر لإنجاز الحركة الصليبية أن يدوم أكثر من عشرة أعوام.

* * *

---

(1) كتب الرّحالة الشهير ابن جُبير الأندلسي عام 580 هـ: «واختلافُ القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك. وتُجّار النصارى أيضاً لا يُمْنَع أحد منهم ولا يُعترَض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدّونها في بلادهم، وهي الأمَنَة على غاية. وتُجّار النصارى أيضاً يؤدُّون في بلاد المسلمين على سِلَعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس في عافية والدّنيا لمن غَلَب».

الحملة الصليبية الأولى
والمشكلة الشرعية البيزنطية

كان أوّل ما أسفر عنه إعلان الحركة الصليبية في كليرمون من نتائج تسيير حملات من الجماهير الشعبية، بقيادة بطرس الناسك Pierre l'Ermite، وغوتييه سانزافوار Gauthier-Sans-Avoir. لكن هذه الجموع غير النظامية التي لم يُغن حماسها عما تميّزت به من فقدان كلّي للانضباط، أثارت بما أتت عليه من أعمال السلب والنهب طوال مسيرتها نقمة البيزنطيين الذين ردّوا عليها بأعمال انتقامية، ثم حالما تدافعت هذه الحشود نحو آسيا وقعت طُعمة لسيوف الأتراك الذين أبادوها بالقرب من الهرسك على شاطئ بيثينيا (21 أكتوبر عام 1096 م).

أما الحملات الصليبية التي قام بتعبئتها البارونات، فكانت بالطبع أكثر تنظيماً؛ وكان البابا أوربان الثاني قد عيّن لها كقائد عام المفوّض البابوي أديمار دي مُونْتَيْ Adhémar de Monteil أسقف لوبوي le Puy، الذي اضطلع بشكل فعّال حتى زمن وفاته بأنطاكية (أول أغسطس 1098 م) بدور حسّاس للغاية، وذلك بالتوفيق ما بين مختلف البارونات الصليبيين. وفي الواقع بقي هؤلاء البارونات محتفظين باستقلالهم الشخصي.

ولقد مضت الجيوش في أربع فرق، متّخذة من القسطنطينية نقطة تجمعها، وكان على رأس المجموعة الأولى غودفروا دي بويّون Godefroi de Bouillon دوق مقاطعة لوتارينجيا السفلي la Basse Lotharingie، أي باربان Barbant، وهو المقاتل الباسل والتقي المخلص، وفي صحبته أخوه بودوان دي بولونْـيْ Baudouin de Boulogne، الذي يتمتع بشخصية طاغية قوية جديرة بالاحترام والثقة، وسنرى أن هذا الأخير سيكون المؤسس الحقيقي لمملكة القدس.

وبعد اجتياز هنغاريا والأقاليم البيزنطية في أوروبا بانضباط تام، بلغ جيش غودفروا القسطنطينية في 23 ديسمبر عام 1096 م. أما الفرقة الثانية فتألّفت من نورمان إيطاليا الجنوبية تحت قيادة بوهيمون دي تارانتو[1] Bohémond de Tarente ابن روبير غيسكار Robert Guiscard القائد المشهور، وبصحبته ابن أخيه تانكريد Tancrède.

---

(1) التسمية بالإيطالية هكذا، وإن كان المؤلف يكتب التسميات بالصيغة الفرنسية.

وبما تميّز به هذان الاثنان من الإقدام النورماندي والحنكة النابوليتانيّة، قدّم بوهيمون وتانكريد للحركة الصليبية خبرتهما العميقة بالوسط الشرقي الذي عرفاه من خلال الحروب القديمة الماضية لروبير غيسكار ضدّ بيزنطة، وبالاحتكاك المباشر مع مسلمي صقلية، وبذلك تصبح هاتان الشخصيتان إلى جانب بودوان الأول أبرز وجوه الغزو الفرنجي.

ووصل هذان الاثنان عن طريق إيپيريا Epire ومقدونيا Macédonie في أبريل 1097 م إلى القسطنطينية، حيث أثار وصولهما إليها مخاوف الإمبراطور آلكسيوس كومنينوس Alexis Comnène، الذي لم ينس قيام بوهيمون هذا نفسه قبيل بضعة سنوات (1081-1085 م) مع أبيه روبير غيسكار بمحاولة لاجتثاث إيپيريا ومقدونيا من سلطة بيزنطة، إلا أن بوهيمون وتانكريد، اللذين كانا سياسيين محنكين فضلاً عن كونهما محاربين صنديدين، عمدا بصفة مؤقتة إلى وضع حد لطموحاتهما، حتى أنهما جعلا من نفسيهما - بشكل مؤقت أيضاً - المنافحين عن قيصر الرّوم «basileus» أمام القادة الصليبيين الآخرين.

أما الفرقة الثالثة، فقد تشكلت من فرنسيي الميدي le Midi (الجنوب)، وكانت بقيـادة ريمون دى سان جيل Raymond de Saint-Gilles، كونت تولوز Toulouse، وهو شخص متقلّب الأهواء كثير الأطماع، كان يتوق إيّان سنحت له الفرصة، ومنذ اللحظة الأولى، إلى إبداء تصلّبه تجاه الدعاوى الشرعية البيزنطية، وكانت غايته من وراء ذلك أن يغدو عن قريب الممسك بخيوط السياسة البيزنطية في المشرق.

وأما الفرقة الرابعة، فقد تألفت من فرنسيي الشمال، وفيها بالخصوص كونت النورماندي Normandie روبير كورتوز Robert Courte Heuse، وكونت الفلاندر Flandre روبير الثانـي Robert II.

وفي القسطنطينية، حيث حُدِّد مكان التجمع العام، وجد القادة الصليبيون أنفسهم أمام معضلة تتعلق بالقانون الدولي، فإن الأراضي التي سوف يحاولون انتزاعها من أيدي الأتراك، ولنقل على الأقل أراضي سوريا الشمالية، كأنطاكية مثلاً، كانت لا تزال حتى عهد قريب تابعة للإمبراطورية البيزنطية (انظر فقرة: الانتصارات البيزنطية).

فانبرى الإمبراطور آلكسيوس كومنينوس يذكّر الصليبين بحقوقه الشرعية، وكادت محاولته هذه لضمان حقوق دولته في ممتلكاتها القديمة، بعدما جرى حولها من مفاوضات عاصفة، أن تتحول إلى صراع مفتوح بين الطرفين (كحملة غودفروا دى بويّون على أسوار القسطنطينية)، ولكنها انتهت أخيراً إلى الاتفاق بالتراضي؛ وتعهّد القادة الصليبيون بأن يردّوا إلى الإمبراطور البيزنطي كل ما يتمكنون من اغتنامه في الأقاليم التابعة سابقاً للإمبراطورية البيزنطية، أو على أقل تقدير أن يحكموها باسمه كنوع من الإقطاع، وإثباتاً لذلك استمروا في تأدية فروض الولاء له (أبريل 1097 م).

وبمقتضى هذا الميثاق، قام الصليبيون عندما دخلوا الأراضي الآسيوية، وأجبروا الحامية السَّلچوقية في نيقية على الاستسلام، بترك مطلق الحرية للبيزنطيين ليحتلّوا المدينة من جديد (26 يونيو 1097 م).

ومما يجدر ذكره هنا، أن نيقية لم تكن المدينة الوحيدة التي أُتيح للبيزنطيين استرجاعها من الأتراك بفضل الحملة الصليبية الأولى. فبينما كان الصليبيون يغذّون السير في طريقهم إلى سوريا، استغلّ الإمبراطور آلكسيوس كومنينوس البلبلة التي وقعت بين صفوف الترك، فانتزع منهم كذلك بقية بيثينيا وإيونيا (إزمير وإفسُس، عام 1097 م)، وكذلك ليديا وفريجيا الغربية (1098 م).

تلك الانتصارات كانت، في الواقع، نتائج غير مباشرة للحملة الصليبية الأولى، ولكنها لم تكن ضئيلة الأثر بالنظر إلى المنجزات الأخرى لهذه الحملة. وتوصلت بذلك مبادرة البابا أوربان الثانـي إلى واحد من أهدافها الأولى، وهو إجلاء الخطر عن القسطنطينية، وردّ ما كان للحضارة الهيلينية من القسم الأكثر أهمية في آسيا الصغرى.

والذي جرى هنا، أن كل ما كان يُخشى من وقوعه من فتح الأتراك للقسطنطينية ومن ثَمَّ دخولهم للقارة الأوروبية، في غضون الفترة الواقعة بين عامي 1081-1097 م، قد تم تأخيره إلى الأمام بعيداً (عام 1453 م). لقد كان لهذا الأمر من الأهمية التاريخية ما يفوق بنتائجه حتى فتح القدس نفسها.

***

أسباب نجاح الحملة الصليبية الأولى
تفكك العالم الإسلامي عند مجيء الصليبيين

تكشف السهولة النسبية التي تمكّن بها الصليبيون وحلفاؤهم البيزنطيون من الاستيلاء على نيقية، عاصمة المملكة السَّلچوقية في آسيا الصغرى، عن مدى تردّي أوضاع العالم الإسلامي في ذلك الوقت.

لنلاحظ بالتالي كم كانت تلك الفترة مواتية لصالح الصليبيين. فلو أن الحركة الصليبية قد أُعلنت قبل ذلك بعشرة أعوام، فكانت ستصطدم حتماً بالإمبراطورية السَّلچوقية العظمى الموحدة على يدي السلطان مَلِكشاه، وبالعالم التركي الإسلامي الذي يدين بالطاعة لسيد واحد من بُخارى شرقاً إلى سواحل البحر المتوسط غرباً، وعند ذلك فكان الإخفاق سيضحي مصيراً للحركة الصليبية دون أدنى شك.

ولكن ما جرى كان العكس، فقد صادف انطلاق هذه الحركة بعد انقسام الدولة السَّلچوقية عام 1092 م، وفي غمرة النّـزاعات على تركة الدولة بين الورثة السَّلاچقة، وجدت الحركة الصليبية في هذه الظروف الراهنة غير المتوقعة فرصة اهتبلتها واستغلّتها أيما استغلال. كان كل من سلاچقة آسيا الصغرى وسوريا وإيران على حالة من الخلاف مع بعضهم، وبذلك استطاعت الحركة الصليبية أن تهزم على حِدَة سلاچقة آسيا الصغرى، دون أن يحاول سلاچقة سوريا وإيران التدخل.

وحتى في سوريا[1]، كان ملكا حلب ودمشق الشقيقان[2] متخاصمين، وقد حارب كل منهما الصليبيين على حدة، ومُنيا بالهزيمة فُرادى. بينما كان سلاچقة إيران الذين لا زالوا محافظين نظرياً على سيطرتهم وأحرزوا مرتبة السلطنة، قد وقعوا مثل غيرهم طُعمة لصراع الإخوة. ومع ذلك، فقد قاموا في النهاية بالتدخل فيما يجري بسوريا ولكن بعد فوات الأوان، بعد أن كانت أنطاكية قد ضاعت.

---

(1) جرت العادة أن يكتب الاسم: سورية، وهذا غلط فصيغة الاسم يونانيّة محرّفة عن: آشوريا.

(2) يريد بهما رضوان ودُقاق، ابني الملك تُتُش بن ألپ أرسلان السَّلچوقي. فقد كان رضوان أميراً لحلب (1095 م)، فيما كان أخوه دُقاق أميراً لدمشق. حارب رضوان أمراء الشام مستنصراً تارة بالخليفة العباسي وطوراً بالخليفة الفاطمي، وحارب الإفرنج منفرداً فهزموه. توفي 1113 م.

إذا كان الورثة السَّلاجقة رغم ما بينهم من أواصر القربى لم يتوصلوا إلى الاتحاد ضد الحركة الصليبية، فما تراه الأمر يكون بخصوص الوحدة بينهم وبين حكام مصر من الفاطميين؟ لقد كان هذا ضرباً من المحال، فلم يكن ثمّة من رابطة تؤلّف بين الطرفين. فهناك بينهما أولاً الشقّة القومية: فالسَّلاجقة كانوا من التُّرك، أما الفاطميون فمن العرب. هذا ناهيك عن الشقّة الدينية: فالسَّلاجقة كانوا من المسلمين السنّة، وكان سلطانهم (الذي بإيران) يعتبر نفسه نائباً مؤقتاً للخليفة السنِّي في بغداد، وأما الفاطميون فقد كانوا من المسلمين الشيعة، وكان خليفتهم بالقاهرة بمثابة الإمام الأكبر للمذهب الشيعي قاطبة.

وكذلك لم يكتف حكام مصر الفاطميون بعدم نجدة سلاچقة سوريا ضد الحركة الصليبية، لكنهم فضلاً عن ذلك استغلّوا انشغال السَّلاچقة بحربهم مع الصليبيين أمام أنطاكية لينتزعوا القدس لأنفسهم، وكان ذلك بتاريخ 26 أغسطس 1098 م.

ومن الواضح أن الأوضاع العامة للعالم الإسلامي ساعة قدوم الصليبيين، تفسّر جانباً كبيراً من أسباب انتصارات الصليبيين، رغم ما ارتكبه هؤلاء من هفوات.

الحملة الصليبية الأولى في سوريا

غزو أنطاكية والقدس

عقب الاستيلاء على نيقية، نجح الصليبيون في اجتياز آسيا الصغرى قطرياً من شمالها الغربـي إلى جنوبها الشرقي. وفي الأول من يوليو عام 1097 م حقّقوا انتصاراً في دوريليوم Dorylée على سلطان سلاچقة آسيا الصغرى قليچ أرسلان Kılıç Arslan، وتمكّنوا منذ ذلك الحين أن يتوغلوا قُدماً دون أن يلقوا مقاومة قوية للغاية، عبر قونية والسلاسل الجبلية المتاخمة لجبال طوروس (l'Anti-Taurus)، أمّا الأتراك فلم يمكنهم سوى إخلاء السبيل أمامهم. وفي السلسلة المتاخمة لطوروس ومنطقة مرعش، لقي الصليبيون معونة من الأقوام الأرمنيّة التي هاجرت إلى هذه المناطق واستوطنتها منذ زمن غير بعيد، كما رأينا سابقاً.

ومن ثمّ انكفأ الصليبيون على سوريا الشمالية، وانبروا يحاصرون أنطاكية التي كانت تابعة آنذاك لأمير من التبعية السَّلچوقية (في 20 أكتوبر 1097 م). وكان الحصار قاسياً، دام أكثر من سبعة أشهر، وهلك في أثنائه كثير من الأشخاص المهمّين الضالعين بالدعوة الصليبية (ومنهم خاصة بطرس الناسك). وقد حاول ملك حلب السَّلچوقي رضوان بن تُتُش إنقاذ المدينة، لكنه أخفق في ذلك (في 9 فبراير 1098 م). وفي الثالث من يونيو، تم أخيراً اقتحام أنطاكية بفضل مبادرة من الأمير الإيطالي النورماندي بوهيمون[1] Bohémond.

وصل إثر ذلك جيش سلچوقي كثيف لنجدة المدينة، أرسله السلطان السَّلچوقي بإيران، ولكن بعد فوات الأوان، فمُني بالانكسار أمام أنطاكية (28 يونيو). واستطاع بوهيمون النَّزق الماكر، الذي يعود إليه الفضل في هذه الانتصارات، أن ينتزع إقرار الجميع على تنصيبه أميراً لأنطاكية، رغم معارضة بعض القادة الصليبيين الآخرين (مثل ريمون دى سان جيل). وأما بالنسبة للحقوق البيزنطية السالفة في المدينة، فقد تظاهر بوهيمون باعتبارها ملغية، ومع ذلك لم تتخلّ بيزنطة عن هذا الحق مطلقاً، كما سنرى لاحقاً (فقرة: تملّك فولك صاحب آنجو، وفقرة: حكم بودوان الثالث). وهكذا، تمّ تأسيس إمارة أنطاكية الفرنجية، التي قُدِّر لها البقاء من عام 1098 إلى 1268 م.

في تلك الأثناء، كان زعيم صليبي آخر، وهو بودوان دى بولونْـيْ Baudouin de Boulogne شقيق غودفروا دى بويّون، آخذاً من جهته في تأسيس كونتيّة ذات حكم ذاتـي في الرُّها Edesse (أورفة حالياً)؛ فعندما دعاه أمير تلك المدينة الأرمني طوروس Thoros ليحارب إلى جانبه ضد الأتراك، تعمّد بودوان تركه وحيداً ليهلك في هذه الفتنة، ثم ليصفو له الجو فيحلّ محله في حكم الرُّها (في 9 مارس 1098 م). وتلك كانت بداية كونتيّة الرُّها الفرنجية، التي دامت منذ عام 1098 إلى 1144 م.

---

(1) حول تعريب هذا الاسم معضلة: فأصله بالإيطالية Bohemondo، ويُلفظ: بويموندو. بينما جرت العادة أن يسمّيه مؤرخونا العرب: بوهيموند، بالصيغة الإنكليزية. أما في الفرنسية فيُلفظ: بُوْيمُون (بإهمال الهاء)، غير أننا آثرنا رسمه بوهيمون كيما يكون أقرب للفظ الفرنسي. وسبق أن ذكرنا أن الحرف H هو حرف مكتوب وغير منطوق في اللغات اللاتينية كلها، أما حرف D في آخر الكلمة فالآخر ليس بملفوظ بالفرنسية.

في تلك المرحلة بدت الحركة الصليبية وكأنها تضمحلّ، فكل بارون كان يفتّش عما يستطيع الاستئثار به من إقطاعٍ في سوريا الشمالية. وسرى ذلك كالعدوى، وأوضح مثال على ذلك ما فعله كلٌّ من بوهيمون وبودوان، اللذان تخلّيا منذ تلك اللحظة عن العمل لتحرير القدس ليكرّسا جهودهما، الأول لإمارته في أنطاكية، والثانـي لكونتيّته في الرُّها! وأخيراً، أدّى سُخط جماهير الحجاج تحت تهديد حدوث الفتن إلى إجبار الزعماء الصليبيين الآخرين على الوفاء بعهدهم المقدّس.

وبذلك تابع الجيش مسيرته في يناير 1099 م من شمالي سوريا باتجاه القدس تحت قيادة ريمون دى سان جيل، الذي كان أول من أذعن لضغط الجماهير (ثم انضم إليه غودفروا دى بويّون بعد فترة قصيرة). واجتاز الصليبيون وادي نهر العاصي l'Oronte ثم سلكوا الساحل من طرابلس إلى شمال يافا دون أن يتأخروا في الاستيلاء على المدن التي كانت لا تزال باقية - خاصّة طرابلس - تحت سيطرة المسلمين. ثم ارتقوا بعد ذلك هضبة الجليل في طريقهم لمحاصرة القدس.

كما رأينا سابقاً (فقرة: أسباب نجاح الحملة الأولى) أفاد حكام مصر (العرب الفاطميون) من حالة البلبلة التي أصابت السّلاچقة الأتراك، وخصوصاً عند انشغالهم بمناجزة الصليبيين حول أنطاكية، لانتزاع مدينة القدس لصالحهم (في 26 أغسطس 1098 م). لكن لم يكد الفاطميون يشرعون في تثبيت سيطرتهم على المدينة حتى ألقى الصليبيون حولها الحصار (منتصف يونيو 1099 م).

وهنا أيضاً، أتيح للحركة الصليبية الاستفادة من الصراعات الناشبة بين المسلمين؛ هذا فضلاً عن أن السّلالة الفاطمية الحاكمة، الآخذة في الضعف والانهيار، كانت بعيدة كل البعد عن محاكاة القدرة العسكرية التركية. وهكذا تمّ سقوط القدس بأيدي الصليبيين في 15 يوليو عام 1099 م، إثر اقتحام مروّع بذل فيه غودفروا دى بويّون Godefroi de Bouillon كل قواه وعرّض نفسه للموت بجسارة، ولكن أعقب ذلك - مع الأسف - مذبحة بشعة لسكان المدينة من المسلمين[1]. كانت هذه المذبحة لا إنسانية وخاسرة سياسياً، فإن مسلمي القدس كانوا بمثابة عقبة أمام الفاطميين لضمّ باقي مدن الساحل الفلسطيني.

---

(1) لم تكن تيك المذبحة الوحيدة التي ارتكبها الصليبيون، ونذكّر هنا بمذبحة عكّا 1191 م.

تنصيب غودفروا دی بويّون حامياً للقبر المقدس
طبائع الاستعمار الفرنجي

إلى أي زعيم عهد الصليبيون بحكم القدس التي آلت إلى حوزتهم؟ لقد فصلوا في هذا الانتخاب لصالح غودفروا دی بويّون، بالأفضلية على ريمون دی سان جيل (في 22 يوليو 1099 م). ولم يقم غودفروا باتخاذ لقب «ملك» Roi، بل اكتفى بلقب «حامي القبر المقدّس» Avoué du Saint-Sépulcre، وهو لقب متواضع ومؤقّت أدّى إلى حفظ النظام النهائي للدولة الفرنجية الجديدة.

وأما باقي البارونات الصليبيين (ريمون دی سان جيل، وكونت مقاطعة النورماندي، وكونت مقاطعة الفلاندر)، فقد غادروا فلسطين بعد أن أعانوا غودفروا دی بويّون في صدّ هجوم فاطمي معاكس (معركة عسقلان في 12 أغسطس 1099 م). وقد مرّ بنا سابقاً أن بوهيمون قد مكث في أنطاكية وكذلك بقي بودوان في الرُّها. فلم يتبقّ إلى جانب غودفروا سوى بضعة مئات من الفرسان. ومع ذلك تم الحفاظ على المنشأة الفرنجية الجديدة بسبب تفكك أجنحة العالم الإسلامي.

ولكن العجلة التي عاد بها معظم الصليبيين أدراجهم إلى أوروبا، بعد أن وفوا بعهدهم المقدس، وهذا التسريح العسكري العام للجيوش السابق لأوانه، عادا بالوبال على الحركة الصليبية، وخلّفا وراءهما نتائج خطيرة تبدّت في المستقبل الآتـي. ولمّا أحس المسيحيون بالرضا عند إخضاعهم لأنطاكية والقدس، أهملوا، وهم في أوج قوتهم، مهمّة الإجهاز على قوّة الأمّة الإسلامية في سوريا. وفيما تلا ذلك اكتفوا بتحقيق غزو سوريا الغربية وفلسطين، ولكن على الرّغم ما بذلوه من جهود مضنية، لم يستطيعوا على الإطلاق الاستيلاء على حلب أو حماة أو حمص أو دمشق.

وعلى هذا، دام بقاء سوريا الداخلية المستندة إلى آسيا السَّلجوقية والعباسية برمّتها في أيدي المسلمين. وتبعاً لذلك، نجد المستعمرات الفرنجية في سوريا تنحسر إلى ما لا يزيد عن شريط ساحلي يتراوح بين الضيق والاتساع حسب تعاقب العهود، بحيث ما برحت على الدوام مهدّدة بأن تُلقى في البحر بسبب الضغوط التي تأتيها من الخلف، من البلاد الداخلية.

إن الحملة الصليبية التي دفعت نحو آسيا مئات الألوف من المقاتلين خمدت ووضعت أوزارها، وأعلن التسريح قبل أوانه، فلم يترك لمهمّة ترسيخ الاحتلال وتحقيق الغزو، سوى قطعات عسكرية هزيلة. فغودفروا دى بويّون ساعة رجوع رفاقه في السلاح إلى أوروبا لم يبق بحوزته غير 300 فارس فقط. وحتى عندما اقتضت سنين «التسريح» الراكدة إحداث نوع من التنظيم الملائم للدفاع الفرنجي، كما جرى عند نزع القوات العام في عام 1124 م مثلاً، لم تستطع الدول الفرنجية الأربع مجتمعة تجنيد أكثر من 1100 فارس فقط. وقد بقيت سوريا الفرنجية، طول مدة بقائها، تعانـي من نفس المشكلة.

وفي واقع الأمر، كانت البابوية منذ غزو القدس معنيّة بإرسال إمدادات صليبية إلى فلسطين، الغاية منها تحقيق احتلالها. وقد تألفت حملة الإمداد الأولى من اللومبارديين الذين قدموا من القسطنطينية إلى آسيا في شهري أبريل ومايو من عام 1101 م، وكان على رأس هذه الحملة ريمون دى سان جيل[1]، Raymond de Saint-Gilles. وبداعي الذهاب لتخليص أمير أنطاكية بوهيمون الذي كان في ذلك الوقت سجيناً لدى الأتراك في نيكسار Niksar، في جبال پون Pont ، سلك هؤلاء الصليبيون مساراً طويلاً لا مسوّغ له على طول شمال آسيا الصغرى. وقد أحكم الأتراك حولهم الحصار وأبادوهم على بَكرة أبيهم تقريباً ما بين أنقرة وأماصية (يوليو - أغسطس 1101 م).

وأعقب ذلك إرسال جيشي إمداد صليبيين آخرين، يقود أحدهما غيّوم دى نيڤير Guillaume de Nevers، والآخر غيّوم التاسع دى پواتييه Guillaume IX de Poitiers ، مع ڤِلف الرابع دوق باڤاريا Welf IV von Bayern، اللذين سلكا، بعكس سابقهما، طريق الحملة الصليبية الأولى؛ ولكنهما مع ذلك لم يفلتا من البوار على أيدي الأتراك كمن سبقهما، وذلك بالقرب من إريغلي Erégli في كپادوقيا (أغسطس - سبتمبر 1101 م). لقد أدّى فقدان ما يقارب من 200000 مقاتل في هاتين المجزرتين إلى حدوث نقص فادح في سوريا الفرنجية، فهؤلاء كانوا يمثّلون - من بعد فرق الغزو - «الجيش المتفع» الذي لا غنى عنه لإعمار المستعمرة الجديدة، لكن هذا الجيش لم يصل إلى الوجهة المعيّنة له على الإطلاق.

---

(1) أسماه مؤرخونا العرب المعاصرون لتلك الفترة: ريموند صنجيل.

لم يعُد على غودفروا دي بويّون من جرّاء كل ذلك سوى المزيد من إثبات جدارته، بما أُتيح له من إمكانيات ضعيفة، خلال فترة تنصيبه حامياً للقبر المقدس التي لم تدُم سوى بضعة أشهر (بين 1099–1100 م)، نجح بواسطتها في توسيع رقعة الغزو الفرنجي من محيط القدس Judée إلى منطقتي السامرة والجليل. وقد عهد بحكم الجليل، أو «إمارة طبرية» Tibériade، كما أُسميت، إلى أمير إيطالي نورماندي جسور، هو تانكريد Tancrède، الذي نجح في إجلاء المسلمين من منطقته (احتلال حيفا في حوالي 20 أغسطس 1100 م).

ورغم ما تحلى به غودفروا دي بويّون من التقوى، فقد كاد أن يدخل في نزاع مع بطريرك القدس اللاتيني الجديد، دَمبير دي پيزا Daimbert de Pise المتشبّع بالأفكار الثيوقراطية[1]، والذي كان يطالب بإلحاق ملكية مدينة القدس المقدّسة بالكنيسة. وكانت هذه المعضلة لا تزال قائمة عندما مات غودفروا (في 18 يوليو 1100 م).

تملّك بودوان الأول

كان الوريث التالي لغودفروا دي بويّون في الحكم شقيقه بودوان دي بولونْـيْ Baudouin de Boulogne. ولقد رأينا فيما سبق (فقرة: الحملة الصليبية الأولى على سوريا) كيف أن بودوان هذا قد حلّ محل أمير الرّها الأرمني بطريقة خبيثة (وذلك بأن تركه يروح ضحية إحدى الفتن)، وأضحى حاكماً لهذه المدينة التي أضاف إليها النواحي المجاورة لها: سُمَيْساط Samosate، وسَرُوج Saroudj، وغيرهما.

وبذلك تأسّست «كونتيّة الرُّها»[2] comté d'Edesse، التي دامت من عام 1098 إلى 1144 م، ومشت في الطليعة تجازف بالتوغل في قلب البلاد، حتى غدت تمتد بعيداً جداً باتجاه ديار بكر وأعالي الرافدين حتى مشارف ماردين. واعتمد بودوان على العنصر الأرمني الذي كان عنصراً سائداً في الرُّها، فأشرك الأرمن في شـؤون الحكم بعد أن قمع بشـدّة حركات الانشقاق التي أعلنوها.

---

(1) الثيوقراطية: حكومة إلهية يشرف عليها رجال الدين.

(2) مدينة الرُّها هي المعروفة حالياً باسم أورفة، تقع في منطقة الجزيرة الفراتية جنوبي تركيا. وهي من أشهر قواعد الثقافة السّريانيّة.

هذا ما أبقى كونتيّة الرُّها دولة فرنجية - أرمنية حتى الصميم. حتى أن بودوان نفسه تزوّج فتاة أرمنية تدعى آردا Arda، فأعطى بذلك مثالاً لهذا النوع من الزواج بالأرمنيات، الذي سيصبح أمراً شائعاً في طبقة النبلاء الفرنجية خلال فترة الحملات الصليبية.

وعندما علم بودوان بوفاة أخيه غودفروا دي بويّون، أوكل بكونتيّة الرُّها إلى ابن عمّه بودوان دي بُور Baudouin de Bourg (الذي أمسى فيما بعد الملك بودوان الثانـي)، وخرج من الرُّها ميمّماً شطر القدس كيما يجني ثمار النجاح الذي أحرزه سلفه الملك الراحل (2 أكتوبر 1100 م). ولقد حاول ملك دمشق السَّلچوقي دُقاق ابن تُتُش ابن ألپ أرسلان أن يقطع عليه الطريق عند وهاد نهر الكلب شمالي بيروت، ولكن بودوان استطاع أن يشقّ طريقه ويصل إلى القدس في 11 نوڤمبر، حيث لم يسع البطريرك دَمبير Daimbert، رغم نفوره من ترشيح بودوان، إلا الاذعان للأمر.

وفي يوم عيد الميلاد (25 ديسمبر) من عام 1100 م، تم تكريس بودوان على يدي البطريرك دَمبير بلقب «ملك القدس» Roi de Jérusalem، بكنيسة الميلاد في بيت لحم، وباتخاذه لهذا اللقب على التوّ خلف أخاه غودفروا في الحكم. وولدت بذلك الملكية، التي أحاطها بودوان، بغية فرض هيبته على من حوله، بجميع مظاهر الأنظمة الملكية الشرقية، فبدا في أنظار رعيته وكذلك جيرانه المسلمين، بمظهر «سلطان مسيحي». أما البطريرك دَمبير، فلمّا لبث على معارضته لبودوان، قام هذا الأخير بإقصائه (عام 1102 م). ووجد بودوان في الأرشمندريت آرنو مالكورن (الذي ارتقى عام 1112 م إلى سدّة البطريركية) نصيراً طيّعاً، آزره بإضفاء الشرعية الإكليريكية (الكنسية) إلى مملكته.

عند استلام بودوان الأول للحكم، لم تكن مملكة القدس تمتلك سوى ميناء واحد هو يافا؛ أما باقي الساحل الفلسطيني فكان لا يزال باقياً في أيدي حكام مصر، أو الأمراء التابعين لهم: وكانت تلك نقطة ضعف خطيرة بالنسبة لهذه المستعمرة الصليبية التي لم تكن تقدر على الاتصال بالعالم المسيحي بغير الطريق البحري. هذا ما دعا بودوان الأول بالتالي إلى تركيز غزواته في البداية على الساحل، بالرغم من الضربات المعاكسة العنيفة المصرية، التي كسبها بكثير من القوّة (كانتصاره في الرّملة ، 7 سبتمبر 1101 م).

واستطاع بذلك أن ينتزع من حكام مصر الموانئ التالية: أرسوف (أوائل أبريل 1101 م)، وقيساريّة (17 مايو 1101 م)، وعكّا (26 مايو 1104 م)، وبيروت (13 مايو 1110 م). وقد استفاد لهذا الغرض من مصادفة وجود الأساطيل الأوروپية بشكل غير متوقع مسبقاً، وكانت لهذه الأساطيل أهمية حيوية في تعزيز الحصار البحري للأماكن التي كان يهاجمها من جهة البر.

وكان الأسطول الجنوي هو الذي ساعده في احتلال عكّا، كما ساعدته الأساطيل الجنوية والپيزية في احتلال بيروت، وكذلك تمكن من احتلال صيدا بفضل معونة الأسطول النروجي العائد للملك سيغورد Sigurd والأسطول البندقي العائد للدُّوْدْجِه[1] أورديلافو فالبير doge Ordelafo Falier. وعند ختام حكم بودوان لم يتبقّ بأيدي المسلمين على الساحل الفلسطيني سوى عسقلان وصور.

أما في شمال مملكة القدس فكان كونت تولوز، ريمون دى سان جيل، بعد أن جاس حاملاً معه طموحاته المضطربة في جميع أنحاء المشرق، قد وقع اختياره في النهاية على الشاطئ اللبناني، الذي كانت تحكمه تحت وصاية حكام مصر أسرة حاكمة عربية هي «بنو عمّار» أمراء طرابلس. وبالاستعانة بالأسطول الجنوي، تمكن سان جيل من انتزاع طرطوس من بني عمّار (21 أبريل 1102 م؟) وجُبَيْل، وهي بيبلوس القديمة Byblos (23 أبريل 1104 م).

أما طرابلس - المدينة البحرية القديمة، الميناء حالياً، التي يصعب احتلالها بسبب موقعها بشكل شبه جزيرة[2] - فقد شرع في محاصرتها بأن أقام في وجهها حصن جبل الحجّاج[3] Mont-Pèlerin (عام 1103 م)، غير أنه مات دون أن يتمكن من احتلال المدينة (في فبراير 1105 م). وتابع من بعده ابن عمّه غيوم جوردان Guillaume Jourdain (1105-1109 م) محاصرة طرابلس، وتمكن من احتلال عدة مواقع مجاورة لها، وبالأخص عرقة.

---

(1) الدُّوْدْجه doge: هو القاضي الأول لجمهورية البندقية.

(2) راجع ص 22 حول حصانة طرابلس وتلقيبها بـ «جبل طارق السّوري».

(3) قام كونت تولوز ريمون دى سان جيل ببناء هذا الحصن الصغير للحصار، وعُرف باسم جبل الحجّاج، وباللاتينية Mons Peregrinus، وفي أيامنا يعرف بحصن طرابلس، كما يعرف التل باسم تلّة أبي سمرة.

في سوريا الشمالية، لمّا كان بوهيمون أمير أنطاكية أسيراً في أيدي الأتراك، تكفّل ابن أخيه تانكريد بالوصاية على إمارة عمّه (1101-1110 م). وحالما أُطلق بوهيمون من أسره، اشترك مع كونت الرُّها بودوان دى بُور في الحملة على الأتراك وغزو الجزيرة باتجاه الموصل، فبدأا بمحاصرة حرّان، ولكنهما هُزما سويّة بالقرب من هذه المدينة على يدي أتابك الموصل التركي الذي انضمّ إليه أمراء ديار بكر الأراتقة، وهم من الأتراك أيضاً (في 7 مايو 1104 م).

وأحدق الأتراك المنتصرون بإمارة أنطاكية من جهة الداخل، بينما كان البيزنطيون الذين نزلوا في اللاذقية يهاجمونها من جهة البحر، فبيزنطة التي لم تكن قد غفلت عن حقوقها، أفادت من الظروف الراهنة لتعيد فتح «مسألة أنطاكية». فمضى بوهيمون، بكل حدّة وغيظ، يستقدم النجدات من الغرب ويهاجم البيزنطيين في عقر دارهم. وبما أن التراجع كان غير ممكن، فقد استرجع تانكريد وصايته على إمارة أنطاكية (1104-1111 م)، بانتظار أن يخلف عمّه في إمارته عليها؛ وهذا ما حصل عند موت بوهيمون في إيطاليا، وصار تانكريد بالتالي أميراً لأنطاكية (1111-1112 م).

قام تانكريد، الذي كان حازماً كعمّه بوهيمون لكن أقلّ اندفاعاً، بإعادة تنظيم شؤون إمارة أنطاكية، وبانتصاره على سلاچقة حلب في تيزين (20 أبريل 1105 م) انتزع منهم الأراضي الواقعة وراء نهر العاصي حتى أبواب حلب (وهي: مقاطعة الأثارب وزَرْدَنا Zerdanâ ومعرّة النعمان وكفر طاب)؛ كما استطاع أن يغنم من بعض شيوخ العرب بلدة أفامية، وهو موقع هام في العاصي الأوسط (14 سبتمبر 1106 م)؛ وبمساعدة عمارة بحرية پيزيّة استعاد من البيزنطيين ميناء اللاذقية (1108 م). وبحلول عام 1110 م غدا سلاچقة حلب يدفعون له الجزية.

يُعدّ تانكريد[1] لذلك كلّه المؤسس الثانــي والمنظّم الحقيقي لإمارة أنطاكية اللاتينية. وبما أوتيه من حذق في السياسة، بقدر ما كان محارباً صنديداً، عَرف كالملك بودوان الأول كيف يكيّف نفسه مع الوسط الشرقي: فنرى صورته على النقد الذي سكّه باسمه معتمراً بالعمامة - عمامة يعلوها الصليب - كُتب حولها بحروف يونانية: «الأمير الكبير تانكريدوس» Tankridos.

---

(1) سمّاه مؤرخونا العرب المعاصرون لتلك الفترة: طنكري.

في خضمّ هذه الغزوات الفرنجية، بقيت إحدى المدن الإسلامية منيعة صامدة، تلك هي طرابلس الساحلية «جبل طارق السوري» التي حال دونها - كما رأينا - موقعها الدفاعي بشكل شبة جزيرة، والتي صمدت للحصار البري الذي ضربه حولها التولوزيّون.

وأخيراً، في عام 1109 م سنحت لملك القدس بودوان الأول فرصة سانحة، عند نزول كونت تولوز عند الساحل، وهو برتران Bertrand ابن ريمون دى سان جيل، وتواجد أسطول جنوي على مقربة، وذلك للإجهاز على ما تبقى من مقاومة مدينة طرابلس. ولهذه الغاية قام بودوان الأول بلمّ شتات القوى الفرنجية، واشترك معه في الحصار ابن عمّه بودوان دى بُور Baudouin de Bourg كونت الرُّها، وتانكريد الوصي على إمارة أنطاكية، وبالطبع شارك في الحصار كل من وريثي ريمون دى سان جيل (اللذين كانا متنازعين على تركته في لبنان)، وهما برتران وغيّوم جوردان.

وتم اقتحام طرابلس أخيراً في 12 يوليو 1109 م، وأضحت هذه المدينة عاصمة لـ «كونتيّة طرابلس» le comté de Tripoli، التي كان أول من حكمها برتران (وكان منافسه غيّوم جوردان في غضون ذلك قد تم اغتياله عمداً بتخطيط مسبق)، وقد دامت هذه الكونتيّة من عام 1109 إلى 1289 م[1]. وبما أن هذه الدولة تميّزت بكونها دولة بحرية، وبكون الدفاع عنها لهذا السبب بالنسبة للاتين أسياد البحر، أسهل من غيرها، فقد أمّنت الاتصال إجمالاً بالقسمين الأوسط والشمالي من الشاطئ اللبناني. وإلى جانب مملكة القدس وإمارة أنطاكية وكونتيّة الرها، أكملت كونتيّة طرابلس مجموعة ما يُعرف بـ «سوريا الفرنجية» la Syrie franque في المصطلح التاريخي.

ورغم أن الأتراك المسلمين جاءت مجابهتهم للصليبين واهنة، فإن مشاعرهم كانت تفور بالغضب لنزول الفرنج في البلاد وارتكازهم فيها، فما بين عامي 1110-1115 م، أرسل سلطان إيران السّلجوقي إلى سوريا ما لا يقلّ عن أربع حملات، كانت موجهة «ضد الحملات الصليبية» بكل معنى الكلمة، وسخّرت جميع قواها لإلقاء الفرنجة في البحر.

---

(1) سقطت في 28 أبريل عام 1291 م بيد جيش المماليك بقيادة السّلطان المنصور قلاوون.

وفي عام 1113 م استطاع قائد إحدى هذه الحملات، وهو مَوْدُود أتابك الموصل، أن يباغت بودوان وكاد أن يوقع به أسيراً في الصِّنَّبْرَة إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية (في 28 يونيو)[1]، ولكن الخلاف الذي ما لبث أن دبّ بين مودود ومسلمي سوريا أسفر عن نجاة الفرنجة من خطر محقّق (فقد اغتيل مودود في 2 أكتوبر عام 1113 م في الجامع الأموي بدمشق بإيعاز من طُغْتكين Doğtekin أتابك دمشق).

وعندما وصل جيش سلچوقي جديد قادماً من إيران عام 1115 م، وقف حكام سوريا الإسلامية منه، بدءاً من طغتكين، موقفاً معادياً في صف واحد مع الفرنجة لاشتراكهم بالمصلحة، وكان هذا الحدث ذا مغزى كبير.

وهكذا نجد أن العنصر الفرنجي كان قد نجح في تكييف نفسه ضمن هذا الوسط ، كما قد تمّ له إقرار جيرانه ضمنياً بوجوده، فقد بلغ الأمر بالدول التركية المتعرّبة في سوريا الداخلية عندما اقتضت المصلحة إلى تفضيل هؤلاء الفرنجة على أبناء دينهم أنفسهم، أي سلاچقة إيران والعراق. وتحاشياً من الوقوع تحت سيطرة السلطان السَّلچوقي، لم يتردّد ولاة حلب وأتابك دمشق التركي في التحالف مع ملك القدس ومع أمير أنطاكية. ولعله لا يوجد أبلغ من هذا المثال كدليل للبرهان على مدى حذق سياسة بودوان الأول تجاه المسلمين.

بفضل هذا التواطؤ مع مسلمي سوريا تمكن أمير أنطاكية روجيه دى سالرنو Roger de Salerne الذي خلف تانكريد من كسر شوكة جيش الغزو السلطاني عند تل دانيث شرقي نهر العاصي (في 14 سبتمبر 1115 م). وفي جنوب فلسطين، نجح الملك بودوان الأول في احتلال بلاد مؤاب (شرقي الأردن)، فضلاً عن وادي موسى، حيث أقام حصن مونريال Montréal (الشوبك) عام 1115 م.

وفي عام 1116 م، توغّل جنوباً حتى أَيْلَة الواقعة على خليج العقبة المطلّ على البحر الأحمر، حيث أنشأ موقعاً عسكرياً. وبامتلاكهم لهذه الأراضي الصحراوية، استطاع الفرنجة شطر العالم الإسلامي إلى قسمين، وفصلوا أفريقيا عن آسيا الإسلامية، وتحكّموا بتجارة القوافل ما بين القاهرة من جهة، وبغداد من جهة أخرى.

---

(1) اشترك في تلك الحملة مودود والسّلطان سَنْجَر وأتابك دمشق طُغتكين.

لم يشكّل الفرنجة كما رأينا سوى أُطُر المملكة، فلإعمار المدن والأرياف (بعد أن هجرها المسلمون بأعداد كبيرة)، استقدم بودوان الأول من البلدان الواقعة تحت السيطرة الإسلامية، وبالتحديد من شرقي الأردن وحوران، كل السكان المسيحيين الأصليين التابعين للطقس اليوناني (الرّوم) أو السّرياني، والراغبين بامتلاك الأراضي، وقد بدت هذه الهجرة الاستيطانية ذات كثافة كافية بما يكفل المستقبل الزراعي والاقتصادي للمملكة.

لقد سادت شخصية بودوان الأول الطاغية في عصرها، وقد كان سياسياً لا يعبأ بالوسائل مهما تبذّلت حينما يجد مصلحة المملكة في خطر، لكنه كان أيضاً رجل دولة من الطراز الأول، وفي نفس الوقت محارباً شديد البأس، ولقد كان بحقّ الباني الحقيقي لدولة سوريا الفرنجية. وفي غضون ثمانية عشر عاماً، جعل من مملكة القدس دولة وطيدة الأركان، وألحق بفلكها كل ما حولها من الدول الفرنجية الأخرى.

لا شك أن إمارة أنطاكية كانت مستقلّة نظرياً عن المملكة، ولكن عملياً كان أمراء أنطاكية، مثلهم في ذلك كمثل كونتات الرُّها أو طرابلس، يعترفون بسيادة الملك، كما كانوا في حروبهم مع المسلمين يتّبعون توجيهاته عموماً. وفي هذا الصَّدد، فضلاً عن غيره من الأمور الأخرى، استطاع بودوان الأول سنّ عُرف ظل سائداً حتى عام 1187 م.

تملّك بودوان الثاني

خلف بودوان الأول في منصبه، كملك للقدس، ابن عمّه بودوان دي بور[1] Baudouin de Bourg - أي الملك بودوان الثاني - الذي كان حتى ذلك الحين يشغل منصب كونت الرُّها، وقد خلفه في حكم الرُّها بارون من النخبة الممتازة، هو جوسلان الأول دي كورتنيه Jocelin I^{er} de Courtenay.

---

(1) كذا يُلفظ اسم Bourg بالفرنسية، وليس بورغ أو بورج، كما اعتاد كتابته مؤرخونا، الذين ما برحوا يعتقدون أن الإنكليزية هي أم اللغات طرّاً. وما فتئ مؤرخونا وكتّاب الدراما التاريخية في التلفزيونات العربية يطرقون أسماعنا باسم «بلدوين» أو «بالدوين» لملوك القدس الفرنجة، بدلاً من «بودوان».

كان بودوان الثانـي حاكماً نزيهاً ورعاً نشيطاً وحاذقاً كل الحذق، وكان هو الآخر قد تكيّف مع الوسط الشرقي، فحذا حذو سلفه بالزواج من أرمنية. وقُيّض له أثناء فترة حكمه (1118-1131 م) أن يواجه سلسلة من المصاعب المريرة ويتخطّاها، وأول ما جرى من ذلك هزيمة الأتراك لأمير أنطاكية روجيه دى سالرنو[1] (1112-1119 م) ومقتله عند تل باشر ما بين أنطاكية وحلب، على يدي زعيم ديار بكر التركي إيلغازي[2] الأرتُقي (في 28 يونيو 1119 م).

فخفّ بودوان مسرعاً من القدس، وجابه الأتراك وأنقذ إمارة أنطاكية التي تكفّل بالوصاية عليها. ثم تفاقمت الأمور عندما وقع الملك أسيراً في أيدي الأمير الأرتقي بلك (في 18 أبريل 1123 م) وأُودع في حصن خربوط في ديار بكر، حيث حاول الفرار لكن دون جدوى. وبالرغم من ذلك، فقد بقيت السيطرة الفرنجية راسخة البنيان، ولم تتزعزع بفعل حادثة أسر الملك، بل على العكس من ذلك، فأثناء فترة أسر بودوان الثانـي، انتهز الوصي على المملكة، غيّوم دى بور[3] Guillaume de Bures، سيد طبريّة، فرصة تواجد أسطول بندقي بقيادة الدُّوْدْجِه دومينيكو ميكييل doge Domenico Michiel، لينتزع من المصريين ميناء صُور، وكان ذلك مكسباً كبيراً، أدّى إلى تعزيز السيادة المسيحية على البحر (في 7 يوليو 1124 م).

وعندما خرج بودوان الثانـي من الأسر، استأنف صراعه مع الأتراك كوصي لأنطاكية. وفي نهاية عام 1124 م أوشك بفضل تواطئه مع بعض البدو على الإيقاع بمدينة حلب[4]، ولكن تم إنقاذ المدينة على يدي قائد تركي مفعم بالعزم، هو آق سُنْقُر البُرْسُقي، أتابك الموصل، الذي ضمّ حلب على الأثر إلى ما بيده (في عام 1125 م). واستطاع بودوان رغم ذلك الوقوف في وجه التحالف القائم بين البُرسقي وأتابك دمشق طُغْتكين (معركة أعزاز في 11-13 يونيو 1125 م). أما الأمل باحتلال حلب فقد تلاشى نهائياً.

---

(1) سمّاه مؤرخونا العرب المعاصرون لتلك الفترة: سرجال.

(2) الاسم بالتركية: İl-Gazi، ويعني الزعيم الغازي.

(3) يسميه مؤرخونا العرب المعاصرون لتلك الفترة، كابن القلانسي: كليام دبور.

(4) سأنشر حول ذلك دراسة لي: ثلاثة فصول تاريخية من جهاد حلب في القرون الوسطى: صمود حلب في وجه الصليبيين عام 518 هـ، مغامرة المملوك الأشرفي الصّارم أوزبك في الغزو التّتري لبلاد الشام عام 656 هـ؛ تيمورلنك على أبواب حلب عام 803 هـ.

ولذلك، وجّه بودوان الثانـي قواه ضد دمشق التي لم يكن غزوها بأقل أهمية من غزو حلب، لصالح الضرورات الأمنية لدولة سوريا الفرنجية. وقاد عبر حوران حملة ظافرة، حتى وصل إلى المشارف الجنوبية لمدينة دمشق حيث هزم الأتابك طغتكين في شَقْحَب (25 يناير 1126 م)، ولكن دون أن يتمكن من النفاذ إلى المدينة الكبرى.

وحيث لم يُجدِ السلاح في إحراز النصر لجأ بودوان إلى استعمال الخديعة، فأجرى اتصالات سرية مع من بدمشق من أتباع المذهب الإسلامي الإسماعيلي، وهم الإسماعيلية (أو الحشيشية) الذين دفعهم غلواؤهم ضد المذهب الرسمي والسلطات الحاكمة إلى التدبير لتسليم مدينة دمشق إلى الصليبيين، وكادوا ينجحون في ذلك. على أن هذه المؤامرة تم اكتشافها وباءت آمال بودوان الثانـي بالخيبة (سبتمبر 1129 م)[1]، وكان عليه الاكتفاء باغتنام موقع بانياس الحدودي الواقع شمال شرق الجليل الأعلى والذي سلّمه له الإسماعيلية.

وهكذا، ورغم كفاءة بودوان الثانـي، بقيت سوريا الداخلية - حلب ودمشق - في أيدي المسلمين. ولهذا السبب ما برح استيطان الفرنجة في الساحل السوري مهدداً دوماً بالخطر، بيد أن هذا الخطر مع ذلك كان يبدو غير ماحق، طوال استمرار التشتّت الإسلامي على حاله.

وفجأة، إذا بحلب تنتقل عام 1128 م إلى يدي شخصية إسلامية قوية، وذلك هو القائد التركي زنكي، أتابك الموصل. كان الهدف الأول الذي وضعه زنكي نصب عينيه، ومن بعده ابنه نور الدين (1146-1174 م) هو تحقيق الوحدة السياسية السّوريّة الإسلامية لصالحهما، متيقنين من أن هذه الوحدة ما إن يتم تحقيقها، حتى يغدو في مقدورهم إلقاء الفرنجة في البحر.

وعلى الجهة المعاكسة، تركّزت كل الجهود السياسية لملوك القدس اللاتين (لإدراكهم مدى عظم الخطر الذي يتربّص بهم) على الوقوف في وجه هذه الوحدة، وذلك بتكريس تفكك القوى الإسلامية عن طريق مناصرة الدويلات السوريّة الإسلامية الصغرى وتحريضها ضد المطامع التوسّعية للدولة الزنكية.

---

(1) فات المؤلف هنا أن يذكر الهزيمة النكراء التي مني بها بودوان الثانـي على يدي أتابك دمشق تاج الملوك بورى بن محمد بن طغتكين سنة 523 هـ. راجع ابن القلانسي، 225.

تملّك فولك دانجو

بعد الملك بودوان الثاني، انتقل عرش القدس إلى صهره فولك دانجو[1] Foulque d'Anjou (1131-1143 م).

على الصعيد الداخلي قام الملك فولك بتوطيد دعائم الهيمنة الملكية، وذلك بكبح المواقف العدائية للوصيّة على إمارة أنطاكية أليكس Alix، وكذلك پونس Pons كونت طرابلس، ثم قام بتزويج الأميرة الشابة وليّة عهد أنطاكية من خاطب قام هو شخصياً بانتقائه لها، وذاك هو ريمون دى پواتييه Raymond de Poitiers (عام 1136 م).

أما على الصعيد الخارجي، فكما رأينا وجدت الدول الفرنجية التي كان تقدّمها عائداً إلى ما صادفته من تسهيلات مردّها التفكك السياسي للإسلام، وجدت نفسها في الوقت الحاضر تخضع لوضع جديد، منذ أن خَطَت سوريا الإسلامية في درب تحقيق وحدتها الشاملة، بقيادة الأتابك القوي الحازم زنگي صاحب حلب والموصل، والذي أضاف إليهما مؤخراً (عام 1130 م) مدينة حماة. وإذا بالملكية الفرنجية، التي كانت حتى ذلك الحين تتمتع بتفوق واضح إزاء الملكية الإسلامية، تواجهها الآن في سوريا قيادة إسلامية صلبة الإهاب، قادرة على دحر الفرنجة، فها هو زنگي في عام 1135 م ينتزع من إمارة أنطاكية عدّة بقاع من المنطقة الواقعة ما وراء نهر العاصي.

وفضلاً عن ذلك، بدأ البيزنطيون، الذين تناسى الفرنجة ما لهم من حقوق عند تأسيس إمارة أنطاكية، بحشد قواهم مجدداً على الحدود السّوريّة، وأعادوا من جديد طرح قضية أنطاكية برمّتها، وذاك ما كان يعتقد كلّ من بوهيمون وتانكريد أنهما قد حسماه نهائياً بالنسبة للبيزنطيين.

وفي عام 1137 م، طرأ كل من التهديد البيزنطي والخطر الإسلامي في آن واحد، فقد أسر زنگي في حصن بارين (مونفيرّان) Montferrand كلاً من الملك فولك وكونت طرابلس ريمون الثاني (10-20 أغسطس). وفي الحين نفسه، هبط الإمبراطور البيزنطي جان كومنينوس Jean Comnène عن طريق كيليكيا باتجاه أنطاكية وجهدها بالحصار (29 أغسطس)، مما اضطر ريمون دى پواتييه إلى الإقرار

---

(1) نسبة إلى إقليم آنجو Anjou في شمال فرنسا، الذي ينتمي فولك إلى أسرته الحاكمة.

بتبعيته للإمبراطور. ولحسن طالع الفرنجة، توازن هذان الخطران فيما بينهما ودفع كل منهما للآخر، فإن وجود الجيش البيزنطي الجرّار على مقربة، وإمكانية التقائه بالمصلحة مع الفرنجة، قد أثار الوساوس في نفس زنگي، فما لبث أن أطلق فولك وكونت طرابلس دون أية فدية.

والذي جرى فعلاً، أن الامبراطور البيزنطي جان كومنينوس لما شعر بالرضا بعودة سيادته المطلقة على أنطاكية، لم يتوانَ عن مؤازرة ريمون دى پواتييه في استرجاع عدة بقاع من زنگي ما بين مدينتي أنطاكية وحلب[1]، ومضى بعد ذلك بصحبة ريمون يحاصران مدينة شيزر العربية، في منطقة العاصي الأوسط (أبريل 1138 م). ولكن هذا الحصار أخفق مع ذلك، بسبب انعدام الائتلاف ما بين الفرنجة والبيزنطيين، وقد أراد جان كومنينوس المستاء من الوضع إرساء قواعد سلطته في أنطاكية، ولكنه حيال مقاومة العنصر اللاتيني له عدل عن مشروعه هذا، ولم يسعه إلا الجلاء عن المدينة والإمارة.

لا شك أن الردّة الإسلامية التي أخذت تتعاظم شيئاً فشيأً، مُنذرة بأخطار كبرى، قد واجهها في الطرف الآخر التحالف الفرنجي البيزنطي، ولكن لسوء الحظ، عندما كان أرباب هذا التحالف يسلّمون بالمبادئ المتفق عليها، كان سوء الظن التقليدي المتوارث ما بين اليونان واللاتين يؤدي دائماً إلى إحباط تطبيقها على مضمار الواقع.

بعد رحيل البيزنطيين، باشر زنگي في محاولة ضمّ المملكة الإسلامية السّوريّة الأخرى إلى مملكته، وتلك هي مملكة دمشق (عام 1139 م)، وكان نجاحه في ذلك الضمّ يعني بروز الوحدة الإسلامية العتيدة إلى حيّز الوجود. أما الملك فولك فقد جعل من نفسه، لغاية سياسية محددة، المدافع عن استقلال دمشق، وقد أبرم مع القائم على دمشق معين الدين أُنُر حلفاً متيناً، زاد من توثيقه ما قام به الأمير أسامة بن مُنقذ من سفارات بين الطرفين، وقد ترك لنا هذا الأمير مذكراته التي دوّنها بنفسه[2].

---

(1) راجع تفاصيل ذلك في تاريخ ابن القلانسي، حوادث سنة 531 هـ، ص 259.

(2) هي «كتاب الاعتبار» الذي يضم السيرة الشخصية للأمير أسامة وأخباره في الصيد والجهاد ضد الصليبيين، مع نوادر عديدة شيقة. ويعتبر هذا الكتاب الرائع تحفة نادرة في تراثنا العربـي، وفي نيّتنا أن نقوم بإعداد نشرة جديدة له في فترة غير بعيدة إن شاء الله ضمن إصدارات هيئة أبوظبي.

أمام هذا التحالف الفرنجي - الدمشقي، ألفى زنگي نفسه مضطراً لإرجاء محاولاته لأخذ المدينة، ففي الرابع من مايو 1140 م رفع حصاره عن دمشق، أما أُنُر فقد أثبت حسن نواياه للفرنجة بأن ساعدهم في استرجاع حصن بانياس الحدودي في الجليل الأعلى من أيدي حاميته الزنگية.

لقد كانت سياسة الملك فولك، وهي سياسة محافظة كرّست إبقاء الأوضاع على حالتها الراهنة درءاً للردّة الإسلامية، ناجحة بالفعل وتدل على نفاذ بصيرة. وقد انطوت هذه السياسة، من جهة، على التقارب الواضح مع بيزنطة، ومن جهة أخرى على سياسة متفهّمة تجاه الإسلام، تمّ توثيقها بإبرام الحلف مع دمشق.

وتُبرز لنا سيرة أُسامة الذاتية مقدار المودّة التي قامت تبعاً لذلك ما بين البارونات الفرنجة والأمراء الدمشقيين، مع ميل الطرفين إلى التسامح الديني بشكل يعتبر جدّ متقدم بالنسبة لذلك العصر (كصداقة أسامة مع فرسان الهيكل «الدّاويّة» Templiers).

سقوط الرُّها والحملة الصليبية الثانية

عند موت الملك فولك (حوالي 10 نوڤمبر 1143 م)، انتقل التاج إلى ابنه بودوان الثالث Baudouin III، ولكن بما أن بودوان الصغير كان قاصراً، فقد تولّت أمّه ميليساند Mélisende شؤون الوصاية على الحكم (1143-1152 م)، وانتهز زنگي فرصة هذا القصور، فانقضّ على الرُّها عاصمة الكونتيّة المسماة باسمها، وانتزعها من أيدي الفرنجة (في 23 ديسمبر 1144 م).

وبوفاة زنگي بعد فترة قصيرة، نجح كونت الرُّها السابق جوسلان الثانـي Jocelin II ، بالتعاون مع أرمن الرُّها، في أخذ هذه المدينة من جديد (27 أكتوبر 1146 م). ولكنّ ابن زنگي، نور الدين محمود، الذي حلّ خلفاً لوالده في أتابكية حلب، هرع إلى الرُّها على رأس قوات متفوّقة، وافتتح المدينة عَنْوة بشكل حاسم ونهائي (في 3 نوڤمبر 1146 م). ولو أن جوسلان الثانـي تمكّن من الإفلات، لكان الأتراك أجبروا سكان المدينة من الأرمن على دفع ثمن ولائهم الراسخ للفرنجة غالياً.

وتم تحويل هذا القسم من الرُّها (أورفة الحالية)، التي كانت تحت الحكم الفرنجي مستوطنة أرمنية بغالبيتها، إلى مستوطنة تركية، وقد تم إجلاء السكان الأرمن عنها بالمجازر أو التهجير من جديد. ومن جهة أخرى، انتزع نور الدين من أمير أنطاكية ريمون دي پواتييه موقع أرتاح Artésie (عام 1147 م).

ومن أصل أربع دول فرنجية قامت في المشرق، لم يعد يتبقى سوى ثلاث، وأسفرت هذه الصحوة الإسلامية عن إقصاء الفرنجة إلى أطراف الجزيرة، باتجاه سوريا نفسها. وحتى في سوريا، تمّ دحر إمارة أنطاكية شيئاً فشيئاً إلى غربي نهر العاصي. وهكذا، نرى بالتالي أن الشرق اللاتيني أمسى مندحراً تماماً على جميع الساحات.

هذه المستجدات أدّت في أوروبا إلى الدفع نحو إعلان حملة صليبية ثانية، قام بإعلانها تحديداً القديس برنار Saint Bernard (في اجتماع ڤيزليه Vézelay، مارس 1146 م). وحلّ كل من الإمبراطور الجرماني كونراد الثالث Konrad III وملك فرنسا لويس السابع Louis VII في صدارة هذه الحركة، بينما كانت الحملة الأولى قد قامت على عواتق البارونات. وسلك كونراد الثالث ولويس السابع، كلٌّ منهما بمفرده، الطريق المعتادة خلال هنغاريا والإمبراطورية البيزنطية، ووصلا، كلٌّ على حدة أيضاً، إلى القسطنطينية في سبتمبر وأكتوبر عام 1147 م. وقد ساءت صلاتهما إلى حدّ بالغ مع البيزنطيين.

ولدى اجتياز الأول - أي كونراد الثالث - لآسيا الصغرى، صدّ مسيرته الأتراك السَّلاجقة في منطقة دوريليوم (إسكي شهر Eskişehir حالياً)، فتعرّضت قوّاته لخسائر فادحة، ثم تراجعوا تحت ضربات الأتراك إلى نيقية Nicée. أما الملك لويس السابع فقد سلك طريق الساحل الأناضولي، لكنه وجد نفسه محاصراً بالأتراك عند ممرات پيسيديا Pisidie، وفقد هو الآخر أعداداً كبيرة من قوّاته (يناير 1148 م). ومع ذلك بلغ مرفأ ساتاليا Sattalie (أضاليا حالياً)، حيث أبحر مصطحباً فرسانه باتجاه أنطاكية، دون أن يتمكن من اصطحاب قوّات مشاته معه، الذين وقعوا بدورهم طُعمة لسيوف الأتراك الذين حصدوهم على بَكرة أبيهم (في فبراير 1148 م)[1].

(1) راجع تفاصيل ذلك في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي وكتاب الرّوضتين لأبـي شامة.

رغب أمير أنطاكية ريمون دى پواتييه، وكان على حق في ذلك، بأن يوجّه لويس السابع هجومه نحو نور الدين، أتابك حلب، الذي كان بالحقيقة العدو الأكبر للفرنجة[1]. ولكن لويس السابع، الذي اشتدّت به نار الغيرة من المودّة التي قامت ما بين زوجته أليينور داكيتين Aliénor d'Aquitaine وريمون، رفض الأمر بعناد وإصرار، وتوجّه إلى القدس حيث التقى بكونراد الثالث. ثم مضى هذان الملكان بعد ذلك لمحاصرة دمشق، وهذه المدينة - كما رأينا - كانت عاصمة مملكة إسلامية ثانوية، وكانت حتى زمن قريب حليفة للفرنجة ضد زنكي.

هذه الزَّلّة السياسية تفاقمت عند دمشق باتخاذ استراتيجيات حربية رعناء؛ وفي الختام، أدت الخلافات التي اشتجرت ما بين بارونات سوريا المحليين والوافدين الصليبيين الجدد إلى التخلي عن المشروع ورفع الحصار الفاشل عن مدينة دمشق (28 يوليو 1148 م).

وانتهت الحملة الصليبية، التي تولّت توجيهها سياسات خرقاء، إلى الإخفاق التام. وما أن رحل الصليبيون حتى قام أتابك حلب نور الدين بالإغارة على إنِّب، وقتل بها ريمون دى پواتييه (في 29 يونيو 1149 م)، كما اجتثّ من إمارة أنطاكية كل ما اتصل بها من أراض ما وراء نهر العاصي، بما في ذلك بلدتي حارم وأفامية. أما كونتيّة الرُّها فقد ضاعت نهائياً. وأما إمارة أنطاكية فقد أصيبت بشرخ خطير في منتصفها.

تملّك بودوان الثالث

في عام 1152 م، اختتمت وصاية ميليساند Mélisende على ابنها الملك بودوان الثالث، الذي باشر سلطته منذ ذاك. لقد كان ذلك الحاكم الشاب - وهو أول ملك فرنجي يولد في الأرض المقدّسة - زعيماً محارباً جريئاً ودبلوماسياً حاذقاً استخلص من المصريين (الفاطميين) عسقلان، وهو آخر موقع على الساحل تبقى بأيديهم (19 أغسطس 1153 م). لكنه لم يكُ بقادر على ردع أتابك حلب نور الدين عن ضمّ المملكة الإسلامية الأخرى - أي دمشق - إلى مملكته (1154 م).

---

(1) وكان الصليبيون يلقّبون نور الدين: Nouradin le redoutable، أي نور الدين الرهيب، فلقد لقوا منه ومن قوّاته التباريح في حملاته المتتابعة بأنحاء الشام وكيليكيا.

تمّ بذلك تحقيق الوحدة الإسلامية الشاملة، التي شكّلت خطراً عظيماً على دول سوريا الفرنجية. غير أن بودوان الثالث لم يتوان عن تسبيب المتاعب لنور الدين من جميع الجهات. وفي عام 1158 م مدّ بارونات أنطاكية بالعون لاسترجاع حارم إلى إمارتهم، ثم هزم الأتابك عند البُطَيْحة شمال شرقي بحيرة طبرية.

وفي أنطاكية، كانت الأميرة كونستانس Constance، أرملة ريمون دى بواتييه، قد تزوّجت عام 1153 م من مغامر خطير لامع هو رُنُو دى شاتيّون Renaud de Châtillon. ومضى رُنو على حين غرّة يغير على جزيرة قبرص البيزنطية وهو عمل قرصنة يرتكب في حالة الصلح على أرض مسيحية.

بينما كان بودوان الثالث في الحين ذاته، حيال الخطر الذي أفرزته وحدة سوريا الإسلامية، ينتهج سياسة التقارب مع الإمبراطورية البيزنطية، وتعزّزت هذه السياسة بزواجه من الأميرة البيزنطية تيودورا كومنينا Théodora Comnène (عام 1158 م). وتلا ذلك بقليل قدوم الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس باتجاه الحدود السّوريّة - الكيليكية ليقتصّ من رُنو دى شاتيّون لانتهاكه لقبرص. فما كان من رُنو إلا أن ترامى على قدمي الإمبراطور مسترحماً، ولم يتردّد هذا الأخير في إعادة طرح «قضيّة أنطاكية» التقليدية من جديد، وانتهز الأوضاع الراهنة ليدخل المدينة دخول الفاتحين بكل عظمة كعاهل لها (أبريل 1159 م).

توجّه بودوان الثالث كذلك إلى أنطاكية، إنما لكي يعقد التحالف بينه وبين مانويل. وكان يلوح في هذا الإجراء الأمل في أن شتات القوى الفرنجية والبيزنطية التي توحّدت على هذا الشكل سوف تُقدم على مهاجمة نور الدين بحلب نفسها، لكن الذي جرى أن مانويل كومنينوس غادر سوريا دون المضي في هذا المشروع.

تملّك أموري الأول

تلا بودوان الثالث في الحكم أخوه أموري[1] Amaury (1162-1174 م). ووجّه أموري ذو الشخصية القوية الحركة الصليبية باتجاه سُبُل جديدة، وذلك بفتح الباب لمحاولة احتلال مصر.

---

(1) اسم Amaury بالفرنسية لا وجه لفظه إلا بشكل «أموري»، لا «عموري» كما يترجمه بعضهم.

في مصر كانت السلالة العربية الفاطمية الحاكمة تمر في حالة انهيار تام. وكان سيّد سوريا الإسلامية الأتابك نور الدين يتحيّن الفرصة ليخلفهم في حكم مصر، وإذا بالوزير المصري شاوَرْ يستحثّه للقيام بالتدخل، لما كان يعانيه من تضييق إحدى الفئات المنافسة له في مصر. فأوفد الأتابك إلى مصر قائده شيرگوه[1]، الذي عضد الوزير في استعادة سلطته، لكنه في الوقت نفسه هيّأ الأمور لنفسه كيما يشاركه في حكم مصر.

وليتخلّص من هذه الوصاية، قام شاور بالاستنجاد بأموري. وهكذا دخل ملك القدس مصر، وقام بالاشتراك مع المصريين بمحاصرة شيرگوه في بلبيس. ثم تم التوصل إلى اتفاق بين الطرفين، وذلك بأن يغادر كل من شيرگوه وأموري مصر في آن واحد، وهذا ما حصل (1164 م).

وفي عام 1167 م، أرسل نور الدين شيرگوه من جديد على رأس جيش من قوّاته، ولكن هذه المرة ليفتتح مصر علناً من أيدي الفاطميين. ولجأت الحكومة الفاطمية من جديد إلى الاستغاثة بأموري. وخفّ أموري إلى مصر متعقّباً شيرگوه، فاستقبله الفاطميون كمنقذٍ لهم. وتواقع شيرگوه وأموري في معركة غير حاسمة في البابين في أعالي مصر (18 مارس 1167 م)، ثم مضى شيرگوه يعتصم في الإسكندرية، فتبعه أموري والجيش المصري وحاصراه، ثم أجبراه على مغادرة البلاد (أغسطس 1167 م).

ولكي تثبت الحكومة المصرية ولاءها المطلق لأموري، فقد رضخت ضمنياً بالانطواء تحت الحماية الفرنجية (بما في ذلك دفع الجزية، وإنزال حامية فرنجية في القاهرة). كان ذلك بالنسبة لأموري نجاحاً باهراً، ولكن لسوء الحظ قرّر لعدم اكتفائه بمجرد بسط حمايته على مصر أن يقوم بغزوها مباشرة. كان ذلك التهوّر القاتل كفيلاً بإحباط نتائج جميع جهوده المضنية السابقة دفعة واحدة. وأمام هجومه على المصريين، لم يجد هؤلاء من ملاذ لهم سوى الارتماء بين ذراعي نور الدين. فلم يكن منه إلا أن بادر على الفور بإرسال قائده شيرگوه مجدداً من سوريا إلى مصر، واستطاع هذا الأخير إجبار أموري على رفع قبضته عن البلاد (في نوڤمبر وديسمبر 1168 م).

---

(1) شيرگوه اسم كردي يعني: أسد الجبل.

توفي شيركوه في قمّة انتصاراته (1169 م)، ولكن ابن أخيه صلاح الدين[1] الذي خلفه في قيادة جيشه ثبّت أقدامه في مصر كحاكم مُطلق بجانب الخليفة الفاطمي، ثم في عام (1171 م) لم يتوانَ عن تنحية الفاطميين جانباً، وانفرد بحكم مصر بشكل مباشر.

بهذه الخطوة الكبرى تمّ ردم الهوّة الدينية العميقة، التي كانت تفصل منذ قرنين كاملين مسلمي مصر عن مسلمي سوريا، وكان لهذه الهوّة في الواقع أثرها الكبير في نجاح الحملات الصليبية. ولم تعد سوريا الإسلامية وحدها هي التي تمّ توحيدها تحت قيادة الزعيم القوي نور الدين وحسب، بل هاهي ذي الآن مصر برمّتها تنتقل إلى سيادة الأتابك الذي لا يُقهر، وتبقى في يد قائده. وبذلك أمست دولة سوريا الفرنجية مطوّقة من ثلاث جهات.

أما الملك أموري، فبما أدركه من عظم الأخطار التي باتت تهدّده، ما كان منه إلا أن لجأ مجدّداً إلى الحل الوحيد الممكن أمامه، وهو إعادة توثيق الحلف مع الإمبراطورية البيزنطة. وكان هو الآخر قد تزوّج من أميرة بيزنطية هي ماريا كومنينا Marie Comnène. وتحرّكت فرقة عسكرية بيزنطية لمساعدته في هجومه على ميناء دمياط المصري، ولكن هذا الحصار كان مصيره الفشل (من أكتوبر إلى ديسمبر 1169 م).

كان ذلك ما دعا أموري إلى التوجه فوراً إلى القسطنطينية، حيث أجرى الإمبراطور مانويل كومنينوس استقبالاً حافلاً، ثم تداول الرجلان في سبيل التوصل إلى سياسة مشتركة ضد نور الدين وصلاح الدين (من شهر مارس إلى يونيو 1171 م). ولكن أموري مات عام (1174 م) قبل أن يُتاح له المضي في تطبيق المنهاج المقرّر مع البيزنطيين.

---

(1) يسميه الفرنسيون: Saladin، والسُّلطان النَّاصر (532-589 هـ) صلاح الدِّين يوسف بن أيّوب ابن شاذي أحد أعظم ملوك الإسلام ومن أهمّ الشخصيات التاريخية التي أنجبتها أمتنا الإسلامية. ولي مصر تحت قيادة السّلطان الأتابكي العادل نور الدّين محمود ابن زنكي، ثم بوفاته عام 569 هـ أسّس النّاصر دولة آل أيوب التي دامت نيّفاً وثمانين عاماً. أهم أعماله كانت مجاهدة الصليبيين بالشام 18 عاماً دون توقف حتى كسرهم في حطّين 583 هـ وحرّر القدس الشريف بعد أن بقي بيد الصليبيين 90 عاماً (منذ عام 492 هـ)، ثم عقد صلح الرّملة بينه وبين الملك ريتشارد قائد الحملة الصليبية الثالثة عام 588 هـ فتمّ له ترسيخ انتصاراته العسكرية برغم فقده لعكّا قبل ذلك بعام. توفي بدمشق ودُفن فيها.

تملّك بودوان الرابع

خلف أموري في الحكم ابنه بودوان الرابع Baudouin IV، الذي كان شاباً ذا مزايا عالية ولكنه مع الأسف أصيب بالجُذام. أما نور الدين فقد توفي في نفس الوقت تقريباً، دون أن يخلّف من بعده سوى صبي قاصر[1]. فما كان من صلاح الدين إلا أن قام بانتزاع الولايات من هذا الصبي، دمشق أولاً (1174 م)، ثم حلب (1183 م).

من خلال هذه المجريات كلّها، ترتّب ما يعود بأكبر الوبال على الفرنجة، فما إن توحّدت سوريا الإسلامية ومصر تحت قيادة رجل عظيم كصلاح الدين - الذي يُعتبر لذلك واحداً من أعظم الرجال في تاريخ آسيا - حتى وجدت الدول الفرنجية نفسها ليست مطوّقة فحسب، بل وفي حالة متداركة من الضعف الدائم. لقد كان تفوّق هذه الدول من قبل، كما بيّنا سابقاً، عائداً بدرجة كبيرة إلى تشتّت العالم الإسلامي، ولكن منذ اليوم الذي أضحى فيه العالم الإسلامي موحّداً سياسياً، من مساقط النيل إلى الفرات، غدت أيام الشرق اللاتيني معدودة ومحكومة بالفناء.

لكن ينبغي الإقرار بأن بودوان الرابع الشاب، ومستشاره النابه ريمون الثالث كونت طرابلس، قد بذلا كل ما في وسعهما لإعاقة الوحدة الإسلامية، وعمدا إلى تطبيق سياسة ملوك القدس السالفين، في حماية الدول الإسلامية الضعيفة ضد الدول الكبرى المسيطرة عليها، فعملا ما استطاعا على الدفاع عن ابن نور الدين ضد صلاح الدين، كما فعل بالأمس القريب الملك بودوان الثالث فدافع عن استقلال مملكة دمشق في وجه نور الدين. ولكنهما، أي بودوان وريمون، لم تثمر جهودهما أكثر من تأخير إنجاز هذه الوحدة الإسلامية الشاملة لبضعة سنين أخرى، ليس إلا.

---

(1) هو الصالح اسماعيل، الذي كان فتى غرّاً غير أهل للحكم. وحول تولي الناصر صلاح الدين مكانه راجع كتاب: «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» لبهاء الدين ابن شدّاد، فصل: ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي، وفيه شهادة هامة لصلاح الدين عن رفضه عصيان سيده نور الدين، تُسجّل له بكل فخر وتدحض مزاعم الباحثين عن مثالب العظماء ممن قالوا بأن صلاح الدين قد قلب لولي نعمته ظهر المجنّ. وكان تولي صلاح الدين لمقاليد السلطة نابعاً من ضرورة حتمية لصدّ هجمات الغزاة الصليبيين بغضّ النظر عن الاعتبارات السياسية الأخرى.

ورغم مرضه العُضال، ساهم بودوان الرابع شخصياً بدور فعّال في الصراع ضد صلاح الدين، حتى أنه أحرز عليه بين تل الجزر (مونجيزار Montgisard) وتل الصّافية (بلانش غارد Blanche-Garde) واحداً من أزهى انتصارات الصليبيين (25 نوفمبر 1177 م). وتوصّل بُعيد ذلك إلى إجراء هدنة معه (عام 1180 م)، أفادت بشكل خاص في إراحة الصليبيين المنهكي القوى. لكن لسوء الحظ خُرِقت هذه الهدنة بسوء تصرف أمير أنطاكية السابق الأرعن رُنو دى شاتيّون، الذي أصبح منذ فترة غير بعيدة سيد الأراضي الواقعة ما وراء نهر الأردن، أي: شرقي الأردن Transjordanie، ووادي موسى.

وتم الاستفادة من حصون رُنو في المنطقة المذكورة، وهي قلعة الكَرَك (قلعة مؤاب Crac de Moab)، وحصن الشَّوْبَك (مونريال Montréal)، في التحكّم بالطريق الواصل بين سوريا الإسلامية ومصر، فقُطعت بذلك إمبراطورية صلاح الدين إلى شطرين. كما استغلّ رُنو ذلك للإغارة على قافلة الحج المتوجهة إلى مكة واستلابها (1181 م)، فأدّى هذا العمل اللصوصي الوقح إلى تأجيج أشدّ معاني السخط البالغ في ضمائر الأمة الإسلامية.

وسرعان ما استأنف صلاح الدين حربه مع الفرنجة، وألهب رُنو مشاعر الأمة الإسلامية من جديد، عندما دفع نحو البحر الأحمر بأسطول مضى يتهدّد مدن الإسلام المقدّسة: مكة والمدينة (شتاء 1182-1183 م)، وهذا يُعتبر انتهاكاً ما بعده انتهاك لأقدس حُرُمات المسلمين[1].

استشاط صلاح الدين غضباً وأقبل يحاصر قلعة الكرك، التي لم يُنجها من سطوته سوى التدخل البطولي[2] لبودوان الرابع (4 ديسمبر 1183 م).

---

(1) كان مصير هذا الخائن بعد أربعة أعوام عقب معركة حطّين أن ضرب السّلطان النّاصر عنقه بيده، وفاءً لنذر له قطعه على نفسه بذلك منذ أن بلغته أخبار غدره بالحجّاج وتهديده للحرمين. ويروي بهاء الدّين ابن شدّاد في كتابه الرّائع «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» تفاصيل اللّقاء النّادر بين السّلطان وأسيريه ملك القدس ورُنو.

(2) هذا كلام الكاتب الفرنسي، الذي يشيد ببطولات قومه، وهذا لعمري حق كل إنسان، وإن كان - كما نرى - لا ينكر أبداً إنجازات أبطال تاريخنا الإسلامي، ولهجته في كتابه هذا هي أقرب إلى الواقعية والإنصاف، فحيّا الله من عرف حقه وحق غيره. وكنا ذكرنا في المقدمة أن هذا كان سبباً رئيسياً لاختيارنا هذا الكتاب لنقله إلى لغة الضاد، فليست كل كتب المستعربين تتصف بهذا الإنصاف والموضوعية.

غي دى لوزينيان وكارثة حطين

مات الملك بودوان الرابع ذو المآثر البطولية، وقد أضناه الجُذام (في 15 مارس 1185 م). وأُعلن من بعده ملكاً ابن أخيه بودوان الخامس Baudouin V، وهو طفل في الخامسة من العمر. ولدى وفاة هذا الطفل بدوره (سبتمبر 1186 م) انتقل التاج إلى أخت بودوان الرابع، الملكة سيبيل Sibylle التي، برغم معارضة البارونات، أشركت في العرش زوجها غي دى لوزينيان Guy de Lusignan، وكان غير كفؤٍ لذلك، خاصة عند مقارنته مع رجل بمكانة صلاح الدين، الواضع تحت تصرفه جميع طاقات سوريا الإسلامية ومصر.

كان من المفترض بغي هذا، على الأقل، أن يقصر جهوده على الدفاع البحت، تجنباً من الوقوع في خسائر لا يمكن تعويضها. ولكن رغم ذلك، عندما اجتاح صلاح الدين مملكة القدس من جهة جبال الجليل، فإن الملك غي، منصاعاً للآراء الخائبة التي قدّمها له رُنو دى شاتيّون، وسيّد فرسان الهيكل جيرار دى ريدفور Gérard de Ridefort، ورغم النصائح التحذيرية التي أعطاه إياها ريمون الثالث كونت طرابلس، لم يتوانَ عن الدخول في المعركة تحت أسوأ الظروف عند حطّين بالقرب من طبريّة. وكان بالتالي مصير الجيش الفرنجي برمّته، فيما عدا استثناءات طفيفة، القتل أو الأسر، حتى أن الملك كي نفسه كان من بين أسرى تلك المعركة الهائلة (4 يوليو 1187 م).

استجرّت كارثة حطّين في أثرها الانهيار الفوري والشامل لسوريا الفرنجية، ولم يكن الاستيطان الفرنجي في الواقع كما رأينا كبير الكثافة البتّة، في حين أنه في حطّين تم قتل وأسر جميع أفراد طبقة الفرسان la chevalerie قاطبة، ناهيك عن خيّالة السرجندية الشعبية les sergents. وبقيت المستوطنات التي استُنزفت طاقاتها البشرية تماماً خاوية من المستوطنين.

لم يبق أمام صلاح الدين إذ ذاك سوى اقتناص المدن الفرنجية الواحدة تلو الأخرى بغارات قوية صاعقة، وحتى المدن القوية المحصنة منها، مثل عكّا (سقطت في 10 يوليو 1187 م)، ويافا وبيروت (6 أغسطس)، حتى أنه استطاع تحرير مدينة القدس نفسها، التي بالرغم من قواته لم تستسلم إلا بعد مقاومة مشرّفة (في 2 أكتوبر 1187 م).

ولقد سمح صلاح الدين بأريحية كريمة، تنمّ عن روح الفروسية العالية، لسكان القدس من المسيحيين بمغادرة المدينة المقدّسة والجلاء عنها بحرّية وسلام، كما أنه رفض رفضاً قاطعاً تهديم كنيسة القبر المقدّس.

كانت مملكة القدس من جرّاء ذلك قد ضاعت تماماً، باستثناء موضع واحد فقط، كما سنرى، هو مدينة صُور. ومن كونتيّة طرابلس بكاملها لم ينجُ من الغزو سوى مدينة طرابلس نفسها، مع طرطوس Tortose وحصن الأكراد[1]. وأما إمارة أنطاكية فلم يتبق منها سوى مدينة أنطاكية وقلعة المرقب[2].

الحملة الصليبيّة الثالثة

قُبيل الساعة التي كانت مملكة القدس تتقوّض فيها في يوليو 1187 م، كان زعيم صليبي حديث المجيء إلى الأرض المقدّسة، هو المركيز البييمونتي كونراد دى مونفيرّا[3] Conrad de Montferrat، قد نزل في صُور ودافع عنها في وجه صلاح الدين. وبفضل هذا الرّجل القوي أضحى لصور، الناجية من نكبة الاجتياح الكبرى، في الأيام القادمة دور المنطلق لإعادة الغزو الفرنجي من جديد.

فيما تلا ذلك، كان ملك القدس السابق غي دى لوزينيان، الذي وقع أسيراً بيد صلاح الدين في حطّين، قد استردّ حريته على يد آسره، فما كان منه إلا أن جمع قوات جديدة وباشر بإعادة غزو مدينة عكّا من قوات صلاح الدين. واستمر حصار عكّا، الذي بدأ في نهاية شهر أغسطس من عام 1189 م، لغاية عامين اثنين، ووجد المحاصِرون أنفسهم - هم الآخرون - محاصَرين من قبل صلاح الدين، فانصرف الجيشان إلى حرب خنادق مضنية.

---

(1) هي القلعة المعروفة في أيامنا بقلعة الحصن شرقي طرطوس، بين حمص وصافيتا.

(2) استعمل المؤلف هنا للتعبير عن كلمة «قلعة» كلمة château، التي تعني في أوروبا القرون الوسطى: قصر الأمير الإقطاعي، الذي كان بمثابة القلعة بنفس الوقت. بينما تستخدم كلمة citadelle للتعبير عن القلاع الكبيرة الرئيسية وكذلك forteresse للحصون و fort للحصون الأصغر حجماً.

(3) يلفظ اسمه بالإيطالية: كونرادو دي مونفرّاتو Conrado di Monferrato، وهو إيطالي من البييمونته Piemonte، إقليم يقع في شمال غرب إيطاليا. أما كلمة marquis فكتبناها بالمألوف في العربية رغم أنها بالفرنسية تلفظ «ماركي» بمد الياء دون نطق لحرف s.

أما الغرب الذي لم يحرّك ساكناً لإنقاذ مملكة القدس في الوقت المناسب فقد بدأت مشاعره أخيراً بالتحرك، واستثار سقوط المدينة المقدّسة قيام حملة صليبية ثالثة شارك فيها أهم ثلاثة حكام في ذلك الوقت، هم: الإمبراطور الجرماني فريدريك باربارو سّا[1] «Friedrich «Barbarossa، وملك فرنسا فيليپ أوغست Philippe Auguste، وملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد Richard cœur de Lion.

ولما كان فريدريك باربارو سا أول المتهيئين للانطلاق، فقد اجتاز بجيش جرّار الأقاليم البيزنطية في أوروپا، ثم دلف إلى آسيا عبر غاليپولي Gallipoli (نهاية مارس 1190 م)، واجتاز كذلك الأقاليم البيزنطية في ليديا وفريجيا، ثم السلطنة السَّلجوقية في آسيا الوسطى، حيث اقتحم عاصمتها قونية عَنْوةً (في 18–20 مايو 1190 م). وبذلك تمّ له دون أية صعاب اجتياز هضبة الأناضول التركية، التي اعتُبرت مميتة بالنسبة لكل الحملات الصليبية السابقة، خلا الأولى منها.

كان باربارو سا يُعدّ العُدّة للنزول بسوريا ويمنّي نفسه بانتصارات حاسمة لما تميَّز به جيشه من الكثرة والنظام، وإذا به يموت غريقاً في مياه نهر سلوقية Silifke (10 يونيو 1190 م). وعندما أمسى جيشه دون قائد تبعثر شَذَر مَذَر.

أما فيليپ أوغست وريتشارد قلب الأسد، فقد انطلقا من ڤيزليه Vézelay للمشاركة في الحملة الصليبية، في 4 يوليو 1190 م، لكن علاقتها التي كانت جدّ سيئة لم تُفسح المجال لتسهيل نجاح الحملة. وقد حطّوا رحالهم في صقلية للتوقف فيها قليلاً، لكنهم مدَّدوا هذه الوقفة لستة أشهر (وكان ذلك أمراً لا مبرّر له في الواقع). ثم رسا فيليپ أوغست في 20 أبريل 1191 أمام عكّا. أما ريتشارد فعندما جنحت به العواصف باتجاه شواطئ جزيرة قبرص، تعلّل بسوء استقبال البيزنطيين له، لانتزاع الجزيرة من أيديهم (6 مايو – 6 يونيو 1191 م).

بذلك كانت أولى نتائج الحملة الصليبية الثالثة – في الوقت الذي كانت فيه انتصارات صلاح الدين آخذة في تقليص سوريا الفرنجية إلى مجرد شريط ساحلي ضيق – هي أنها أضافت إلى رصيدها ملحقاً بشكل جزيرة، يمكن استعماله فيما لو طمي الخطب كملجأ للصليبيين. لقد طرأ غزو قبرص بالمصادفة، بيد أنه ستكون له أهميته البالغة في المستقبل (أنظر الفقرة الأولى من الفصل الرابع).

---

(1) باربارو سّا تسمية إيطالية Barba-Rossa تعني: الذقن الحمراء.

وعندما تم الالتقاء أخيراً بين فيليپ أوغست وريتشارد قبالة عكّا، هاجماها وبذلا نفسيهما بجسارة لاقتحامها، وبالرغم من الجهود الهائلة التي بذلها صلاح الدين، فقد تمكّنا من الاستيلاء على المدينة (في 21 يوليو 1191 م). ولكن فيليپ الذي ازدادت العلاقة بينه وبين ريتشارد سوءاً، سُرعان ما أبحر باتجاه فرنسا، تاركاً - برغم ذلك - قوّاته تحت تصرف الحملة الصليبية (2 أغسطس).

خلصت بذلك قيادة هذه الحملة الصليبية إلى ريتشارد قلب الأسد، الذي انتصر على قوات صلاح الدين في أرسوف (7 سبتمبر 1191 م) وفي يافا (1 و5 أغسطس 1192 م)، وأعادت هذه الانتصارات الباهرة بشكل حاسم التفوق العسكري للفرنجة، ولكن دون أن تصل بهم إلى الشروع في محاصرة القدس[1].

وبعد هذه الحرب المرهقة، ركن ريتشارد إلى إجراء هدنة مع صلاح الدين تنصّ على التسوية السلمية (3 سبتمبر 1192 م). واحتفظ الفرنجة بالساحل الفلسطيني الذي أُعيد غزوه من جديد خلال الحملة الصليبية الثالثة، من صُور إلى يافا (بما فيه هاتان المدينتان). أما المناطق الداخلية، بما في ذلك القدس، فقد بقيت في يدي صلاح الدين، ولكن المسيحيين نالوا تصريحاً يخوّل لهم المجيء بحرّية كحجّاج إلى الأرض المقدّسة. بذلك، أفضت الحملة الصليبية الثالثة إلى حالة من التعايش بين المسيحيين والمسلمين، مع الحفاظ المتبادل بين الطرفين على الحد الأدنى من التسامح الديني.

إصلاح المملكة الفرنجية وإحياؤها في القرن الثالث عشر

بواعث ومظاهر جديدة

بما أن القدس بقيت في حوزة المسلمين، فإن المملكة الفرنجية التي لا زالت تحمل اسمها، اتخذت منذ ذلك الوقت فصاعداً عكّا[2] كعاصمة لها، وقد قُيِّض لها البقاء على هذا النحو لمدّة قرن كامل بالضبط (1191-1291 م).

---

(1) ومكثت القدس بأيدي المسلمين ما بعد حطين، ما خلا فترة بسيطة بين 1229-1244 م.

(2) سمّى الفرنجة عكّا: Saint-Jean d'Acre. وفات المؤلف أن يذكر لريتشارد «مأثرة» إعدام كامل حاميتها من المسلمين (أكثر من 3000 رجل) يوم احتلها في 1191 م. ونقارن هذا بسمو أخلاق صلاح الدين، عندما سمح لسكان القدس عندما فتحها بحرية الرحيل، إكراماً لشرف المدينة.

رغم هذه الاستمرارية الطويلة غدت الفروق ملموسة ما بين العهدين، فقد كانت المستوطنات الفرنجية في سوريا وفلسطين وُجدت بين عامي 1098-1099 م بفعل الانطلاقة الروحية للحركة الصليبية. ثم في القرن الثاني عشر تم الحفاظ عليها تحت حكم مملكة محلّية قوية، أثبتت موجوديتها بوسائلها الخاصة لأجل غايات سياسية أو عسكرية أو إقليمية، وفي الغالب لمنفعة طبقة من النبلاء ذات أصل فرنسي. ومنذ أن تم ترميم هذه المستوطنات جزئياً بعد كارثة عام 1187 م[1] على يدي الحملة الصليبية الثالثة التي بدأت عام 1191 م، صارت تستمدّ أسباب بقائها من المعونات الدائمة الآتية من الغرب، أكثر من اعتمادها على الأُسر الحاكمة المحلّية، التي أمست مُذذاك فصاعداً تتراخى وتضعف بازدياد.

في حين أننا نجد أن الاهتمام الذي أبداه الغرب فيما بعد باتجاه الشرق اللاتيني لم يعد يقتصر على مجرد الاعتبارات الدينية، لا بل غدا معنياً بالشؤون الاقتصادية، التي بلغ الاهتمام بها إلى درجة التركيز على احتلال المرافئ السّوريّة لمصلحة التجارة الفرنجية في المشرق. ومنذ ذيّاك الحين، اضطلع بهذا الدور بعض فئات التجار الجنويين والبيزيين والبنادقة، وهي فئات وإن كانت عاميّة، إلا أنها كانت ذات سلطة محسوسة بما تتمتع به من الغنى، الذي قادها في آخر المطاف إلى أنها كادت تتبوّأ مكانة أرفع من مكانة طبقة النبلاء الفرنسيين.

يمكن لنا أن نستخلص من ذلك أن عام 1098 م كان العام الذي وُجدت فيه سوريا الفرنجية من حيث المبدأ والأساس، أما في القرن الثالث عشر فإن هذه الدولة لم تنتعش وتستمر واقفة على قدميها إلا بفضل تجارة التوابل.

هنري دى شامپانْـيْ وأموري دى لوزينيان

خلال الحملة الصليبية الثالثة اشتجر النزاع على تاج «مملكة القدس»، أو لنقل بالأحرى عكّا، ما بين الملك السابق غي دى لوزينيان الذي يعضده الملك ريتشارد قلب الأسد، وبين كونراد دى مونفيرّا الذي أصبح سيّداً لصور والذي يحظى بدعم الملك فيليپ أوغست.

---

(1) يريد بكارثة عام 1187 هـ معركة حطّين وسحق جيش اللاتين وفتح بيت المقدس على يدي السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

ولما وقف بارونات فلسطين من غي موقف العداء (حيث لم يغفروا له ما قد جنته يداه في كارثة حطين)، فقد عوّض ريتشارد هذا الحاكم بالتنازل له عن جزيرة قبرص (عام 1192 م) - (انظر الفقرة الأولى من الفصل الرابع). في أثناء ذلك خلا السبيل لكونراد دى مونفيرّا، الذي كان قد تزوّج من الوريثة الأخيرة لأسرة القدس الحاكمة هي الأميرة إيزابيل Isabelle، فأُعلن ملكاً لكن القدر لم يمهله، فلقي مصرعه على يد أحد أفراد الطائفة الإسماعيلية (في 28 أبريل 1192 م)[1].

وبمقتل كونراد، حوّل البارونات تأييدهم باتجاه قائد صليبي فرنسي، هو هنري الثاني دى شامپانْي Henri II de Champagne، الذي زوّجوه من إيزابيل. فحكم هنري سوريا الفرنجية بعين الحذر ما بين عامي 1192-1197م. وقد عمل غاية جهده للحفاظ على الهدنات المبرمة مع حكام الأسرة الأيوبية، التي أسّسها صلاح الدين، على اعتبار أنها بقيت السيدة المطلقة لسوريا الإسلامية (حلب ودمشق والقدس)، فضلاً عن مصر.

وبوفاة هنري دى شامپانْي (في 10 سبتمبر 1197 م)، أحال البارونات تاج «القدس» (أي عكّا طبعاً) إلى ملك قبرص أموري دى لوزينيان Amaury de Lusignan (أنظر الفقرة الأولى من الفصل الرابع). واتّسم عهد هذا الحاكم في عكّا (1197-1205 م) باسترجاع مدينة بيروت من أيدي المسلمين (24 أكتوبر 1197 م)، وقيام أموري إثر ذلك بتجديد الهدنة مع السلطان الأيوبي الملك العادل أخي صلاح الدين وخليفته الأساسي، الذي تنازل بموجب هذه الهدنة للفرنجة عن مدينة صيدا (سبتمبر 1204 م).

كانت مساعي الوفاق مع المسلمين، بالنسبة لأموري، أكثر جدوى من الحملة الصليبية الرابعة، تلك التي استثيرت في الغرب بمساعي البابا إينوسان الثالث Innocent III بغية غزو القدس من جديد، ثم انحرفت عمداً عن هدفها، فبدلاً من أن تمضي لمساندة بارونات عكّا، راحت تؤسس إمبراطورية لاتينية في القسطنطينية لم تكن في الحسبان (انظر الفقرة الثانية من الفصل السادس).

---

(1) رغم أن مقتل كونراد نُسب إلى الحشيشيّة فالمنطق يشير بكل قوة إلى الملك ريشارد صاحب المصلحة في قتله لسببين: انفراد كونراد بالصُّلح مع صلاح الدين، ورغبة ريتشارد باحتجان عرش القُدْس لأسرته دون سواها، حيث أن الكونت هنري دى شامپانْي هو ابن أخت ريتشارد. راجع كتاب: سيرة السّلطان النّاصر صلاح الدّين، ص 357.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن هذا «الانحراف» سبّب مضارّاً خطيرة لسوريا الفرنجية، فقد حرمها من تعزيزات لم يكن بالإمكان الاستغناء عنها، كما أدّت بعثرته لقوى الفرنجة ما بين عكّا والقسطنطينية إلى إهزال المستوطنات الفرنجية في الأرض المقدّسة. حتى أنه يجوز لنا أن نقول إن قيام هذه الإمبراطورية اللاتينية العابرة قد أفضى إلى تجميد الحياة في سوريا الفرنجية[1].

بوفاة أموري دى لوزينيان (عام 1205 م)، تم انفصال تاجي مملكتي قبرص و«القدس» من جديد. ففيما بقي الأول لآل لوزينيان، آل الآخر إلى الإبنة التي أنجبتها إيزابيل من زوجها كونراد دى مونفيرّا، هي الأميرة ماري Marie (1205-1212 م). وعلى النقيض من ذلك، تألّف في الدول الفرنجية في الشمال تحالف، فقد كان آخر كونتات طرابلس ريمون الثالث (توفي عام 1187 م) قد تبنّى حدثاً من أبناء أسرة أنطاكية الحاكمة. وكانت النتيجة أن هذا الأمير الصغير، بوهيمون الرابع صاحب أنطاكية Bohémond IV d'Antioche، حكم بعد بضعة سنين في آن واحد كلاً من طرابلس (1189 م) وأنطاكية (1201 م). ومكثت إمارة أنطاكية وكونتيّة طرابلس معاً منذ ذلك الحين تحت نظام الوحدة الفردية.

جان دى بريين والحملة الصّليبية الخامسة

في عام 1210 م تزوّجت الملكة الشابة ماري من البارون الشامپانـيْ جان دى بريين Jean de Brienne، الذي مع أنه كان في العقد السادس من العمر أصبح ملكاً مليئاً بالحيوية، بل وبدا حتى بمظهر فارس لا تشوبه شائبة.

وفي عام 1216 م، رتّب البابا أونوريوس الثالث Honorius III لإعلان الحملة الصليبية الخامسة. ثم في شهر سبتمبر من عام 1217 م، نزل حاكمان صليبيان في عكّا، هما ملك هنغاريا أندريه الثانـي André II ودوق النمسا ليوپولد السادس Leupold VI، ولكن المسيحيين مُنوا بالفشل أمام قلعة جبل الطور الأيوبية (29 نوڤمبر - 7 ديسمبر 1217 م). وعلى أثر هذا الإخفاق عاد أندريه الثانـي إلى أوروپا.

---

(1) خير مرجع عن حملة القسطنطينية هو كتاب ڤيلاردوان Geoffroi de Villehardouin.

ومع ذلك، قرر جان دى بريين، ما دام الصليبيون الآخرون - من فرنسيين وإيطاليين وفريزيين[1] - آخذين في النزول في الأرض المقدّسة، أن يهاجم مصر، قلب الإمبراطورية الأيوبية. وكان هذا تخطيطاً صائباً منه: «فإن مفاتيح القدس تكمن هناك في القاهرة».

ومضى الفرنجة يحاصرون دمياط، عاصمة الدِّلتا الشرقية (مايو 1219 م)، وتم لهم احتلالها أخيراً (في 5 نوفمبر 1219 م). وهذا ما حمل السلطان الأيوبي الملك العادل على العرض بتسليم القدس مقابل استرجاع دمياط. وبدا من خلال ذلك أن هدف الحملة الصليبية قد بات بمتناول اليد، ولكن ما أبداه المفوّض البابوي پيلاج Pélage من عدم التساهل (وكان هذا الحبر قد حلّ محل جان دى بريين في قيادة الجيش الفرنجي)، قد أدّى إلى سحب العرض المذكور.

ثم في يوليو من عام 1221 م، اتخذ پيلاج، رغم معارضة جان دى بريين، قراراً جنونياً باقتحام القاهرة قُبيل فيضان نهر النيل بقليل. وكان من حسن حظ الصليبيين الذين غمرتهم مياه الطوفان من جميع الجهات أن السلطان سمح لهم بالانسحاب مقابل تسليمهم لدمياط (في 30 أغسطس 1221 م).

حملة فريدريك الثانـي الصليبية

في عام 1225 م، زوّج جان دى بريين ابنته إيزابيل Isabelle من الإمبراطور فريدريك الثانـي Friedrich II، الإمبراطور الجرمانـي وملك صقلية. وبما أن بريين لم يكن من حيث القانون أكثر من وصي على ابنته، فإن مقاليد حكم المملكة الفرنجية انتقلت تلقائياً إلى فريدريك الذي ما كان منه، على الأثر، إلا أن أقصى بريين العاثر الحظ بقسوة.

كانت البابوية قد حبّذت هذا الزواج، متأملة تجنيد القوى التابعة للإمبراطورية الجرمانية المقدّسة وبمملكة صقلية لصالح الحركة الصليبية. ولهذا فقد كان البابا غريغوار[2] التاسع Grégoire IX يحثّ فريدريك على الاشتراك في

(1) نسبة إلى فريزلاند Friesland، وهي منطقة تقع ما بين هولندا وألمانيا، تتألف من مجموعة سهول تجاور بحر الشمال.

(2) سبق أن ذكرنا أن اسم غريغوار بالفرنسية يقابل غريغوريوس باللاتينية.

الحركة الصليبية، ولكن هذا العاهل الذي كان يبدى تجاه رعاياه من العرب في صقلية تعاطفاً نحو الإسلام، استمرّ في إرجاء حركته الصليبية، وهذا ما حمل غريغوار التاسع في النهاية على حرمانه من الكنيسة (عام 1227 م). وفي الواقع، كان فريدريك أثناء ذلك في حالة تفاوض انفرادي مع سلطان مصر الملك الكامل، ذلك بأن سلطان مصر الذي كان في حالة نزاع مع شقيقه سلطان دمشق، اعتزم الاتكال على معونة الإمبراطور.

ركب فريدريك الثانـي البحر أخيراً باتجاه المشرق (في 28 يونيو 1228 م)، فتوقف في قبرص (21 يوليو - 3 سبتمبر) حيث - كما سنرى لاحقاً (في الفقرة الأولى من الفصل الرابع) - أعاد لنفسه الوصاية على الملك الشاب هنري الأول دى لوزينيان Henri I^er de Lusignan. ولما نزل في عكّا في 7 سبتمبر 1228 م، أفاد من صداقته مع السلطان الملك الكامل لإرساء قواعد وفاق، كانت الغاية منه كما رسم في مخيّلته إنهاء عصر الحملات الصليبية، ووضع حدٍّ من الطرفين للحرب المقدّسة، وذلك بإنشاء نظام من التسامح الديني.

وبموجب هذه المعاهدة، التي كانت متقدّمة كثيراً عن مدارك ذلك العصر، والتي أُبرمت في يافا في 11 فبراير 1229 م، شرع السلطان في إعادة المدن المقدّسة الثلاث إلى الفرنجة، وهي: القدس، وبيت لحم، والناصرة، وذلك فضلاً عن إقطاع تبنين la seigneurie de Toron في الجليل الأعلى[1]، والأرباض الداخلية لمدينة صيدا على الشاطئ الفينيقي.

هذه المقايضة الإقليمية التي تم التوصل إليها دون قتال، بفضل البراعة السياسية لفريدريك الثانـي، صاحبها شيء من السكينة الدينية، فإن القدس رغم عودتها سياسياً إلى أيدي الفرنجة، اعتُبرت مدينة مقدّسة ومُباحة لأتباع الديانتين الإسلامية والمسيحية، وبَدَت خاضعة لسيادة طائفية مزدوجة. ولقد استعاد المسيحيون فيها كنيسة القبر المقدس، فيما احتفظ المسلمون بقبّة الصخرة (مسجد عمر) وبالمسجد الأقصى[2].

---

(1) تقع تبنين Toron في جنوب لبنان، إلى الشرق من قانا شمالي الجليل الأعلى.

(2) إثر هذه المعاهدة بين الملك الكامل الأيوبـي والإمبراطور فريدريك الثانـي قائد الحملة الصليبية السادسة (626 هـ = 1229 م) بقيت القُدس في أيدي الفرنجة 15 عاماً، إلى أن انتزعها من أيديهم الخوارزمية عام 1244 م، فما عادوا يحلمون بعدُ بمُلكها.

ودخل فريدريك الثانـي إلى مدينة القدس المسترجعة في 17 مارس 1229 م، وحمل إلى كنيسة القبر المقدس التاج الملكي، ولكن الحرمان الذي أنزله غريغوار التاسع به لحقه حتى إلى القدس، وحرّض ضده بارونات الأرض المقدّسة والمنظّمات العسكرية، وبذا عمّ الشجار ما بين أنصار البابا وأنصار الملك[1] في سوريا. فما كان من فريدريك إلا أن عاد إلى عكّا في أول مايو 1229 م، في جوّ يُنذر بالحرب الأهلية.

ثم بعد رحيل فريدريك الثانـي، شرع بارونات الأرض المقدّسة وزعيمهم جان ديبلان[2] Jean d'Ibelin سيّد بيروت، الذين تهدّد نفوذ فريدريك المطلق بحرمانهم من امتيازاتهم، شرعوا في محاربة ممثلي فريدريك وأعوانه. وبدأت الحرب أولاً في جزيرة قبرص، التي طرد جان ديبلان منها أتباع الإمبراطور (يوليو 1229- مايو 1230 م) - (انظر الفقرة الأولى من الفصل الرابع).

ثم في فبراير 1231 م، أرسل فريدريك الثانـي إلى المشرق حملة عسكرية بقيادة ريكاردو فيلانجييري Riccardo Filangieri، الذي انتزع بيروت من يدي جان ديبلان واحتلّ صُور بالمثل. وفي مواجه فيلانجييري تشكّلت في عكّا حكومة ذاتية مشتركة تحت إشراف جمعية رهبان سان أندريه المحلية Saint-André، وبتوجيهات جان ديبلان. ثم استطاع فيلانجييري أن يهزم جان عند موقع «كازال أمبير»[3]، ما بين صُور وعكّا (في 3 مايو 1232 م)، وتوجه إثر ذلك إلى قبرص ليعيدها إلى حظيرة الطاعة، ولكنه هُزم هناك بدوره على يد جان ديبلان في أغريدي Agridi (في 15 يونيو 1232 م). ولم يتبقّ بأيدي أتباع الإمبراطور المطرودين من قبرص وبيروت غير صُور التي احتفظوا بها لبعض الوقت.

---

(1) بالفرنسية: les guelfes et les gibelins، أي البابويون والملكيون. وهذا من التعابير الشائعة في الأدب الفرنسي بالعصور الوسطى، نقلاً عن اسم أسرتين فلورنسيتين: Guelfi e Guibellini.

(2) هذه أصح طريقة لكتابة اسمه بالعربية (ديبلان) عن الفرنسية d'Ibelin. وكان بعض كتّابنا جعلوها «الإبليني» وبعضهم الآخر جعل الاسم «يوحنا دي إبلين»، وهو غلط، لأن الاسم Ibelin (موضع بالساحل الفلسطيني يعرف بيَبْنى) يلفظ بالفرنسية: إيبلان، لا يغرّنك الحرف i فهو في الفرنسية يُنطق بحسب موقعه من الكلمة، إما كالياء المعهودة أو الألف أو الفتحة المتوسطة المدّ، كقولهم: matin ماتّان، moulin مولان.

(3) بالفرنسية: Casal-Imbert، ويقع هذا الموضع شمالي عكا بحوالي 10 كم على طريق الناقورة وصور، عند بلدة الرشيدية التي قامت في محيطها في عصرنا مستوطنة نهاريا الإسرائيلية.

ثم في 12 يونيو 1243 م، قام باليان الثالث ديبلان Balian III d'Ibelin وهو ابن جان، بانتزاع هذا الموقع الأخير من أيديهم[1]، وسلّمه بالتالي إلى أحد أقربائه، وهو فيليپ دى مونفور Philippe de Montfort.

لقد أدّى طرد أتباع الإمبراطورية، في الواقع، إلى تحويل مملكة الأرض المقدّسة إلى جمهورية اتحادية تتألف من الإقطاعيات البارونية baronnies ومن البلدات التجارية، وقد أدارت هذه الجمهورية خلال فترة ما أسرة إيبلان الإقطاعية القوية. وكان البارونات دائماً معترفين نظرياً بملكية فريدريك الثانـي وابنه كونراد الرابع، ولكنهم كانوا عملياً في حالة ثورة علنية ضده.

حملة عام 1239 الصليبية

حثّ البابا غريغوار التاسع في عام 1239 م على تشكيل حملة صليبية جديدة، شارك فيها عدد من البارونات الفرنسيين، ومنهم بالتحديد تيبو الرابع Thibaut IV كونت شامپانْـيْ Champagne وملك ناڤار Navarre، ودوق بورغونـي Bourgogne هوغ[2] الرابع Hugue IV، وكونت بروتانْـيْ Bretagne پيير موكلير Pierre Mauclerc، والكونت هنري دى بار Henri de Bar. وفي بداية هذه الحملة الجديدة، وقعت كتيبة فرنجية بقيادة الكونت دى بار في الشرك وأُبيدت بكاملها بالقرب من غزّة (12-13 نوڤمبر 1239 م).

غير أن مجرد حضور الصليبين في المنطقة كانت له نتائجه المفيدة، بفعل الفرقة التي دبّت ما بين المسلمين؛ وكانت الإمبراطورية الأيوبية (سلالة صلاح الدين) متنازع عليها ما بين أكبر حاكمين فيها: الصالح أيوب سلطان مصر، والصالح إسماعيل سلطان دمشق. ولكي يكسب إسماعيل حلف الفرنج ضد منافسه، فقد ردّ عليهم الجليل، بما في ذلك طبريّة (عام 1240 م).

---

(1) يعني صور في الساحل اللبنانـي جنوباً. وبقيت صور في أيدي الصليبيين، حتى قام بفتحها المماليك في مايو 1291 م، بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون.

(2) نقول في لفظ هذا الاسم ما نقوله في اسم «هنري»، فالواجب كان أن نكتبها كما ينطقها الفرنسيون: أوغ - آنري، على اعتبار كون حرف H حرفاً مكتوباً غير منطوق في اللغات اللاتينية (الفرنسية والإيطالية والإسپانية والپرتغالية). غير أن العادة جرت في بلادنا العربية أن نكتبها وننطقها: هوغ، هنري. فأمرنا لله!

وللغاية ذاتها أعاد إليهم أيوب عسقلان. لكن هذه لم تكن سوى مكاسب مؤقتة، ففي عام 1244 م، تم انتزاع القدس من الفرنجة بشكل قاطع ونهائي على أيدي سرايا من الأتراك الخوارزمية، وكذلك في عام 1247 م فقد الفرنجة من جديد كلاً من طبرية وعسقلان.

حملة القديس لويس الصليبية

حمل ضياع القدس، للمرة الثانية في عام 1244 م، ملك فرنسا لويس التاسع Louis XI إلى الخروج بنفسه على رأس حملة صليبية، إلا أنه لم يستطع وضع مشروعه هذا قيد التنفيذ إلا عقب أعوام أربعة. فأبحر إلى جزر الإيغمورت Aigues-Mortes في 25 أغسطس 1248 م، ورسا في 17 سبتمبر في قبرص حيث أمضى فيها وقفة دامت ثمانية أشهر.

عزم لويس التاسع، كما فعل بالأمس القريب جان دى برين، على مهاجمة مصر ذاتها التي كانت آنذاك بمثابة قلب الإمبراطورية الأيوبية أكثر من ذي قبل، كذلك فإن حلّ مشكلة الأرض المقدّسة يكمن دائماً في القاهرة. وهكذا نزل الملك في دمياط Damiette، واستولى عليها في اليوم التالي (5–6 يونيو 1249 م). لكن لويس لم يستطع الاستفادة من دمياط لمباشرة مسيرته فوراً باتجاه القاهرة، ذلك لأن فيضان النيل (ما بين يوليو وسبتمبر) كان بدأ آنذاك. ولهذا قبع الجيش في خمود تام بدمياط قرابة الخمسة أشهر. وعرض السلطان الصالح أيوب إعادة القدس إلى الفرنجة مقابل أن يعيدوا إليه دمياط، لكن كما فعل المفوّض البابوي پيلاج Pélage بالأمس القريب رفض لويس التاسع هذا العرض.

في 20 نوڤمبر باشر الملك لويس تحرّكه صوب القاهرة، لكن الفرنجة ألفوا الطريق مقطوعاً عليهم بقناة «البحر الصغير» والتي أقام المصريون خلفها مدينة «المنصورة» الحصينة. وفي 8 فبراير 1250 م نجح لويس في اجتياز القناة، بيد أن أخاه روبير دارتوا Robert d'Artois الذي اندفع بقوّاته متهوّراً نحو المنصورة قُتل فيها، وأُبيدت الطليعة التي كانت تحت قيادته على بَكرة أبيها. استعاد المصريون رباطة جأشهم وعمل لويس التاسع كل ما بوسعه ليدحرهم، لكنه رغم بسالته الفائقة اضطر للبقاء في موقف الدفاع دون أي أمل ببلوغ المنصورة.

في غمرة هذا الوضع الحرج، كان الإحساس بالخطر يملي عليه ضرورة القتال منسحباً نحو دمياط، لكن لويس التاسع اعتبر أن شرفه العسكري يحول بينه وبين هذه الفعلة الشائنة. ثم عندما أذعن لتلك الضرورة كان الوقت قد فاته نهائياً. وألفى الجيش الفرنسي نفسه، إثر فتك الطاعون فيه وتطويقه من قبل المصريين، مجبراً على الاستسلام (في 6 أبريل 1250 م).

في تلك الأثناء، كان سلطان مصر الجديد، تورانشاه، قد لقي مصرعه على أيدي مجندي حرسه من الأتراك، وهم «المماليك» الذائعو الصيت، الذين احتجنوا مقاليد الحكم لأنفسهم (في 2 مايو 1250 م). وكاد هؤلاء الجنود الشرسون يقضون على الملك لويس التاسع في محبسه، ثم رضوا أخيراً بقبول الفدية عنه وعن الجيش الذي برفقته، وقد تضمّن ذلك تسليم دمياط ودفع مبلغ 500000 ليرة ذهبية. وفي 8 مايو أبحر لويس التاسع باتجاه سوريا[1].

أمضى لويس التاسع في سوريا فترة 4 سنوات (13 مايو 1250 - 24 أبريل 1254 م)، وأنجز فيها أعمالاً على قدر كبير من الأهمية، فقد وضع المدن الفرنجية الساحلية في حالة تأهب للدفاع، وهي: عكّا وقيسارية ويافا وصيدا، وأعاد الانضباط إلى صفوف الفرنجة، وكبح جماح فرسان الهيكل Templiers. وفي مواجهة المماليك، سعى إلى عقد حلف مع الإسماعيلية أو حشيشية جبل البهرة (في القدموس ومصياف) وزعيمهم الأكبر «شيخ الجبل»، وسعى حتى إلى التحالف مع المغول، الذين أرسل إليهم سفارة على رأسها الراهب الفرنسيسكاني روبروك Rubrouck (1253-1254 م).

التجزئة الفرنجيّة

منذ أن عاد الملك لويس التاسع أدراجه إلى فرنسا (عام 1254 م)، وقعت مملكة الأرض المقدّسة الفرنجية في حالة من التفرقة الناشبة. فمدينة عكّا، عاصمة هذه «المملكة بغير ملك»، والتي تألفت منها دولة ذات حكم ذاتي مشترك، أضناها التنافس المستعر ما بين المستعمرة الجنوية والمستعمرة البندقية المحتميتين

---

(1) وتاريخ هذه الحملة السابعة مفصّل في كتاب رائع لجان دى جوانفيل، معاصر الحملة:
Jean de Joinville: *La vie de Saint Louis.*

داخل أسوارها، واللتين انهمكتا خلال عامين في حرب شوارع ضروس، وقد عرفت باسم «حرب سان سابا» Saint-Sabas (1256-1258 م).

وإلى جانب البنادقة، وقف حكام آل إيبلان Ibelin، وهم أسياد بيروت ويافا، وكذلك فرسان الهيكل (الدّاويّة) Templiers، ومعهم الفرسان التوتونيّون، Chevaliers Teutoniques، بالإضافة إلى المستعمرات البيزية والپروڤنسالية. أما في صف الجنويين، فقد وقف فيليپ دى مونفور Philippe de Montfort سيّد صُور الإقطاعي، وفرسان المشفى Hospitaliers، والمستعمرة القطلانية.

وفي النهاية، استطاع البنادقة طرد الجنويين من عكّا، الذين انسحبوا إلى صُور. وفي أثناء ذلك، كانت هذه الحرب الأهلية قد سَرَت في إمارة أنطاكية - طرابلس، حيث قام الأمير بوهيمون السادس Bohémond VI الموالي للبنادقة بمحاربة تابعه، سيد جبيل le sire de Giblet، ذي الأصل الجنوي والمناصر للجنويين، والذي انتهى به الأمر إلى الموت مُغتالاً.

مسألة الحلف المغولي

لم يكن الفرنجة بأقل تشتّتاً من ذلك، على صعيد السياسة الخارجية. ففي عام 1260 م[1]، قام مغول فارس بأوامر هولاكو خان حفيد جنگيز خان، بغزو سوريا الإسلامية من أيدي أواخر الأمراء الأيوبيين، فوقعت بقبضتهم كل مدن سوريا الكبرى: حلب وحماة وحمص ودمشق.

وقام بعض هؤلاء المغول، وهو بالتحديد قائدهم كتبغا، باعتناق الديانة المسيحية على المذهب النسطوري. ومن جهة أخرى، قام ملك أرمينيا (كيليكية) هيتوم الأكبر Héthoum le Grand، الذي كان تحت حماية المغول، بضمّ قواه إلى جيوشهم (انظر الفقرة الثانية من الفصل الخامس). وقد حذا حذوه في ذلك صهره أمير أنطاكية وطرابلس بوهيمون السادس.

---

(1) أي عام 658 للهجرة، وفي العام نفسه تمكن المماليك بقيادة السّلطان المظفّر قُطُز من سحق جيش التتار في معركة عين جالوت الفاصلة، بعد أن كانوا دمّروا بغداد حاضرة الخلافة العباسية عام 656 هـ (=1258 م) بكل وحشية، وراموا احتلال مصر قاعدة الدولة المملوكية. راجع ما نشرناه من مغامرة المملوك الصّارم أوزبك في كتاب: «دمشق في مرآة رحلات القرون الوسطى».

في مجمل الأمر، بدا المغول وهم يدمّرون سوريا الإسلامية، كأنهم يفعلون ذلك لصالح الفرنجة، دون قصد. ولكن بارونات ساحل فلسطين كانوا متخوّفين من الهمجية المغولية. وقام أحدهم، وهو جوليان سيّد صيدا Julien de Sidon، بمهاجمة إحدى الكتائب المغولية، فاجترّ على نفسه نتيجة وخيمة.

وفي الختام، قرّر مجلس عكّا الحاكم الوقوف إلى جانب مماليك مصر، الذين كانوا يعدّون العدّة للقيام بهجوم إسلامي معاكس ضد المغول. وبفضل الحياد الفرنجي المتعاطف، أفلح المماليك في سحق جيوش المغول في عين جالوت بمنطقة الجليل (في 3 سبتمبر 1260 م)، وفي طردهم نهائياً من سوريا الإسلامية.

السلطان الظاهر بيبرس

كان من أهم نتائج هزيمة المغول تبوّء المماليك مركز السيادة في سوريا الإسلامية (حلب ودمشق والقدس)، بعد مُلكهم مصر. هذا ولقد كانت هذه «الخُشداشية[1] التركية الكبرى»، التي تمثل جيشاً نظامياً دائماً، واحدة من خيرة التنظيمات الحربية في ذلك العصر؛ وخصوصاً عند مقارنتها بالجيوش الفرنجية، التي يُعتمد في تشكيلها على الجنود الإقطاعيين المؤقتين وغير المهيأين لخوض غمار الحرب، بالإضافة إلى المنظمات العسكرية الثابتة.

أضحت السلطنة المملوكية مملكة متحدة ذات سيادة مطلقة، يُدان لها بالطاعة من حدود النّوبة إلى نهر الفرات. كان في الماضي أهم ما عزّز نجاح الفرنجة في مطلع القرن الثاني عشر وحدتهم العسكرية القوية، المتناقضة تماماً مع التجزئة الإسلامية، وأما الآن فقد انقلبت الآية تماماً: فتماسك عسكري إسلامي قوي، وتجزئة فرنجية كبيرة.

---

(1) الخشداشية من مصطلحات العهد المملوكي، وهي عبارة تركية: Hoşdaş، تعني حرفياً التماثل والتساوي، أما معناها الاصطلاحي فهو أخوّة السلاح وزمالة الجيش، وكثيراً ما ترد في مصطلحات ومؤلفات العهد المملوكي. وأما حول تفوّق القدرات القتالية للمماليك وارتقاء الفنون العسكرية في عهدهم فقد صدرت مؤلفات عديدة، أحسنها بالعربية: «الفروسية في مصر في عصر سلاطين المماليك 1250-1517 م»، تأليف د. السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت 1967.

علاوة على ذلك، تربّع في سدّة حكم دولة المماليك، في الفترة الممتدة بين عامي 1260-1277 م، رجل حرب من الطراز الأول، هو السلطان الظاهر بيبرس[1] الذي صمّم على إلقاء الفرنجة في البحر، وباشر على الفور في تنفيذ هذا المهمّة دون تلكؤ.

بعد ضربات متوالية في صدر الفرنجة، استطاع الظاهر بيبرس أن يستخلص منهم قيسارية (في 27 فبراير 1265 م)، وأرسوف (26 أبريل 1265 م) ، وصفد (25 يوليو 1266 م)، ويافا (7 مارس 1268 م)، وشقيف أرنون Beaufort (15 أبريل)، وأنطاكية (مايو 1268 م). وانحسرت أملاك أمير أنطاكية وطرابلس، بوهيمون السادس، إلى مجرد كونتيّة طرابلس.

ثم أدّت الحملة الصليبية الثامنة، التي قادها الملك لويس التاسع أيضاً، إلى خفض انطلاقة بيبرس، ولكن الانحراف المميت لهذه الحملة باتجاه تونس، حيث لقي لويس التاسع حتفه (في أغسطس 1270 م)، بدّد كل آمال الفرنجة. ثم تمكّن بيبرس من انتزاع حصن صافيتا (الحصن الأبيض) le Chastel Blanc من الفرنجة (في فبراير 1271 م)، ومن بعده قلعة فرسان المشفى (الإسبتارية) الكبرى، أي حصن الأكراد[2] le Crac des Chevaliers (15 مارس - 8 أبريل 1271 م).

وآل تاج «القدس» بأن أسنده بارونات عكّا إلى ملك قبرص هوغ الثالث Hugues III (في 24 سبتمبر 1269 م)، ولكن الفوضى الضاربة بين صفوف البارونات والحكام المشاركين، وعداوة فرسان الهيكل (الدّاويّة) لهوك، ثبّطا من عزيمة هذا الأخير، فما كان منه إلا أن ولّى متراجعاً أدراجه نحو جزيرة قبرص (1276 م).

وبادر ملك صقلية شارل دانجو Charles d'Anjou، الذي كان يعضده السيّد الأكبر لفرسان الهيكل غيّوم دى بوجو Guillaume de Beaujeu، بالمطالبة بتاج القدس. ومضى نائبه روجيه دى سان سيفيرينو Roger de San-Severino يحاول الاستحواذ على عكّا (عام 1277 م)، ولكن اللعنات الصقلّية أتت، في عكّا أيضاً، على ما تبقّى من سلطة آل آنجو (عام 1282 م).

---

(1) يكتب اسمه بالتركية: Bey-Pars، ومعناه: أمير - فهد.

(2) هي القلعة الشهيرة المعروفة في أيامنا بقلعة الحصن، بين حمص وطرطوس.

سقوط آخر المعاقل الفرنجية في سوريا

لم تكن النـزاعات الداخلية في كونتيّة طرابلس بأقل اضطراماً من غيرها، فقد كان الكونت بوهيمون السابع Bohémond VII في حرب شاملة مع تابعه غي الثاني سيّد جُبَيل Guy II de Giblet، الذي هُزم ولقي مصرعه بالدفن حيّاً (عام 1282 م). ثم بوفاة بوهيمون السابع (عام 1287 م)، أعلن لاتين طرابلس بطلان سلالته الحاكمة، وبإيعاز من أسرة جُبَيل الحاكمة لاذوا بملء إرادتهم إلى الحماية الجنوية (فكما رأينا كان حكام جُبَيل من أصل جنوي).

بيد أن المماليك لم تَفُتْهم الاستفادة من كل هذه الخلافات، وفي 28 أبريل 1289 م، استولى سلطانهم المنصور قلاوون على طرابلس، وتم إعدام جميع السكان الفرنجة فيها[1].

أما عكّا، عاصمة «مملكة القدس»، فلم تلبث أن وقعت في المصير ذاته، وبدأ السلطان المملوكي الأشرف خليل ابن السلطان قلاوون وخليفته في الحكم في حصارها في 5 أبريل 1291 م. وقد اضطلع بقيادة الدفاع من جانب الفرنجة السيّد الأكبر لفرسان الهيكل غيوم دى بوجو Guillaume de Beaujeu، والسيّد الأكبر لفرسان المشفى جان دى ڤيّيِيْه Jean de Villiers ومقدّمهم ماتيو دى كليرمون Matthieu de Clermont، وجان دى غرايّي Jean de Grailly قائد الوحدة الكاپيتية، وأوتو أوف غراندسن[2] Otto of Grandson قائد الوحدة الإنكليزية. وبعد مقاومة مشرّفة، تم للمماليك اقتحام المدينة عَنوة وسقطت في أيديهم أخيراً (18 - 28 مايو 1291 م).

---

(1) هذه الحادثة يذكرها المؤلف لكنه نسي عند وقوع عكّا بيد جيوش الحملة الصليبية الثالثة عام 1191 م أن يذكر جريمة إعدام سكانها بأسرهم، وعددهم قرابة 3000 شخص. أما احتلالهم للقدس عام 1099 م فأعدموا بها كما ذُكر 70 ألفاً من السكان.

(2) هكذا يُكتب اسمه بالانكليزية، أما المؤلف فقد كتبه بالفرنسية: Otton de Granson، أوتّون دى غرانسون، وهذا مثال آخر على مشكلة ترجمة الأسماء من لغة إلى أخرى. ودوماً نتمنى لو يحافظ المترجمون على شكل الاسم بلغته الأصلية، لا أن يقولوا مثلاً: وليام الصوري المؤرخ الصليبي، أو وليام أوف تاير، بينما اسمه بالفرنسية: غيّوم دى تير. أو أن يقولوا: ملك القدس جاي أو غاي أو غوي دي لوزجنان، بينما يُلفظ اسمه بالفرنسية بطريقة مختلفة تماماً: غي دى لوزينيان. إلى آخر ذلك من التسميات الغريبة العجيبة. ومن الطريف ذكره أن بعض الأسماء التركيّة المنقولة عن العربية تعود فتترجم بصيغة جديدة دون الانتباه إلى الأصل، مثل: ميرڤت (أصله: مروة).

أما باقي المواقع فقد تم الجلاء عنها دون قتال، وكذلك سقطت صُور في مايو من العام نفسه، وصيدا وبيروت في يوليو، وطرطوس في أغسطس.

لقد عاشت سوريا الفرنجية ردحاً من الزمان، ولكن يمكن لنا القول بأنها بما أفرزته من خلافات داخلية متلاحقة، إلى أن حانت ساعتها الأخيرة، كانت تماماً كمن يسعى إلى حتفه بظلفه أو ينتحر بيده.

* * *

الفصل الثالث

الحياة الحضرية
في سوريا الفرنجية

أنظمة الحكم في مملكة القدس

لقد كان نظام الحكم الملكي للفرنجة في القدس إنجازاً خالصاً للملك لبودوان الأول Baudouin Ier (1100-1118 م)، الذي كان أول ما فعله أن قضى على محاولة البطريرك دَمبير Daimbert لتطبيق الحكم الثيوقراطي (أي تسلّط اللاهوتيين). وبدءاً من حكم بودوان الثاني (1118-1131 م) استُبدل نظام الانتخاب نهائياً بالنظام الوراثي في الحكم، وذلك دون تطبيق شريعة الإفرنج[1] التي لا تبيح المُلك للنساء.

لذا انتقل التاج عن طريق النسوة من أسرة ريتيل Rethel (1118-1131 م) إلى أسرة دانجو d'Anjou (1131-1186 م)، ثم إلى آل لوزينيان Lusignan (1186-1192 م)، ثم إلى آل شامپانْـيْ Champagne (1192-1197 م)، ثم عاد ثانيةً إلى آل لوزينيان (1197-1205 م)، ثم آل مونفيرّا Montferrat (1205-1212 م)، ومنهم إلى آل بريين Brienne (1210-1225 م)، وأخيراً إلى أسرة سوابيا[2] Souabe المالكة (1225-1268 م)، ليعود أخيراً من جديد إلى آل لوزينيان (1269-1291 م).

---

(1) تعرف هذه الشريعة باسم loi salique، وهي قانون فرنسي قديم يمنع النساء من تملّك الأرض بالميراث، أو التوصل إلى العرش الملكي.

(2) سوابيا هو اللفظ الفرنسي لكلمة Schwaben (شڤابن) بالألمانية، وهو اسم مقاطعة في ألمانيا، تشمل اليوم قسماً من المنطقة الواقعة إلى الجنوب الغربي من باڤاريا Bayern، وعاصمتها التاريخية مدينة آوغسبورغ Augsburg. وقد كان الإمبراطور الجرماني فريدريك الثاني ينتمي إلى أسرة شڤابن الحاكمة.

ومع ذلك، وإن كان هذا النظام الملكي وراثياً، فإن النظام الإقطاعي قد سبقه في ذلك. فكانت مملكة القدس دولة إقطاعية تتمثل فيها السيادة أقل في الملك مما هي في هيئة النبلاء المتشكّلة ضمن «محكمة المُقطعين» *Cour des Liges*، أو «المحكمة العليا» *Haute Cour*.

وكان يترتّب على الملك عند تنصيبه، أداء قَسَم أمام المحكمة العليا يُلزمه باحترام الامتيازات والحصانات الإقطاعية. هذا ولم يكن في وسعه تشريع القوانين أو منح الإقطاعيات من تلقاء نفسه دون الحصول على الموافقة المسبقة من المحكمة العليا، وهذا ما نتبيّنه بكل وضوح ضمن مجموعة «دواوين القُدس الاشتراعية»[1] *les Assises*.

وطالما توسّد عرش المملكة شخصيات قوية، كما جرى منذ عام 1100 إلى 1185 م، فقد بقيت كلمة التاج نافذة بالرغم من أنظمة «الدواوين الاشتراعية». ولكن عقب كارثة عام 1187 م (معركة حطّين)، أخذت سلطة الملك تضمحلّ بازدياد. وبعد طرد أعوان الملك الإمبراطور فريدريك الثانـي (عام 1232 م)، بدا وكأن النظام الملكي قد أُلغي، وأضحت «المحكمة العليا» التي تزعّمتها أسرة إيبلان Ibelin (وهم أسياد بيروت وأرسوف ويافا) هي الحاكمة الحقيقية لمملكة القدس اللاتينية.

أما سوريا الفرنجية فلم تعد بعد ذلك سوى جمهورية إقطاعية، تتألف من اتحاد عدة إقطاعات. ومارست أسرة إيبلان فضلاً عن ذلك تأثيراً مفعولاً راجحاً على جمعية رهبان سان أندريه St. André التي تولّت تنظيم مدينة عكّا عام 1232 بشكل مشترك. وطوال فترة حكم جان الأول ديبلان Jean I^er^ d'Ibelin، الملقب بـ «سيّد بيروت العجوز»[2] الذي حكم هذه المدينة من عام 1197 إلى 1236 م؛ ثم في فترة حكم ابنه باليان الثالث Balian III سيّد بيروت من عام 1236 إلى 1247 م أبقى هذا النظام غير المألوف على قدر كافٍ من التماسك، ولكنه من بعد عام 1247 تردّى كما رأينا في مهاوي التجزئة.

---

(1) تُعرف هذه الدواوين في الفرنسية باسم: *les Assises de Jérusalem*، وهي مجموعة من القوانين وأنظمة الحكم الصادرة في مملكة القدس وقبرص اللاتينية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد. راجع حول ذلك: *Grand Larousse Encyclopédique*.

(2) العبارة بالفرنسية: «le vieux sire de Beyrouth».

ولقد وصلتنا نظرية الحقوق والواجبات المتعلقة بكل من التاج والأمراء الإقطاعيين عن طريق «دواوين القدس الاشتراعية». غير أن هذه «الدواوين والأعراف» قد تلاشت منذ كارثة عام 1187 م. ولقد استعيض عنها في القرن الثالث عشر بعدة مواثيق، أشهرها ميثاق فيليپ دى نوڤار[1]، وهو ميثاق في القانون الإقطاعي كتب قبل عام 1253 م. كما ظهر «كتاب جان ديبلان»[2] (كونت يافا) الذي كُتب نحو عام 1253 م، كنسخة مطوّرة عن ميثاق نوڤار. ومما يُذكر أيضاً: «كتاب الملك»[3] و«كتاب مؤتمرات البورجوازيين»[4] (ما بين عامي 1229 - 1244 م).

تبيّن لنا هذه النصوص أربع محاكم قضائية وسياسية هي: «المحكمة العليا» *la Haute Cour*، وهي محكمة النبلاء المذكورة آنفاً التي تضطلع بشتى القضايا المتعلقة بشؤون النبلاء؛ و«محكمة البورجوازيين» *la Cour des Bourgeois*، التي تتألف من 12 محلّفاً أو وجيهاً، وتحكم ما بين الناس الأحرار ذوي الأصول العاميّة؛ و«محكمة الرئيس» *la Cour du Raïs*، المؤلفة من محلّفين من أبناء البلاد الأصليين، والمختصة بالفصل في نزاعات أهالي البلاد؛ وأخيراً «المحكمة الإكليركية» (الكنسية) *la Cour ecclésiastique*. نشير كذلك إلى وجود دار قضائية تجارية هي «محكمة التفويض» *la Cour de la fonde*، ودار قضاء بحرية هي «محكمة السلسلة» *la Cour de la chaîne*.

نظم الدفاع في سوريا الفرنجية
المنظمات العسكرية

كان جيش مملكة القدس يتألف من الجنود الإقطاعيين غير النظاميين، كما كان الحال في فرنسا آنذاك. وكان يتضمن كذلك فرساناً ومرتزقة، الذين كانوا يُنتقون بالأخص من السوريين. ولا ننسى أن نذكر قوى الخيالة الخفيفة المؤلفة من مسيحيي البلاد، المسماة (التُرْكُبْلية) *les Turcoples*.

---

(1) بالفرنسية: le traité de Philippe de Novare .

(2) بالفرنسية: *Le Livre de Jean d'Ibelin* .

(3) بالفرنسية: *Le Livre au roi* .

(4) بالفرنسية: *Le Livre des assises des bourgeois* .

وقد عُزّز النظام الدفاعي للدول الفرنجية بسلسلة متماسكة من القلاع الموزّعة في المناطق الأكثر تهديداً بالخطر. نذكر منها مثلاً في مملكة القدس: إسكندرونة[1] Scandélion، وعثليث[2] Château-Pèlerin، وشقيف أرنون Beaufort، وتبنين le Toron، وهُونين Châteauneuf، وصفد Saphet، وقلعة القرين Montfort، وفي شرقي الأردن قلعة الكرك le Crac de Moab.

أما في كونتيّة طرابلس: فحصن الأكراد[3] le Crac des Chevaliers، وصافيتا Chastel-Blanc. وفي إمارة أنطاكية: حصن المرقب Margat، وقلعة صهيون[4] le Câteau de Saone.

وتنقسم العمارة العسكرية لهذه القلاع إلى أسلوبين اثنين:

الطراز الأول: اتخذه فرسان المشفى (الإسبتارية) les Hospitaliers، ويتألف من قلاع مشيدة بشكل ناتئ[5] على هضاب شديدة الانحدار، ولها سور مزدوج محصّن بأبراج مستديرة، وهذا الطراز يشابه حصون مناطق السِّين la Seine واللّوار la Loire في القرنين الحادي عشر والثانـي عشر. ومن أمثلته: قلعة المرقب وحصن الأكراد.

الطراز الثانـي: اتخذه فرسان الهيكل (الدّواية) les Templiers، وهو مستوحى من الحصون البيزنطية أو العربية، ويتميّز بأسوار (بَدَنات) محصنة بأبراج مضلّعة، وهذه الأسوار تتقدّمها خنادق عميقة. ومن أمثلة هذا الطراز: عثليث وصافيتا.

---

(1) إسكندرونة حصن صليبي يقع إلى الجنوب من صُور عند رأس الناقورة، ذكر الرحالة ابن جبير الأندلسي عام 580 هـ في رحلته (ص 277): حصن الزّاب وقرية اسكندرونة. ولقد جهدت لتحقيق تسميات هذه الحصون والقلاع بالفرنسية مع مقابلاتها بالعربية، وهو ما يسبّب في العادة الكثير من الالتباس عند الترجمة.

(2) عثليث (عتليت) بلدة تقع على بعد 16 كلم جنوبـي حيفا على الساحل الفلسطيني.

(3) تقدّم ذكر حصن الأكراد أنه المعروف في أيامنا بقلعة الحصن، إلى الشرق من طرطوس بين حمص وصافيتا. بناه الصليبيون عام 1142 م، وبقي بيد الإسبتارية طويلاً وعجز عن فتحه الأيوبيون، إلى أن قام بفتحه الظاهر بيبرس عام 670 هـ (1271 م).

(4) هي المعروفة اليوم بقلعة صلاح الدين، قرب بلدة الحفّة شرقي اللاذقية. أما تسميتها الشائعة بقلعة صهيون فلا وجه لها، فما علاقة Saone باسم جبل صهيون في القدس؟

(5) العبارة بالفرنسية: en saillant .

كان الدفاع عن الأرض المقدّسة الغاية التي كرّست من أجلها منظمات الفرسان المترهبنين كل طاقاتها، وقد قامت هذه المنظمات بدور كبير الأهمية في حياة الشرق اللاتيني، من إسبتاريّة وداويّة وفرسان توتونيين[1].

فأما منظمة مشفى القديس يوحنا St. Jean الأورشليمي[2]، وهي منظمة خيريّة تعود إلى عام 1070 م، فقد تمت إعادة تشكيلها بدءاً من الحملة الصليبية الأولى على يد المعلّم جيرار الطوباوي[3] Gérard le bienheureux (حوالي 1100-1120 م). ثم قام خلفه ريمون دى پوي Raymond de Puy بتحويلها إلى منظمة عسكرية.

أما منظمة الهيكل التي كانت عسكرية منذ بدايتها الأولى، فقد تأسست في عام 1118 م على يدي الفارس الشامپانـي هوغ دى پايان Hugues de Payens. وكان فرسان الاسبتارية يتّشحون بمعاطف سود في أيام السلم، وحُمر في أيام الحرب وعليها صلبان بيضاء؛ وأما الداويّة فيلبسون معاطف بيضاً ذوات صلبان حمراء.

أما منظمة الفرسان التوتونيين فقد تأسست عام (1143 م) وأعيد تنظيمها عام (1198 م). ودخلت هذه المنظمات الثلاث في سلك الفروسية chevalerie، وكان على رأس كل منها معلّم أكبر[4] ينتخبه مجلس الرهبان.

واتخذت هذه المنظّمات العسكرية شكل جيش دائم في الشرق اللاتيني، وعهد الحكام إليها بأخطر المناصب وأهمها. وتبعاً لذلك، تسلّم الإسبتارية زمام حصن الأكراد (في عام 1142 م) والمرقب، وتسلّم الداويّة حصن عثليث (في عام 1218 م) وصفد (بعد عام 1240 م) وصافيتا.

---

(1) التوتونيون: هم سكان جرمانيا الشمالية، أما منظمة الفرسان التوتونيين فكانت أصلاً منظمة خيرية ثم تحوّلت في عام 1198 م إلى منظمة عسكرية، واقتصرت حصراً على أفراد الطبقة الأرستقراطية من الألمان.

(2) بالفرنسية: l'Hôpital de Saint-Jean de Jérusalem .

(3) الطوباوي: شخص من الأموات، أقرّت الكنيسة أنه من الأبرار وفي رتبة دون رتبة القديسين.

(4) هذه هي الترجمة الحرفية لعبارة le grand maître التي كانت تطلق على مقدّمي الإسبتارية والداوية، غير أننا في هذا الكتاب آثرنا ترجمتها بعبارة: السيّد الأكبر. وفي كتاب غروسيه الموسّع عن الحروب الصليبية تفاصيل وافية حول هؤلاء المقدّمين.

ومن جرّاء تفوّق القدرات القتالية العالية والشجاعة البطولية لهذه المنظمات الثلاث، نعمت سوريا الفرنجية بفوائد عظيمة، إلا أن عنفوانهم الزائد وتعطّشهم للإثراء (وكانوا يقيمون المصارف، الدّاوية بشكل أساسي)، وكذلك عدم انصياعهم لأحد، مراراً ما عاد بالوبال على الدولة الفرنجية. وفوق ذلك لم يكن التنافس التقليدي الدائم والاشتجار بين الدّاوية والإستبارية بأقل ضرراً وإشاعة للقلاقل.

أنظمة الحكم في إمارة أنطاكية

على الرغم من أن ملك القدس كان مراراً ما يقوم بدور الوصي على الأقليات الفرنجية الأخرى، بقيت إمارة أنطاكية على الدوام في حالة استقلال تام عن المملكة. وكان لهذه الإمارة مجالسها المنفردة ولها بلاط بارونات وبلاط بورجوازيين[1].

ولما كانت إمارة أنطاكية قد تأسست على أيدي أسرة حاكمة نورماندية ، فقد احتفظت بالطابع النورماندي في مؤسسات حكمها. وعلى عكس ما كان سائداً في الدول الفرنجية الأخرى في المشرق، بل بشكل يقارب الملوك النورمانديين في انكلترة وإيطالية الجنوبية، تجنّب أمراء أنطاكية التنازل عن مساحات شاسعة من أملاكهم لصالح المُقطَعين الكبار، الأمر الذي أبقى لهم الاحتفاظ بمركزية نسبية أكبر بكثير مما لدى ملوك القدس أو كونتات طرابلس.

الاستيطان الفرنجي والسكان المحلّيون

لم تكن سوريا الفرنجية على وجه الإطلاق في نظر الفرنجة مستوطنة للإعمار، فبقيت الهجرة الفرنجية مقتصرة على الطبقات الإقطاعية، أي على طبقة الفرسان والطبقة البورجوازية المدنية، وأما سكان الأرياف فما برحوا يتألفون من الأهالي السوريين المسيحيين أو المسلمين.

---

(1) بورجوازي bourgeois بالمعنى اللغوي المستخدم هنا للكلمة تعني شخصاً من سكان المدن من الطبقة المتوسطة، وهي التي تعمل عادة بالتجارة.

وإن كانت سوريا الفرنجية كناية عن مستعمرة طبقات، فالأمر يتبدّى بالطبقات التي رسخت بشكل نهائي وتكيّفت مع الأوساط السائدة، دون أن تكون راغبة في العودة. يروي المؤرخ فوشيه دى شارتر[1] Foucher de Chartres عام 1125 م عند كلامه على الفرسان ورجال الإكليروس والبورجوازيين المقيمين في الأرض المقدّسة: «إن الرجل الذي كان إيطالياً أو فرنسياً بالأمس أضحى اليوم جليلياً أو فلسطينياً، وتحوّل ابن رَنْس Reims أو شارتر Chartres إلى مواطن سوري أو أنطاكي. إننا اليوم قد نسينا مواطننا الأصلية، فلماذا نعود إلى الغرب طالما أن الشرق يفي باحتياجاتنا؟».

ومع ذلك، كان هناك العديد من مولّدي الزواج بين رجال الفرنجة والنساء السّوريّات، وقد كان يلقّب هؤلاء بـ «الأمهار» *poulains les*، ثم أصبح هذا المصطلح شاملاً لكل الفرنجة المولّدين (créoles).

كان المسيحيون السوريون يتبعون ثلاث كنائس: اليعقوبية (العقيدة الوحدانية، على المذهب السّرياني)، والنسطورية (عقيدة حلول شخصين في المسيح، على المذهب السّرياني)، وكنيسة الروم الأرثوذوكس. وكان اليعاقبة هم الغالبين في مملكة القدس وكونتيّة طرابلس، وكذلك في بضعة مقاطعات حول أنطاكية. وقد ترك لنا اثنان من أحبار هؤلاء اليعاقبة مؤلفات تاريخية هامة، هما ميخائيل السّرياني[2] (كان بطريركاً ما بين عامي 1166-1199 م) وأبو الفرج بارهبراوُس[3] Bar Hebraeus (1226-1286 م).

كذلك أيضاً كانت هناك موجودية لموارنة جبل لبنان، الذين التحقوا في عام 1181 م بالكنيسة الرومانية. وكان للسوريين ذوي المذهب اليوناني (الرّوم) الأغلبية في المدن، حتى أنطاكية نفسها. وكان كل هؤلاء السوريين المسيحيين يعاملون على قدم المساواة الحقوقية مع الطبقة البورجوازية الفرنجية، وكانوا

(1) يرد اسم هذا المؤرخ الفرنسي في المصادر العربية المترجمة: فولتشر أوف تشارترز، وشارتر كما يتضح أعلاه اسم مقاطعة على نهر اللوار، تبعد عن باريس 96 كم إلى جنوبها الغربي.

(2) من غرائب الترجمة أن هذا المؤرخ الشهير قد ترجم بعضهم اسمه إلى العربية عن الفرنسية Michel le syrien بعبارة: ميشيل السوري، غير عارفين أن كلمة les syriens حتى القرن السابع عشر كانت تعني السريان ثم استعيض عنها في الفرنسية بـ les syriaques.

(3) هو غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري، صاحب كتاب «تاريخ مختصر الدول».

محكومين حسب أعرافهم الخاصة من قبل حاكمهم الخاص، الذي يُسمى «الرئيس» *le raïs*.

وكان الأرمن بوجه الخصوص كثيري العدد في كونتيّة الرُّها، حيث - كما رأينا - شاركوا بشكل محدود في أمور السلطة الفرنجية، وحيث كان البارونات والفرسان الفرنجة يتزوّجون في الغالب من نساءٍ أرمنيات. ومن جهة أخرى، كان الزواج بالأرمنيات عُرفاً متّبعاً لدى كل السلالات الحاكمة الفرنجية، ففي القدس مثلاً، سرعان ما أضحت سلالة بودوان أسرة فرنجية - أرمنية.

أما فيما يتعلق بالعنصر الإسلامي، فقد بقي بطبيعة الحال مستفرداً بنفسه. ومع ذلك، فبالرغم من الهوّة الدينية العميقة وحالة الحرب شبه الدائمة بين الطرفين، انطوت حياة الدول الصليبية على حد أدنى من التسامح المتبادل. وترينا السيرة الذاتية لحياة الأمير أسامة[1]، في السنين الممتدة بين 1137-1143 م، بخصوص التحالف المنعقد بين الملك فولك Foulque وحاكم دمشق بالوصاية، كيف نشأ بين البارونات الفرنجة والأمراء المسلمين نوع من الصلات تتسم بروح الفروسية والشهامة.

وكذلك يروي الرّحالة العربـي ابن جُبَير عام 1183 م، أن القرويين المسلمين كانوا يعيشون في حالة من الرضا والسّعة تحت الحكم الفرنجي[2]. وربما كان يصل هذا التسامح إلى حدّ اقتسام بعض المباني المشيّدة بين الديانتين، فترى نصفه الواحد كنيسة ونصفه الآخر مسجداً.

---

(1) هو الفارس والأديب الشاعر أسامة بن منقذ الكناني، صاحب كتاب «الاعتبار» الذائع الصيت، الذي يعتبر أحد أهم وأمتع المصادر العربية عن فترة الحروب الصليبية. صدرت منه طبعة قديمة عام 1930 عن منشورات جامعة پرنستون في أميركا، بعناية فيليپ حتي. غير أنه يستحق أن ينشر من جديد بطبعة وافية.

(2) كتب ابن جبير في رحلته المشهورة (ص 260): «ومن أعجب ما يُحدَّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربّما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنّصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم. واختلافُ القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكّة كذلك وتُجّار النصارى أيضاً لا يُمْنَع أحد منهم ولا يُعتَرَض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدّونها في بلادهم، وهي الأمَنَة على غاية. وتُجّار النصارى أيضاً يؤدُّون في بلاد المسلمين على سِلَعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدّنيا لمن غَلَب».

لم يكن الفرنجة بقادرين على بسط سيطرتهم على الموانئ السّوريّة الفلسطينية إلا بفضل معونة الجمهوريات الساحلية الإيطالية، فقد ساعد الجنويون في انتزاع عكّا من المسلمين (عام 1104 م)، وكذلك جبيل (1104 م) وطرابلس (1109 م)، وأسهم الجنويون والپيزيون في الاستيلاء على بيروت (1110 م)، أما البنادقة ففي الاستيلاء على صيدا (1110 م) وصور (1124 م).

وكمكافأة لهم على ذلك، حصل هؤلاء في المدن المذكورة على امتيازات تجارية كبيرة. وفيما بعد، أضحى لكل واحدةٍ من هؤلاء الجمهوريات الساحلية في جميع المرافئ الكبرى حيّها التجاري الخاص مع فندق[1] *fondaco* (عنبر للبضائع مع دكاكين للبيع) ، كما تمتّعت بسلطة قضائية قنصلية وحصانات إدارية وضرائبية، مما أدى إلى جعل هذه الأحياء بلدات حقيقية ذات حكم ذاتي. وكان الحي على هذا الشكل مداراً بيد قائم بالأعمال قادم من الوطن الأم، يحمل لقب ڤيكونت vicomte (نائب الكونت)، أو لقب باييل baïle[2] أو قنصل.

وللأسف، حملت هذه المستوطنات الإيطالية - كما رأينا - معها إلى سوريا جميع المماحكات المعهودة المستعرة فيها، مابين الپيزيين والجنويين من جهة، وما بين الجنويين والبنادقة من جهة أخرى. وقد مرّ بنا آنفاً ذكر أشدّ هذه الصراعات دموية، وهي حرب سان سابا (انظر الفصل الثانـي- فقرة: التفرقة الفرنجية).

قامت هذه المنافسات على أسس تجارية، وكانت موانئ سوريا الفرنجية قد اكتسبت لدى نجاح الحملة الصليبية الأولى، أهمية اقتصادية من الطراز الأول. ومن هذه الموانئ باتت أوروپا تتزوّد بالمنتجات الآسيوية، وفي البداية اقتصر الأمر على المنتجات المحليّة: ففي الساحل اللبنانـي والصوري كانت زراعة قصب السكّر؛ وأما صُور وطرابلس وأنطاكية فقد كانت تصنع الحرير المقصّب (البروكار) والأقمشة الحريرية المشهورة المعروفة باسم الديباج *cendals* و البروكار سبع ملوك *samits*، إلخ.

---

(1) وهذا هو مصدر تسمية الڤينيسيين في المشرق بالبنادقة، حتى صار اسم مدينة ڤينيسيا Venezia في العربية: «البندقيّة». كما دخلت العبارة العربيّة الفصحى (فندق) بمعنى النُزل.

(2) البايل لفظة فرنسية ذات أصل إيطالي: Balì أو Balivo، مصطلح تاريخي قديم يعني: المحافظ.

وأما المرافئ السّوريّة، بوجه خاص، فقد أضحت الأسواق التي زخرت بكل المنتجات المستوردة: الأنسجة القطنية والموسلين من بلاد الرافدين (العراق) أو إيران، والسجّاد من آسيا الوسطى، والتوابل والأحجار الكريمة من الهند، والحرائر من الشرق الأقصى، وشتى البضائع القادمة عن طريق تبريز أو البصرة أو عدن، والواصلة إلى طرابلس أو صُور أو عكّا.

الفنون والآداب في سوريا الفرنجية

يلاحظ الدارس أن فن العمارة الرومانية في سوريا الفرنجية في القرن الثانـي عشر، يرتبط إلى حد كبير منه بعمارة المدارس في جنوب فرنسا (أي في منطقة الميدي le midi)، وذلك وفق الطراز اللانغدوقي[1] والپروڤنسالي، بالإضافة غالباً إلى مؤثرات بورغينيّة. أما فيما يتعلق بكنيسة القبر المقدس فهي تمثّل طابعاً مركباً، وذلك لأن الصرح البيزنطي القديم قد تم تحويله إلى كنيسة رومانية «وفق ترتيب ريناني، ولكن على طراز هو بالأحرى فرنسي». وتم تدشين البازيليكا الجديدة في 15 يوليو عام 1149 م. ويذكرنا مدخل الواجهة الجنوبية، نوعاً ما، بنمط المدارس الشائع في پواتو[2] Poitou.

ظهر الطراز القوطي بعد سقوط القدس (1187 م) في فترة عكّا، فكنيسة السيدة في طرطوس مثلاً، هي كنيسة رومانية من القرن الثانـي عشر، ولكن تيجان الأعمدة وأقفال الأقباء فيها، والتي تعود إلى الترميم الجاري في القرن الثالث عشر فهي قوطية، وفيها بعض التفاصيل التي تذكرنا بعمارة رَنْس Reims. أما الأدب الفرنجي السوري فقد وصلنا خاصة من مؤرّخي الحوادث، ومن بين المؤرخين المقيمين في سوريا والذين كانوا يكتبون باللاتينية نذكر فوشيه دى شارتر Foucher de Chartres، الذي ترك لنا تاريخاً حيّاً هاماً للأحداث الواقعة بين عامي 1100 و1127 م[3]، وغوتييه دى شانسُلييه Gautier de Chancelier، الذي روى لنا مآثر روجيه Roger أمير أنطاكية وموته البطولي (بين 1115-1122 م).

---

(1) نسبة إلى Languedoc، مقاطعة من فرنسا القديمة تشمل جزءاً من كونتية تولوز.

(2) پواتو Poitou: مقاطعة في غرب فرنسا.

(3) عنوانه: Foucher de Chartres: *Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium.*
نشره هاغنماير H. Hagenmeyer في هايدلبرغ بألمانيا عام 1913.

وأخيراً، نذكر غيّوم الصُّوري[1] Guillaume de Tyr العالم الحجّة في اللغة اللاتينية، والمستشرق البارع والسياسي المحنّك، الذي ندين له بتاريخ هو غاية في التقصّي ويتسم بطابع علمي، حول سوريا الفرنجية منذ الحملة الصليبية الأولى حتى عام 1183 م.

ومن بين المؤرخين الذين كتبوا نصوصهم باللغة الفرنسية، نذكر المذيّلين على تاريخ غيّوم الصوري (أي التاريخ الحولي المنسوب لإرنو Ernoul، ولبرنار الخازن Bernard le Trésorier، الذي يتضمن تاريخ سوريا الفرنجية حتى عام 1231 م). وبشكل خاص نذكر فيليپ دى نوڤار Philippe de Novare، الذي ترك لنا سرداً مفعماً بالحميّة عن الحروب القائمة بين الإمبراطوريّين وبين أعوان آل إيبلان Ibelin خلال الأعوام 1228–1243 م[2].

ومن بين القصائد المؤلفة عن الحملة الصليبية الأولى، يتساءل المرء إن كانت «أنشودة أنطاكية» *la Chanson d'Antioche* قد كانت وُضعت في سوريا نفسها أم في نواحي منطقة الموز[3] Meuse؟ وأما الأنشودة المعروفة باسم «أنشودة الأعجاف» *la Chanson des chétifs*، التي يرتبط موضوعها كذلك بحصار أنطاكية عام 1098 م فقد أُلِّفت قطعاً في سوريا، حوالي عام 1140 م. وأخيراً، فهناك مقاطع شعرية متناهية الروعة لدى المؤرخ فيليپ دى نوڤار، المذكور سابقاً.

إن المجتمع الفرنجي الذي وصفه لنا هؤلاء المؤرخين وهؤلاء الشعراء يبدو لنا بالأخص في القرن الثالث عشر، مزدهراً ومتحضراً لأبعد الحدود. ويتجسّد مثال الفروسية بهذا المجتمع في شخصية جان ديبلان Jean d'Ibelin «سيّد بيروت العجوز»[4] (توفي 1236 م)، فبعزّة نفسه واعتداده بالشرف والحق وبحكمته الفطرية الرفيعة، وعندما يقتضي الأمر سخريته المرهفة التي تلقى الاستحسان

(1) كان غيّوم أسقفاً لصُور، ولد في سوريا الفرنجية حوالي عام 1130 م وتوفي حوالي عام 1186 م. يصرّ كل مؤرخينا على كتابة اسمه: وليام الصوري، وكأنه كان من بني الإنكليز، وهو فرنسي قحّ. أما كتابه الشهير باللاتينية: *Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum*، ومعناه: «تاريخ المآثر المنجزة فيما وراء البحار»، فيصرّون على جعله بالإنكليزية بغير وجه حق:
A history of Deeds Done Beyond the Sea.

(2) عنوانه بالفرنسية: *Gestes des Chiprois* .

(3) الموز: منطقة على نهر اللّورين شمال شرق فرنسا.

(4) بالفرنسية: le vieux sire de Beyrouth .

لدينا، من بين هذه النخبة المتأدّبة التي تغنّى بها لديه فيليپ دى نوڤار، يمثّل «سيّد بيروت العجوز» طراز الفارس الكامل، كذلك الطراز الذي تمثّلته فرنسا في شخصية القديس لويس.

الإنجاز الحضاري الفرنجي في سوريا

بموجب ما تقدم، شهدت سوريا الفرنجية خلال المئة والثلاثة وتسعين عاماً التي امتدت فيها (1098–1291 م) حضارة «لاتينية» باهرة ذات صبغة فرنسية بوجه أخصّ. لقد أدّى تقدّم أنظمة الحكم والفنون والآداب إلى إقامة حياة نشطة تخصّنا مظاهرها بشكل مضاعف، سواء كجزء متمّم لعالمنا الغربـي القروسطي[1] أو كحياة مقتبسة في الوسط الشرقي.

لقد كانت سوريا الفرنجية في الواقع «مستوطنة» نمت فيها دولة ذات طابع خاص، بالرغم من السيل غير المنقطع للوافدين الجدد من الصليبيين ومن الحجّاج، هي دولة ذات طابع «كريولي»[2] هجين؛ والتنافر الذي ظهر واضحاً بدءاً من الحملة الصليبية الثانـية بين الصليبيين وبين «الأمهار» يؤكد هذه المفارقة السريعة. لقد توقف نموّ هذه الدولة على الفور بكارثة عام 1291 م، ولكننا نرى في تاريخ مملكة آل لوزينيان في جزيرة قبرص - في بعض النواحي - حتى أواخر القرن الخامس عشر التتمّة النهائية لهذا النمو.

* * *

(1) القروسـطي: عبارة عُرّبت عن الفرنسية médiéval (المشتقة من Moyen Age)، وتعني ما هو منسوب إلى القرون الوسطى.

(2) كريولي نسبة إلى الفرنسية créole: لقب يطلق على الأشخاص الفرنسيين من العرق الأبيض المولودين في إحدى المستعمرات الفرنسية، وبخاصة في جزر الأنتيل وغيّانا (تكتب عادة بالغلط غويّانا).

الفصل الرابع

مملكة قبرص
تحت حكم آل لوزينيان

تاريخ قبرص في القرن الثالث عشر

كانت جزيرة قبرص Chypre كما رأينا (الفقرة 15 من الفصل الثاني) قد انتُزعت من أيدي البيزنطيين، اعتباراً من الحملة الصليبية الثالثة، من قبل ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد (بانتصار ريتشارد على البيزنطيين في تريميتوسيا Trémithoussia في 21 مايو 1191 م). وفي مايو من عام 1192 م، تنازل ريتشارد عن الجزيرة لملك القدس السابق غي دى لوزينيان، وأنزل كي في الجزيرة عدداً كبيراً من الفرنجة المطرودين من الأراضي المقدّسة، وهكذا نرى أن الشرق اللاتيني الذي ألقى به صلاح الدين في البحر قد قام ثانية هناك في وسط الأمواج.

خَلَف غي في حكم جزيرة قبرص أخوه أموري دى لوزينيان Amaury de Lusignan (1194-1205 م)، وكان أموري بفضل ما تميّز به من سياسة حازمة وحاذقة المؤسس الحقيقي للدولة التي قامت في الجزيرة. ثم في عام 1195 م حصل من الإمبراطور هنري السادس على لقب ملك قبرص، وفي خريف عام 1197 م أتى المستشار الإمبراطوري كونراد فون هيلدِسْهايم Konrad von Hildesheim وتوّجه في نيقوسيّا Nicosia عاصمة الجزيرة.

ثم بوفاة أموري (أبريل 1205 م) انتقل تاج قبرص إلى ولده هوغ الأول Hugues I^er الذي لم تمهله الأقدار للقيام بدور فعّال لأنه ولي العرش في العاشرة، وتوفي في الثالثة والعشرين (عام 1218 م). وأعقب هوغ هو الآخر طفلاً قاصراً صار فيما بعد هنري الأول الجسيم Henri I^er le Gros (1218-1253 م). أما الوصاية على عرش هذا الأخير فقد قام بها جان ديبلان سيّد بيروت.

ثم في عام 1228 م عندما كان الإمبراطور فريدريك الثانـي متجهاً إلى الأرض المقدّسة[1]، توقف بقبرص (21 يوليو 1228 م). وفي غضون مشاحنات عاصفة، قام فريدريك بتجريد جان ديبلان من الوصاية التي اضطلع بها من تلقاء نفسه دون إذن الإمبراطور (انظر الفقرة 19 من الفصل الثانـي). ولدى استعادة الإمبراطور إيطاليا عهد بحكم قبرص إلى بارونات من أتباعه، لكن جان ديبلان استطاع على رأس المعادين للإمبراطورية (ناشراً بذلك صراع أنصار الإمبراطور وأنصار البابا إلى قبرص) أن يهزمهم بالقرب من نيقوسيّا (14 يوليو 1229 م)، وأن يجبرهم على تسليم معقلهم الأخير، وهو حصن ديودامور Dieud'amour (منتصف مايو 1230 م).

وكما رأينا من قبل (الفقرة 19 من الفصل الثانـي)، أرسل فريدريك الثانـي إلى المشرق، عقب ذلك، حملة عسكرية يرأسها الماريشال ريكاردو فيلانجيري Riccardo Filangieri، الذي نزل في مايو 1232 م بقبرص. ورأينا أيضاً كيف أن جان ديبلان استطاع، على رأس طبقة نباء قبرص والأرض المقدّسة، أن يحرز على فيلانجييري نصراً حاسماً في أغريدي Agridi (15 يونيو 1232 م). وأما آخر القلاع التي احتلها الإمبراطوريون في قبرص وهي سيرينا Cérines فقد سقطت في أبريل من عام 1233 م.

بعد وفاة هنري الأول (18 يناير 1253 م)، والحكم الاسمي لولده القاصر هوغ الثانـي (1253–1267 م)، انتقل تاج قبرص إلى أمير من عائلة حكّام أنطاكية ينتمي إلى آل لوزينيان من طرف أمه، هو الملك هوغ الثالث.

كان هوغ الثالث (الذي حكم بين 1267–1284 م) حاكماً متّقد الذكاء نافذ البصيرة، ولكنه كان مقيّد اليدين بسبب انعدام تبعيّة الإقطاعيين له. ورأينا سابقاً كيف أنه لما استُدعي إلى عرش «مملكة القدس» ، أي بالأحرى عكّا (1268 م)، حاول دون جدوى إعادة الانضباط إلى صفوف البارونات والعوام في هذه المدينة (انظر الفقرة 25 من الفصل الثانـي). حتى أن طبقة الفرسان القبارصة نفسها، رفضت خوفاً على امتيازاتها أن تتبع هوغ إلى سوريا، فيما خلا بعض الحملات العسكرية القصيرة.

---

(1) راجع ما تقدّم أعلاه، ص 73.

أما الملك هنري الثانـي (1285-1324 م) وهو ابن هوغ الثالث، فكان رجلاً بائساً تنتابه الأمراض وتعوده نوبات الصَّرع وتنقصه الرجولة. ولقد رأينا (الفقرة 25 من الفصل الثانـي) كيف أنه لم يستطع في عام 1291 م الوقوف في وجه الهجوم المملوكي، وإنقاذ مدينة عكّا أو باقي المعاقل الفرنجية في الأرض المقدّسة.

ومن جرّاء هذه الكارثة التي أفقدته اعتباره، قام أخوه أموري بتجريده من سلطاته واعتقاله، يسانده في ذلك قسم من طبقة النبلاء القبرصية، وقام فيما بعد (فبراير 1310 م) بنفيه إلى صقلية. ولكن بعد برهة يسيرة (5 يونيو 1310 م) تم اغتيال أموري على أيدي الموالين لنظام الحكم السابق، وقام زعيمهم آغ دى بيتسان Ague de Betsan بإعادة تنصيب الملك هنري الثانـي (سبتمبر 1310 م). أما عائلة إيبلان التي انضمت إلى صفوف المعادين لهنري فقد نالها عقاب صارم، وكانت تلك ضربة قاصمة في صميم الإقطاعية لصالح النظام الملكي.

الحملة الصليبية على قبرص
هوغ الرابع وپيير الأول

تمكن الملك هوغ[1] الرابع Hugues IV (1324-1359 م)، وهو ابن أخ هنري الثانـي، من إعادة تأسيس السلطة الملكية. وفي عام 1343 م، أطلق دعوة «الاتحاد المقدّس»، واستطاع بمعونة البابا والبندقية وفرسان رودس Rhodes، انتزاع إزمير Smyrne من أتراك آسيا الصغرى (28 أكتوبر 1344 م) - (انظر الفقرة 4 من الفصل الثامن).

أما پيير الأول (1359-1369 م) ابن هوغ الرابع، فقد كان فارساً مغامراً حسب أنموذج الفروسية الرفيعة لملوك ڤالوا[2]. احتل في كيليكيا ميناء كوريكوس Korikos، حيث قام آخر المدافعين الأرمن عنه تحت وطأة هجوم الأتراك بتسليم أنفسهم إليه (15 يناير 1361 م)، ثم انتزع من بعض الأتراك الآخرين (من إمارة تيكة Téké) ميناء أضاليا Sattalie على ساحل پامفيليا (24 أغسطس 1361 م).

---

(1) سبق أن ذكرنا أن صوابه (أوغ)، لأن حرف H لا يلفظ في الفرنسية.
(2) ملوك ڤالوا les Valois هم فرع من أسرة آل كاپيه Capet الملكية الفرنسية، حكموا فرنسا من عام 1328 إلى 1589 م.

ولما عقد العزم على مهاجمة المماليك في مصر، مضى يلتمس النجدات في إيطاليا وفرنسا وفي الإمبراطورية المقدّسة (أكتوبر 1362 م). وفي 10 أكتوبر 1365 م، استولى فجأة على ثغر الإسكندرية، ولكنه لم يتمكن من الاحتفاظ بها واضطر على الفور إلى النزول عن هذا الغزو. ولقي كل من البنادقة والجنويين، الذين أضرّت هذه الحملة الصليبية غير الموفقة بمصالحهم التجارية في مصر، مشقّة بالغة في استعادة امتيازاتهم التجارية.

ولقد قام پيير الأول بتنفيذ غارات أخرى، على كره منه في ذلك، على الشاطئ السوري، تجاه طرابلس وطرطوس (عام 1367 م)، ثم عاود دونما طائل يستثير في أوروپا الدعوة إلى حملة صليبية جديدة.

ولما رجع إلى قبرص دون الحصول على أية معونة ما (1368 م)، وجد پيير الأوضاع هناك لا تطاق: فمن جهة غيرة زوجته الفظيعة إليونور داراغون Eléonore d'Aragon وتهتّكها الأخلاقي، ومن جهة أخرى حنق طبقة النبلاء عليه. وإذ ضاق ذرعاً بالمصائب المتوالية عليه، فقد بادر إلى مواجهة البارونات بتدابير قاسية. فما كان من هؤلاء البارونات، بشيء من التواطئ مع أخيه جان، إلا أن بادروا إلى اغتياله بشكل مفجع (17–18 يناير 1369 م). وقام القتلة بتنصيب ابن ضحيتهم ملكاً جديداً، وهو الطفل پيير الثانـي Pierre II.

السيطرة الجنوية على قبرص والغزو المملوكي لها

استهلّت فترة حكم پيير الثانـي (1369–1382 م) بكارثة، ففي يوم تتويجه بالذات (12 أكتوبر 1372 م)، نشب في فاماغوستا، المرفأ الرئيسي في الجزيرة، شجار بين السكان البنادقة والسكان الجنويين. ولدى شعور الجنويين بأنهم قد كُسرت شوكتهم، قاموا بإرسال عمارة بحرية وعلى متنها قوة إنـزال استولت على فاماغوستا (أكتوبر 1373 م).

أما پيير الثانـي الذي وقع بين أيديهم، فقد أُجبر على القبول باتفاقية باهظة الثمن تقضي بإبقاء المرفأ القبرصي الكبير تحت سيطرة جمهورية جنوة. وعبثاً حاول پيير اجتلاب حلفاء له ضد الجنويين، فتزوج ابنة دوق ميلانو، ڤالنتينا ڤيسكونتي Valentina Visconti، بيد أنه لم يوفّق البتة في استعادة فاماغوستا.

خلف بيير الثاني في الحكم عمّه جاك الأول Jacques Ier، الذي كان آنذاك محتجزاً في جنوة كرهينة. وتميّزت فترة حكم جاك (1385-1398 م) بإرهاق الشعب بالضرائب لدفع الجزية المترتّبة للجنويين. وفوق ذلك، انفرد الجنويون باحتكار التجارة القبرصية، وهذا الأمر، لمّا دفع بالتجار البنادقة إلى الهجرة، قد أدّى إلى افقار الجزيرة بشكل خطير.

أما ابن جاك الأول وخليفته في الحكم، وهو الملك جانوس Janus (1398-1432 م)، فلم يفلح هو الآخر بالتملّص من السيطرة الجنوية.

ثم ما لبثت أن ظهرت في الأفق محن أخرى: ففي عام 1426 م جرّد سلطان مصر[1] (قاعدة الدولة المملوكية) ضد قبرص حملة عسكرية اشتبكت بالجيش القبرصي وسحقته في موقعة خيروكيتيا Khiérokitia (في 5 يوليو 1426 م)، وأوقعت بالملك جانوس أسيراً، وقبل أن تُبحر هذه الحملة من الأراضي القبرصية قامت باجتياح العاصمة نيقوسيّا (10-12 يوليو).

عقب هذه الكارثة، اندلعت ثورة شعبية قام بها الفلاحون اليونان الحاقدون على السادة وعلى الإكليروس اللاتين. ولم يتيسر إخماد هذه الفتنة حتى العام القادم (مايو 1427 م). أما فيما يتعلق بالملك جانوس الذي اقتيد أسيراً إلى مصر، فقد توجّب عليه لقاء استعادة حريته الاعتراف بنفسه تابعاً للسلطنة المملوكية في القاهرة (1427 م).

تزوّج ملك قبرص جان الثاني Jean II (1432-1458 م)، وهو ابن جانوس وخليفته، من الأميرة البيزنطية إلينا پاليولوغ Hélène Paléologue، التي عمدت إلى مُحاباة المذهب الأرثوذكسي اليوناني، وبالأحرى العنصر اليوناني عموماً، وذلك بفضل النفوذ الذي استطاعت اكتسابه لدى الحكومة. وعند هذه النقطة بالذات، يبدأ عهد اليقظة الهيلينيّة القبرصيّة.

***

---

(1) هو السلطان المملوكي الأشرف برسباي، فتحت قبرص بأمر منه ومثل الملك جانوس بين يديه أسيراً (829 هـ = 1427 م). انظر: النّجوم الزّاهرة لابن تَغري بَردي، 14: 292؛ الضوء اللامع للسخاوي، 3: 8؛ وبدائع الزهور لابن إياس.

جاك الثانـي ابن السِّفاح

لما مات جان الثانـي (26 يوليو 1458 م)، خلّف عرش قبرص لابنته شارلوت Charlotte، زوجة لويس دى ساڤوا Louis de Savoie. وكان لجان كذلك ابن غير شرعي، وهو الذي صار فيما بعد الملك جاك الثانـي، المعروف بابن السِّفاح Jacques II le Bâtard، والذي كان قبل ذلك قد عُيّن أسقفاً لنيقوسيّا.

لم يتورّع هذا الحبر النهضوي، الذي اقترف مثل تشيزارِه بورجا César Borgia العديد من الجرائم السياسية لصالحه الشخصي من أجل الاستئثار بالعرش، عن التوجّه إلى مصر لطلب معونة السلطان الأشرف. وبصحبة المماليك الذين أمدّه بهم السلطان، نزل جاك في قبرص وأقصى شارلوت عن الحكم واغتصب العرش (1460 م).

لم تفتقر حكومة جاك الثانـي (1460–1473 م) إلى الدّهاء، ولمّا قام البارونات الفرنسيون في الجزيرة بمقاطعته، أحاط نفسه ببطانة من شُذّاذ الآفاق الصقلّيين والأراغونيين. وبعد أن نجح في انتزاع حصن سيرينا Cérines من أواخر قوى الشرعيين (سبتمبر – أكتوبر من عام 1463 م)، قام باسترجاع فاماغوستا من الجنويين (6 يناير 1464 م)، وقد أدّى هذا النصر الباهر إلى انضواء حتى الشرعيين أنفسهم تحت سيطرته.

وعرف جاك الثانـي أيضاً كيف يستعين بالسكان الأصليين من اليونان، وأخيراً، بادر إلى التخلّص من الحامية المملوكية التي كان يدين لها بعرشه (عام 1464 م)، إثر مجزرة تم تنفيذها بغاية الحذق، بحيث لم تؤدِّ إلى تكدير علاقته مع سلطان مصر[1].

رغب جاك الثانـي بالحصول على حلف البنادقة، فتزوّج من كاترينا كورنارو Caterina Cornaro البندقية. وبعد وفاة جاك (6 يوليو 1473 م)، ثم وفاة ابنه، الطفل جاك الثالث (1474 م)، انفردت الملكة كاترينا كورنارو بالحكم (1474–1489 م). وعن طريق هذه الملكة ترسّخ النفوذ البندقي في قبرص دون أي منازع. ثم في عام 1489 م، أجبر البنادقة كاترينا على التنحّي عن الحكم لصالح جمهورية البندقية.

---

(1) وكان السلطان المملوكي آنذاك الظاهر خُشقدم.

قُدِّر لقبرص أن تبقى تحت الملكية البُندقية من عام 1489 م إلى الفتح العثماني الذي تم سنة 1570-1571 م، ففي مستهلّ شهر أغسطس من عام 1571 م استخلص الأتراك آخر معقل في الجزيرة، وهو فاماغوستا[1]، وعُقب ذلك أُلقي القبض على القائد الذي دافع عنها ببطولة، وهو براغادينو[2] Bragadino، ونُكِّل به بمنتهى الوحشية.

طبائع الحكم الملكي في قبرص

كانت لمملكة قبرص المدارة وفق «دواوين القدس» *les Assises de Jérusalem* ، من حيث المبدأ نفس أنظمة الحكم المعروفة في الأرض المقدّسة. فقد كان دفّة الحكم تعود في نهاية المطاف إلى هيئة الإقطاعيين المؤتلفة في نيقوسيّا ضمن المحكمة العليا *Haute Cour* أو محكمة المُقطعين *Cour des Liges*.

إلا أنه على الصعيد العملي، غدا النظام الملكي في قبرص أقوى بكثير مما هو عليه في عكّا. ففي قبرص، على نقيض ما هو جار في الأرض المقدّسة، كانت الملكية سابقة للإقطاعية، طالما أن كي وأموري دى لوزينيان كانا هما من قاما، بمحض مشيئتها الشخصية، بتوزيع الإقطاعات. وكذلك، على نقيض الأرض المقدّسة أيضاً، لم يكن هناك في قبرص إقطاعات لها من الحجم بحيث تقوى على تجاوز السلطة الملكية.

وفضلاً عن ذلك، بينما كان النظام الملكي في القدس يتعرض، من خلال تملّك النساء، بشكل دائم إلى تغيّر السلالة الحاكمة، فإنه في قبرص كان حُكراً لآل لوزينيان بشكل مباشر، ثم (بدءاً من عام 1276 م) لآل حكّام أنطاكية - لوزينيان، الذين حكموا دون انقطاع في نيقوسيّا.

---

(1) بقي اسم «فاماغوستا» في أذهان الإنكشارية البرلية من الدمشقيين الذين شاركوا في وقائعها: الماغوصة، وكانت معارك هائلة سُفك فيها من الدماء الشيء الكثير. وإلى اليوم مازالت بدمشق كناية شعبية قديمة تقول: هيك رميتنا بهالماغوصة؟ رغم أن أحداً لا يدري ما الماغوصة، ويظنونها الورطة أو «الطابوسه». وفي التركية ما زال اسم المدينة إلى اليوم: Gazimagusa غازي ماغوصة. وهذه من الكلمات القديمة النادرة بدمشق. ومثلها قول الناس إلى اليوم: زرع بعل.

(2) كتب غروسيه الاسم بالصيغة الفرنسية Bragadin براغادان، والصواب ما أثبتناه أعلاه على اعتبار أن الرّجل إيطالي الأصل.

في الأرض المقدّسة أضحى النظام الملكي، الذي كان سابقاً يتمتّع بقدر لا بأس به من القوّة في عهد مملكة القدس (1100-1187 م)، في طريقه إلى الضعف والانحدار المتدارك في عهد مملكة عكّا (1192-1291 م). أما في قبرص فعلى العكس، كان النظام الملكي المقبوض على زمامه نظرياً بيد طبقة النبلاء تبعاً لقوانين «الدواوين»، يتخلص باستمرار من ربقة النبلاء في القرن الرابع عشر، كما رأينا سابقاً في مثالي هوغ الرابع وپيير الأول. لقد حكم پيير المذكور كملك مطلق السلطة، ورغم أنه غُلب في الخاتمة، فإن النظام الملكي من بعده لم تتباطئ مسيرته المتصاعدة حتى عهد جاك الثانـي ابن السِّفاح، المحرِّك الحقيقي للنهضة الإيطالية وفق الفلسفة المكياڤيليّة[1].

الطبقات الاجتماعية، غنى مملكة قبرص

إن طبقة النبلاء القبرصية التي كانت سَراة عائلاتها تحمل ألقاباً مأخوذة عن ألقاب أجدادها في الأرض المقدّسة بقيت شديدة الولاء لمنبتها الأصلي الفرنسي. وبقيت الفرنسية اللغة الدارجة في بلاط آل لوزينيان وفي الأوساط الأرستوقراطية. ولاحقاً في عام 1507 م، نجد أحد الرّحالين يقول عن قبرص: «كل من في هذا البلد، وبخاصة النبلاء، فرنسيون أقحاح مثلنا نحن في فرنسا».

وما أن اجتُثّت من الأرض المقدّسة ونُقلت إلى قبرص بعيداً عن المعارك، حتى بدأت الطبقة النبيلة المزدهرة تنغمس في الكسل والبطالة. وفي عام 1350 م صوّر لنا الرّحّالة لودُوف فون زُودْهايم[2] Ludolf von Sudheim مشهداً مذهلاً فاضحاً لحياة المتع والشهوات التي عاشها أسياد قبرص، بترف شرقي بحت.

---

(1) نسبة إلى نيكّولو ماكياڤيلّي Niccolo Machiavelli: سياسي وكاتب إيطالي من فلورنسة (1469-1527 م)، تولى أمانة سرّ مستشاريتها على عهد حكامها من آل ميديتشي. ألّف كتابه الشهير «الأمير» *il Principe* (إل پرينتشيپه) في عام 1513 م، ومن المبادئ التي طرحها فيه أن «الغاية تبرّر الواسطة»، وأما نظريته الواقعية في السياسة فهي تقوم على محاولة الارتقاء بنظام جديد، متحرّر وعلمانـي وأخلاقي ينزّه الناس عن نوازع الشر.

(2) لودولف فون زودهايم (ويعرف كذا باسم فون زوخم Ludolf von Suchem) رحّالة ألمانـي شهير ساح في المشرق خلال خمسة أعوام (1336-1341 م)، وألّف عن رحلته كتابه: «وصف الديار المقدسة والطرق المؤدية إليها»، نشرته «جمعية نشر نصوص حجاج فلسطين» (PPT) بلندن: *Description of the Holy Land and the Way Thither*.

من جهة أخرى، بدأت هذه الطبقة النبيلة، التي كانت تقريباً فرنسية على وجه الحصر في القرن الثالث، بالسماح لعناصر إيطالية بالدخول فيها في النصف الثانـي من القرن الرابع عشر، وبخاصة من الصقلّيين، وكذلك من القطلانيين والأراغونيين.

لقد نتج غنى المجتمع القبرصي عن الوضعية الاستثنائية لهذه الجزيرة بالنسبة للنشاط التجاري للمشرق. وفضلاً عن ذلك، أدى سقوط عكّا والممتلكات الفرنجية الأخرى في الأرض المقدّسة، عام 1291 م، إلى جعل قبرص المركز الرئيسي لهذه التجارة.

وورثت موانئ قبرص، مثل فاماغوستا Famagusta ولارناكا Larnaka وليماسول Limassol وبافو Baffo، الحركة التجارية العائدة لكل من طرابلس وصُور وعكّا ويافا على السّاحل الشامي. وأضحت مدينة فاماغوستا[1] البحرية خصوصاً، في الأراضي المسيحية، السوق الأكبر للسكّر والتوابل والأحجار الكريمة والحرير. وإلى هذا الميناء بالذات حوّلت كل من البندقية وجنوة وپيزا وكالاتها التجارية.

واستحوذت هذه الوكالات التجارية الإيطالية في قبرص، كما كانت فعلت بالأمس القريب في سوريا، على القسم الأعظم من الأعمال التجارية. وكما جرى في سوريا سابقاً، فإنّ المستوطنات الجنوية والبندقية والپيزية تمتّعت باستقلال ذاتـي كبير.

وأدارت هذه المستوطنات شؤونها وفق قوانينها خاصة، تحت توجيه مفوّض معيّن من قبل الوطن الأم، يحمل لقب «پودستا» podestà عند الجنويين و«بايل» baïle عند البنادقة[2]. ولقد كان هؤلاء المفوّضون بمثابة قناصل عامّين حقيقيين، ولهم مرتبة السفراء ويتمتعون باعتبار فائق لدى بلاط نيقوسيّا. ولقد شاهدنا كيف استفادت المستوطنة الجنوية من ذلك، للاستيلاء على فاماغوستا، حيث بقيت مسيطرة عليها من عام 1373 إلى 1464 م.

---

(1) تقع فاماغوستا على الساحل الشرقي لجزيرة قبرص، وفي القرون الوسطى كانت عاصمة قبرص بسبب أهميتها التجارية المذكورة.

(2) البايل لفظة فرنسية ذات أصل إيطالي: Balì أو Balivo، مصطلح تاريخي قديم يعني: المحافظ.

مع ذلك، لم يكن اللاتين ليؤلّفوا، سواء أكانوا فرنسيين أو إيطاليين نبلاء أم بورجوازيين، أكثر من السلك الإداري للمملكة القبرصية. وأما جمهور الشعب فقد بقي كما هو مؤلفاً من اليونان، من الفلاحين الأرقّاء (*pariques* أو *perpiriens*) أو من الأحرار (*élefthères*). ويضاف إلى ذلك أن اليونان كانوا يدخلون بيسر في السلك الإداري أو الجيش، وعن طريق ذلك، خصوصاً ما بعد عام 1369 م، توصّلوا إلى رتبة النبالة نفسها.

إن أخطر الفوارق ما بين اللاتين واليونان كانت المذاهب الكنسية[1]، فإن الكنيسة اللاتينية التي أوجدت في قبرص بعد غزوها أسقفية (في نيقوسيّا) وثلاث مطرانيات، لم تتمكن من إلغاء الكنيسة اليونانية، ولكنها أقصت المطارنة اليونان بعيداً عن المدن الكبرى. ومراراً ما قام ملوك آل لوزينيان بحماية رجال الإكليروس اليونان من سطوة الأساقفة والرسل البابويين القادمين من روما.

الفنون والآداب في قبرص

تركت العمارة القوطية في قبرص شواهد رائعة على فترة الهيمنة الفرنسية. فأوابد العصر الأول، مثل كاتدرائية نيقوسيّا (النصف الأول من القرن الثالث عشر)، وكاتدرائية سان جورج للآتين Saint-Georges des Latins في فاماغوستا (نهاية القرن الثالث عشر) توضح بجلاء تأثير منطقة «إيل دى فرانس»[2].

أما العصر الثاني (كاتدرائية سان نيكولا Saint-Nicolas في فاماغوستا، التي بُدئ بعمارتها عام 1308 م) فيدلّ على تأثير شامپانْـيْ. وأما في العصر الثالث (نهاية القرن الرابع عشر)، فيظهر تأثير الجنوب الفرنسي le Midi (كدير لاپاييس Lapaïs). وأما العصر الرابع (القرن الخامس عشر)، فيكشف أثر قطالونيا (كقصر نيقوسيّا الملكي) وإيطاليا الشمالية. وأخيراً، طراز عصر النهضة الذي ترسّخ تحت فترة سيادة البندقية.

---

(1) وتلك كانت من أوضح الأدلّة على أن الغاية من الحروب الصليبية لم تكن مجرّد «إنقاذ المقدّسات المسيحية» من أيدي المسلمين «البرابرة»، بل الأطماع التوسعية الاستعمارية من جهة، ومن جهة أخرى القضاء على مذهب الأرثوذوكسية الشرقي.

(2) إيل دى فرانس Ile-de-France هي اليوم إقليم إداري في وسط فرنسا باتجاه الشمال، يشمل باريس وما يجاورها. نشأت بشكل مقاطعة في القرن الخامس عشر.

وعلى صعيد العمارة المدنية، ينبغي الإشارة إلى قصور السهول، التي بقيت مستوحاة من الأسلوب البيزنطي (كقصر سيرينا)؛ وقصور الجبال، المستوحاة من الأسلوب الفرنسي (مثل قصر سان إيلاريون Saint-Hilarion، أو ديودامور Dieud'amour، وقصر كانتارا Kantara، وقصر بوفاڤان Buffavent على سبيل المثال).

يمكن لنا أن نعدّد من بين مصادر الأدب القبرصي المكتوب بالفرنسية، أعمال المؤرخين الإخباريين التاليين: فيليپ دى نوڤار Philippe de Novare، المذكور سابقاً (الفقرة 6 من الفصل الثالث)، وجيرار دى مونريال Gérard de Montréal، مؤلّف «مآثر القبارصة» *les Gestes des Chiprois* (حوالي عام 1320 م). ويمكننا كذلك أن نُلحق بحياة المجتمع القبرصي بضعة مؤلفات لفيليپ دى ميزيير البيكاردي[1] Philippe de Mézières (الذي عاش في الفترة الواقعة بين 1326-1405 م تقريباً)، ومنها على وجه الخصوص كتابه الموسوم بعنوان: «رؤيا الحاج العجوز» *le Songe du vieil pèlerin*.

ومن بين التواريخ الإخبارية القبرصية المكتوبة بالإيطالية، نذكر تاريخ أمادي Amadi (يصل حتى عام 1442 م)، وتاريخ سترامبالدي Strambaldi (من عام 1306 إلى 1458 م)، وتاريخ فلوريو بوسترون Florio Bustron (يصل حتى عام 1489 م).

ومن بين التواريخ الإخبارية المكتوبة باليونانية هناك كتابان، أحدهما ألّفه ليونس ماخايراس Léonce Makhairas (يدوّن بالأخص أحداث الفترة الممتدة بين 1359-1458 م)، والآخر جورجيوس بوسترون Georges Bustron (من عام 1456 إلى 1501 م).

وكما نرى من خلال هذه الأسماء الأخيرة، كانت يقظة الهيلينيّة القبرصية قد شرعت بالظهور حوالي أواخر سلالة ملوك لوزينيان، ثم لم يقف دونها أي حائل أمام متابعة نموّها تحت الهيمنة البندقية. ثم أدّى الفتح التركي عام 1571 م لمّا كسح العنصر اللاتيني خارج قبرص، إلى ترسيخ نجاح هذه الردّة الهيلينية.

---

(1) البيكاردي le Picard: نسبة لإقليم Picardie القديم في فرنسا، وهو يتألف من هضبة تقع إلى الشمال من حوضة باريس، وكان يضم سبع مقاطعات كبرى.

أما تلك الحضارة الزاهرة التي شادها آل لوزينيان، فلم يبق منها اللّهم سوى شواهد أثرية لا زالت شاخصة إلى يومنا الحاضر، تتمثل في كاتدرائياتهم القوطية البديعة.

* * *

الفصل الخامس

مملكة كيليكيا الأرمنيّة

السلالة الرُّوبينيّة الحاكمة

كان غزو الأتراك السَّلاجقة لأرمينيا بين 1064 و 1071 م (انظر الفقرة 6 من الفصل الأول)، قد أدّى إلى نزوح قسم من السكان الأرمن تجاه كيليكيا Cilicie، الإقليم الذي كان متنازعاً عليه آنذاك بين البيزنطيين والأتراك. وعقب ذلك استطاع زعيمان أرمنيان، هما روبين Roubèn وأوشين Ochin، أن يؤسّسا حوالي عام 1080 م، الأول في بارتزربرد Bartzerberd، والثانـي في لامبرون Lambron، قلاعاً حصينة في كيليكيا العليا. وكان الأول جدّ الأسرة الروبينية الحاكمة، أما الثانـي فجدّ الأسرة الهيتومية الحاكمة.

ويلاحظ بالتالي، أن حلول هؤلاء السكان المسيحيين المنتمين إلى طبقة الفلاحين الجبليين الأشداء، بالإضافة إلى الإقطاعيين المحبّين للحرب، بجوار سوريا، سوف يكون له عن قرب أكبر الفوائد لصالح الدول الصليبية، التي أمسى أرمن كيليكيا حلفاءها الدائمين.

كانت الأسرة الروبينية هي التي أسّست الدولة الأرمنيّة في كيليكيا، وجعل قسطنطين الأول Constantin I (حوالي 1092–1100 م) ابن روبين مقر إقامته في ڤاهكا Vahka (أي Fikhé حالياً) في سلسلة الجبال المحاذية لطوروس وتحالف مع بارونات الحملة الصليبية الأولى. واستطاع خَلَفه طوروس الأول Thoros I^er (1100–1129 م) أن ينتزع من البيزنطيين مدينتي سيس وعين زَرْبَى[1] في كيليكيا. كما انتزع منهم ليون الأول (1129–1137 م) شقيق طوروس ماميسترا (المصيصة) وأضنة وطَرَسوس، أي باختصار كل ما تبقى من كيليكيا.

---

(1) ذكرها ياقوت في معجم البلدان (7: 177): بلد بالثغر من نواحي المصيصة.

لكن في عام 1137-1138 م تمكّن الإمبراطور البيزنطي جان كومنينوس من استعادة الإقليم ومحق الدولة الأرمنيّة الفتية وأسر زعماءها. وسُجن طوروس الثانـي ابن ليون الأول طويلاً في بيزنطة، ثم عام 1143 م تمكّن من الفرار وعاد إلى كيليكيا ليعمل على طرد البيزنطيين (1151 م). وفي عام 1158 م غزا البيزنطيون كيليكيا مجدّداً بقيادة الإمبراطور مانويل كومنينوس، فيما بقي طوروس الثانـي (توفي 1168 م) معتصماً بالجبال يقاوم البيزنطيين. وأخيراً نجح مليح[1] (1169-1174 م) أخو طوروس بدحر البيزنطين من كيليكيا نهائياً (عام 1173 م).

بعد هذه الصراعات شهدت إمارة كيليكيا الأرمنيّة عهد ازدهار، قامت في خلاله بالتقارب مع العالم اللاتيني، فتزوج الأمير روبين الثالث Roubèn III (1175-1187 م) من فرنجية هي إيزابيل دى تورون Isabelle de Toron. أما أخوه ليون الثانـي الأكبر (1187-1219 م) فكان من أبرز حكام عصره، استحصل من الإمبراطور هنري السادس ومن البابا سيليستان الثالث Célestin III على إقرار ارتفعت بموجبه إمارته إلى مصاف الممالك.

ثم أتى الكردينال كونراد فون ڤيتِلسباخ Konrad von Wittelsbach لتتويجه ملكاً على أرمينيا في طَرَسوس، وكان ذلك إجراءً رمزياً أفضى إلى تحرير أرمينيا نهائياً من جذب بيزنطة إياها وإلحاقها بمجموعة الشرق اللاتيني (في 6 يناير 1198 أو 1199 م؟). ولقد تزوج ليون الثانـي على التوالي أميرتين فرنجيتين، هما إيزابيل من آل حكام أنطاكية وسيبيل من آل لوزينيان.

لم تمنع ميول ليون الثانـي إلى الفرنجة من دخوله في شقاق مع أمير أنطاكية بوهيمون الثالث حول حصن غاستون Gaston الحدودي (بغراس) عام 1194 م. غير أن الصلح بينهما تم توثيقه بزواج الأميرة آليكس Alix ابنة أخ ليون الثانـي من ريمون Raymond الابن البكر لبوهيمون الثالث (1195 م). أجاز هذا الزواج للملك ليون الثانـي بالتالي التدخّل في شؤون إمارة أنطاكية عندما حلّ نزاع بين مطالبَيْن بحكمها هما بوهيمون الرابع وريمون روبين Raymond-Roubèn، لكون الأخير ابن ريمون وأليكس وبالتالي حفيد أخ العاهل الأرمني. فانحاز ليون إلى حفيد أخيه، ونجح لبرهة قصيرة (1216-1219 م) في تنصيبه أميراً لأنطاكية.

---

(1) يرد الاسم: Mleh، ويسميه المؤرخون المسلمون المعاصرون للفترة: مليح بن لاون.

بوفاة ليون الثانـي (1219 م) آل التاج إلى ابنته زابيل Zabel التي تزوّجت من فيليب أحد أبناء الأسرة الأنطاكية، لكن لمّا راح هذا يعمد إلى فَرْنَجَة البلاد برعونة عمد البارونات الأرمن إلى إقصائه عن الحكم. ثم قام زعيمهم قسطنطين سيد لامبرون بتزويج زابيل من ابنه هيتوم الأول Héthoum I^{er}، الذي صار بذلك مؤسس السلالة الحاكمة المعروفة حسب اسمه بالسلالة الهيتوميّة (1226 م).

كان هيتوم الأول (1226–1269 م) واحداً من أنبه الحكام، كما كان واحداً من أكبر سياسيي عصر الحروب الصليبية. ورغم أنه توصل إلى السلطة عبر انتفاضة أرمنية ضد عملية الفَرْنَجَة، فإنه سرعان ما عاد فركن إلى سياسة موالية للفرنجة. وقدّم ابنته زوجة لأمير أنطاكية وطرابلس بوهيمون السادس. وبين هاتين العائلتين حلّ تحالف محدود مكان التنافس والتنافر القديمين.

كان لهيتوم، بشكل خاص، القدر الكافي من بُعد النظر ليُدرك مدى أهمية العنصر المغولي في الصراع الدائرة رحاه بين الصليب والهلال. وصاقب في ذلك العصر مجيء المغول التابعين لجنكيز خان في طريقهم لغزو إيران. ما لبث هيتوم أن أعلن نفسه تابعاً لهم، وأوفد إليهم سفارة يرأسها أخوه، القائد العام سمباط Sembat (عام 1247 م)، ثم توجّه بنفسه إلى منغوليا ليقدّم فروض الولاء إلى خان المغول الأكبر منكو[1] Mongka (1254 م). ولقد تقبّل الخان هذا الولاء وأعلن دخول مملكة كيليكيا الأرمنيّة تحت حمايته.

بعد ذلك بقليل قدم هولاكو خان شقيق منكو ليحكم إيران، وبعدما قوّض الخلافة العباسية في بغداد (1258 م) مضى يغزو كما رأينا (فقرة 23 الفصل الثانـي) سوريا الداخلية من أيدي المسلمين. فانخرط الملك هيتوم في صفوف جيش المغول ودخل في ركابهم إلى حلب ودمشق، حيث قام بتحويل العديد من المساجد إلى كنائس (عام 1260 م). على أن هزيمة المغول أمام المماليك في العام ذاته 1260 م تركت العاهل الأرمني طُعمة لنقمة الظافرين، فانطلق السّلطان المملوكي الظاهر بيبرس يدكّ مدن كيليكيا (1266 م) وفرض على الأرمن صلحاً مُذلاً.

---

(1) منكو خان المغول بين 1251–1259 م، شقيق هولاكو خان وقُبلاي خان، الذي خلفه في حكم الإمبراطورية المغولية.

تحت وطأة هذه المذلّة مضى الملك ليون الثالث Léon III (1269–1289 م) ابن هيتوم وخليفته يلتمس العون لمواجهة المماليك من خان فارس الجديد أبغا خان (1269 م). لكنه لم يفلح في كبح المماليك عن الإغارة على كيليكيا (1274–1275 م). أما هيتوم الثانـي الذي تلاه في الحكم (1289–1301 م)، فقد وجد نفسه في مواجهة المصاعب ذاتها، ومضى هو الآخر يستجدي الحماية من خان فارس (1295 م). ولقد أرسل هذا الخان بالواقع، وهو غازان، إلى سوريا جيشاً هزم المماليك على حمص (22 ديسمبر 1299 م)، ولكن هذا الجيش سرعان ما تراجع منسحباً. وفضلاً عن ذلك لم يعد أمام مغول فارس، الذين اعتنقوا الإسلام لتوّهم، نفس الدواعي للدفاع عن المملكة الأرمنيّة.

وإذ انقطعت الحماية المغولية عنه، لجأ ملك أرمينيا أوشين Ochin (1308–1320 م) إلى زيادة التقارب مع اللاتين كما لم يسبق من قبل. وكان من جهة أخرى قد تزوّج ابنة ملك قبرص هوغ الثالث Hugues III. وفي عهد ابنه ليون الخامس (1320–1341 م)، استؤنفت الغارات المملوكية (اقتحام ميناء أياس، أو لاياسّو Lajazzo الأرمني عام 1322 م).

حكام أرمينيا من آل لوزينيان

لمّا كانت السلالة الهيتومية الحاكمة قد انقرضت في عام 1341 م، فقد آل عرش أرمينيا، عن طريق لعبة تحالف الأسر، إلى آل لوزينيان أصحاب قبرص في شخص غي دى لوزينيان Guy de Lusignan (1342–1344 م). رغب غي في أن يفرض على رعاياه التبعية الدينية لكنيسة روما، فما كان من البارونات الأرمن، المتعصبين بشدة لكنيستهم القومية (ذات العقيدة الوحدانية بالمذهب الغريغوري) إلا أن بادروا إلى عزله عن الحكم (في 17 نوڤمبر 1344 م).

على الأثر قاموا بتسمية أحدهم ملكاً وهو قسطنطين الرابع، ورغم أنه رقي إلى العرش إثر ردّة فعل مضادة للفرنجة، فقد حرص قسطنطين الرابع (1344–1363 م) كأسلافه على محالفة الفرنجة في مواجهة المماليك. وفي الواقع لم ين هؤلاء المماليك عن متابعة هجماتهم، منتزعين من الأرمن ميناء أياس Ayas (لاياسّو Lajazzo) (25 مايو 1347 م)، ثم مدينتي أضنة وطَرَسوس (1359 م).

وهكذا ضاع السهل الكيليكي، ولم يتبقّ للمملكة الأرمنيّة المطوّقة من جميع الجهات سوى مساحة ضئيلة في الجبل، حول عاصمتها سيس. وعلى أمل إثارة الدعوة إلى حملة صليبية، استدعى البارونات الأرمن إلى العرش أميراً قبرصياً، هو ليون[1] السادس دى لوزينيان (1374 م). ومنذ وصوله وجد ليون نفسه محاصراً في سيس من قبل المماليك. وبعد استبسال ودفاع بطولي رضخ فسلّم المدينة (في 13 أبريل 1375 م).

وهكذا اختتمت حياة أرمينيا الكيليكيّة. أما ليون السادس، فلمّا أطلقه المماليك من سجنه بعد سبعة أعوام، استقرّ في فرنسا. وكانت وفاة آخر ملوك أرمينيا في پاريس في 29 نوڤمبر 1393 م.

فَرْنَجَة أنظمة الحكم الأرمنيّة

إن قُرب الدول الصليبية ونفوذها القوي أثّرا بشكلٍ ملموس في أنظمة حكم الدولة الأرمنيّة في كيليكيا. وإن تتويج ليون الثانـي ملكاً (تاغاڤور[2] *thagavor*) على يدي مبعوث بابوي من روما أدّى إلى إدخال أرمينيا في نطاق ممالك اللاتين.

حذا بلاط سيس[3] الملكي من حيث الأنظمة حذو بلاطي أنطاكية وعكّا. كما تمّ ترجمة «دواوين أنطاكية» *les Assises d'Antioche* إلى الأرمنيّة على يد «القائد العام» سمباط (نحو 1254–1265 م). وكانت مراسيم «السّجل الملكي» *cartulaire* تدوّن في آن واحد باللغتين الأرمنيّة واللاتينية أو الفرنسية.

وعلى نسق الملكية، كذلك حذت الإقطاعية الأرمنيّة حذو الهيئة الفرنجية. وتشبّه الإقطاعيون الأرمن (ناخارارك *nakhararkʼ*) بالبارونات الفرنسيين. حتى أن تنظيم الفروسية نفسه أُدخل إلى بلاط سيس. وعلاوة على ما تقدم، بقي التزاوج بين الأسرة الحاكمة لأرمينيا وبين السلالات الحاكمة للقدس وأنطاكية – طرابلس وقبرص، كما رأينا، مستمراً على قدم وساق.

---

(1) تسمى العديد من ملوك الأرمن باسم ليون، ولفظه في الأرمنية «ليڤون».

(2) هذه العبارة الأرمنية تعني الملك، وقد عرفها المؤرخون العرب بلفظ «تقفور»، في أكثر التواريخ المعاصرة لممالك الأرمن المجاورة لبيزنطة.

(3) سيس Sis مدينة في كيليكيا، أضحت عاصمة لمملكة أرمينيا الصغرى عام 1186 م.

كانت العقبة الوحيدة الواقفة في وجه هذا الائتلاف الضيّق هي الهوّة اللاّهوتية ما بين العقيدة الرومانية والاعتقاد الوحداني الأرمني. ومع ذلك، بدا عدّة من الأحبار الأرمن مناصرين للتقارب مع روما، ومن هؤلاء نرسيس الرابع شنورالي Nersès IV Chnorhali، البطريرك الذي تولى من عام 1166 إلى 1173 م، والذي كان واحد من أكبر كتّاب عصره، والمطران نرسيس دى لامبرون Nersès de Lambron (توفي 1198 م).

ولقد قام أحد أفراد الأسرة الملكية الأرمنيّة، وهو هيتوم الذي يعرف بهايتون الراهب Hayton (توفي بعد عام 1314 م)، قام باعتناق العقيدة المسيحيّة الرومانية الكاثوليكية، ودوّن بالفرنسية لدى كهنة قبرص كتابه المعنون «زهرة تواريخ أرض المشرق» *la Flor des estoires de la terre d'Orient*.

ونضيف هنا، أنه في غضون المئتين والثلاثة وثمانين عاماً التي عاشتها الدولة الأرمنيّة في كيليكيا (1092-1375 م)، لعبت هذه الدولة دوراً اقتصادياً لا يمكن إغفاله، ولقد كان ميناء أياس (لاياسّو) واحداً من المنافذ الرئيسية للتجارة الآسيوية. ومنذ عام 1201 م، شرع الجنويون بتأسيس وكالاتهم التجارية في هذا الميناء. وقد أدّى سقوط أنطاكية (1268 م) ثم سقوط عكّا (1291 م)، إلى مضاعفة أهمية هذا الميناء عشرات المرات، فقد أضحى السوق الكبرى الوحيدة المتبقية في القارّة بأيدي المسيحيين. كانت الأساطيل الجنوية والبندقية تفد إلى ذلك الميناء لتُشحن بالتوابل، والأحجار الكريمة، والمنسوجات القطنية والحرائر من آسيا الإسلامية، ومن الهند والشرق الأقصى.

ولكن هذا الازدهار كله لم يكن من ناحية أخرى بمنأى عن المخاطر، فلمّا انثال مماليك مصر يدمّرون عام 1375 م المملكة الأرمنيّة في كيليكيا، كما كانوا من قبل قد دمّروا عام 1291 م البقايا الأخيرة من مملكة القدس الفرنجية؛ فإن الغاية من ذلك كانت، دون ريب، تعزيز الانتصار الحاسم للحرب الإسلامية المقدّسة (الجهاد) على الحركة الصليبية المسيحية. ولكن لا ننسينّ أيضاً أنه كان يكمن وراء ذلك أيضاً إلى حد بالغ الرغبة في استقطاب الاحتكار القارّي لتجارة المشرق نحو ميناء الإسكندرية، مروراً فوق أنقاض ميناء أياس، مثله في ذلك مثل عكّا.

* * *

الفصل السادس

إمبراطوريّة القسطنطينية اللاّتينية

العداء بين اليونان واللاّتين
ما قبل الحملة الصليبية

أثناء تعدادنا للحملات الصليبية أغفلنا عن عمد الحملة الرابعة، ذلك لأنها لم توجّه، كالأخريات، ضد المسلمين وإنما ضد دولة مسيحية، هي الإمبراطورية البيزنطية، ولأن مجرياتها لم تكن متصلة بالعالم الإسلامي كغيرها، بل بالعالم اليونانـي هذه المرّة.

قبل أن تقوم الحملة الصليبية الرابعة بقلب الحرب المقدّسة ضد المسلمين إلى جهة بيزنطة، كان نزغ مهاجمة البيزنطيين وغزو القسطنطينية قد طرح نفسه منذ زمن بعيد في الغرب: أفليس البيزنطيون من المنشقين الهراطقة؟ أفلا ينبغي قبل تحرير قبر المسيح، البدء باستتابتهم إلى العقيدة الرومانية؟ هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت البغضاء ما بين البيزنطيين و«الفرنجة» طاغية، حتى إبّان احتكاكهم في غمار الحملات الصليبية.

ففي شهر يناير من عام 1097 م، لدى مسيرة الحملة الصليبية الأولى، اشتبك جنود غودفروا دى بويّون، تحت أسوار القسطنطينية، في عدّة مناوشات عنيفة مع عسكر الإمبراطور البيزنطي آلكسيوس كومنينوس. وفي أكتوبر من عام 1107 م، حينما استبدّ الغضب بأمير أنطاكية بوهيمون الأول من المواجهة التي لاقاها في سوريا من جهة البيزنطيين، خفّ إلى محاصرة دوراسّو Durazzo، وهو الميناء اليونانـي الرئيسي على البحر الأدرياتيكي. ثم في عام 1147 م، أرسل ملك صقلية النورماندي روجيه الثانـي قوة إنزال قامت باقتحام أوبيه Eubée وطيبة Thèbes وكورينثة Corinthe.

وعام 1185 م قام ملك آخر من ملوك صقلية هو غُيّوم الثاني بتجريد جيش في وجه الإمبراطورية البيزنطية، وكان هذا الجيش أكثر ضخامة من سابقه، فنزل في دوراسّو وزحف باتجاه تسالونيك حيث قام بالاستيلاء عليها (أغسطس 1185 م). ثم تقدم النورمان نحو القسطنطينية، حيث كان غُيّوم الثاني يأمل بالاستئثار بعرش قيصر الروم ليغدو مؤسساً لإمبراطورية لاتينية في المشرق (وكما نرى كانت هذه الفكرة حاضرة في الأذهان)، فاتّفق أن مُني الجيش النورماندي بالهزيمة على أيدي البيزنطيين في ديميتيزا Démétiza (7 سبتمبر 1185 م) وأُلقي به في البحر.

وفضلاً عن ذلك، كان الإمبراطور الجرماني كونراد الثالث Konrad III في خلال الحلمة الصليبية الثانية (1147 م)، وكذلك الإمبراطور فريدريك بارباروسّا في خلال الحملة الثالثة (1189-1190 م)، كانا على وشك الانقضاض على القسطنطينية.

وفيما تلا ذلك انتقلت هذه المشاريع المختلفة إلى الإمبراطور هنري السادس (1190-1197 م) خَلَف فريدريك بارباروسّا وخَلَف ملوك صقلية النورمان، فكان على وشك الشروع في غزو الإمبراطورية البيزنطية، عندما صادفت وفاته المبكرة (سبتمبر 1197 م). لكن فكرة غزو القسطنطينية وجدت طريقها إلى أخيه فيليپ دوق سوابيا[1] Philipp von Schwaben، الذي خلفه جزئياً في حكم ألمانيا (1197-1208 م)، فجعل على الدوام يظهر مناصرته للفكرة. وتبعاً لذلك يبدو أن فيليپ كان واحداً من محرّكي «انحراف» الحملة الصليبية الرابعة.

الحملة الصليبية الرّابعة

عُقد العزم على إطلاق الحملة الصليبية الرابعة، بمبادرة من البابا الكبير إينوسان الثالث Innocent III، في سبيل تخليص القدس التي ضاعت من أيدي المسيحيين في عام 1187 م وأضحت مُذّذاك في حوزة المسلمين (انظر الفقرة 17 من الفصل الثاني).

---

(1) سوابيا، كما تنطق بالفرنسية، وبالألمانية شڤابن Schwaben، مقاطعة في ألمانيا، تشمل اليوم قسماً من المنطقة الواقعة إلى الجنوب الغربي من باڤاريا Bayern، وعاصمتها التاريخية مدينة آوكسبورغ Augsburg.

تم إطلاق الحملة في فرنسا على يد فولك دى نويّي Foulque de Neuilly، واستدرجت عدداً وافراً من البارونات والأسياد الإقطاعيين من منطقة إيل دى فرانس Ile-de-France وشامپانيا Champagne، وكان من بينهم الكونت لوي دى بلوا Louis de Blois وجوفرا دى ڤيلاردوان Geoffroi de Villehardouin، الذي أضحى فيما بعد مؤرخ هذه الغزوة (1199 م). وممن خرج مقاتلاً أيضاً، كلّ من الكونت بودوان التاسع دى فلاندر Baudouin IX de Flandre وشقيقه هنري دانغر Henri d'Angre، أو كما يسمى أيضاً هنري دى إينو Henri de Hainaut (1200 م).

وتقرّر أن الصليبيين سوف يمضون في مهاجمة دار الإسلام في مصر، وأن البنادقة سوف ينقلونهم بحراً إلى هناك. ولما كان الكونت تيبو الثالث دى شامپانْـيْ Thibaud III de Champagne الزعيم المعيّن للحملة قد توفي في تلك الأثناء (مايو 1201 م)، فقد استبدله الصليبيون بسيّد لومباردي هو المركيز بونيفاس دى مونفيرّا[1] Boniface de Monferrat.

لمّا تجمع الصليبيون في البندقية (خريف عام 1202 م)، ألفوا أنفسهم عاجزين عن جمع المال الذي وعدوا به البنادقة ثمناً لعملية النقل. فاقترحت عليهم ولاية البندقية الإقطاعية أن يقوموا لصالحها بغزو مدينة زارا Zara في دلماسيا من أيدي ملك هنغاريا. وبالرغم من احتجاجات البابا إينوسان الثالث، سرعان ما خفّ الصليبيون إلى احتلال المدينة (13-24 نوڤمبر 1202 م).

لم يكن ذلك في الواقع سوى بداية «انحراف الحملة الصليبية». أما في القسطنطينية في تلك الأثناء، فقد كان الإمبراطور إيزاك الثانـي آنغيلوس Isaac II Ange (عام 1195 م) يتعرّض للخلع عن عرشه وللتكحيل[2] على يدي شقيقه آلكسيوس الثالث Alexis III. فما كان من ابن إيزاك، ألكسيوس الشاب Alexis le Jeune، إلا أن مضى إلى زارا يستنجد بالصليبيين لإعادة والده إلى العرش.

---

(1) يلفظ اسمه بالإيطالية: بونيفاتشو دي مونفرّاتو Bonifacio di Monferrato، وهو إيطالي من لومبارديّا Lombardia، مقاطعة وسهل في شمال إيطاليا على أقدام جبال الألپ، قاعدته مدينة ميلانو Milano .

(2) التكحيل عقوبة بشعة شاعت في القرون الوسطى، تنفّذ بسمل عيني الرجل بمياسم من الحديد محمّاة بالنار، حتى يكفّ بصره ويمسي عاجزاً.

راح ألكسيوس يعدهم بأموال طائلة، لكن دونما أن يتطرّق إلى الحديث عن التحاق الكنيسة اليونانية بالبابوية[1].

وتحت تأثير البنادقة (حيث أن الدُّوْدْجِه إنريكو داندولو Enrico Dandolo خرج بنفسه غازياً)، تمّ الحصول على موافقة الصليبيين. وهكذا نزلوا أمام القسطنطينية، وشرعوا في محاصرتها (11 يوليو 1203 م). ثم في 18 يوليو، قام الأهلون أنفسهم بتنحية آلكسيوس الثالث عن العرش، وأعادوا تنصيب مولى الصليبيين، إيزاك الثانـي، مع ولده آلكسيوس الشاب.

طالب الصليبيون على التوّ كلاً من إيزاك وابنه بدفع المبالغ المتفق عليها، ولكن شعب القسطنطينية المستاء من هذه المطاليب، أطاح بالإمبراطورين الموالين للفرنجة، واستبدلوهما بزعيم الفئة المناهضة للفرنجة، وهو مورتزوفلوس Mourtzouphle (28-29 يناير 1204 م).

وبذلك لم يعد أمام الصليبيين بدٌّ من الشروع في فرض حصار جديد، وبدأ الهجوم في التاسع من أبريل. وفي اليوم الثانـي عشر من الشهر المذكور، تم اقتحام السور، بينما لاذ مورتزوفلوس بالفرار. ورافق احتلال القسطنطينية تخريب لا يمكن تعويضه، وبين أجناب هذه المدينة التي تعتبر متحفاً للتراث الإغريقي الروماني، انثال الفاتحون يعيثون فساداً مريعاً.

عقب ذلك، بادر الزعماء الصليبيون إلى انتخاب إمبراطور جديد، ووقع الاختيار على كونت الفلاندر بودوان التاسع بالأفضلية على بونيفاس دى مونفيرّا (9 مايو 1204 م). وجرت مراسم تتويجه في كنيسة القديسة صوفيا في 16 مايو. وتضمّنت الملكية الإمبراطورية التي آلت إليه كلاً من إقليم تراقيا والأراضي التي كانت بحاجة إلى الغزو في آسيا الصغرى. بينما نال بونيفاس كتعويض «مملكة تسالونيك»، أي ما معناه إقليم مقدونيا.

---

(1) وهذه المسألة كانت طبعاً من أهم أهداف الحركة الصليبية: القضاء على الكنيسة الرومانية الشرقية (الأرثوذوكسية) المنشقة. وقد تجلّى ذلك في الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية، وما صاحب ذلك من فظائع دلّت بكل وضوح على أن توجّهات الحركة الصليبية بالأساس لم تكن نبيلة كما تدّعي. أضف إلى ذلك سوء معاملة الصليبيين للمسيحيين الشرقيين في بلادنا. ومما جرى في عصرنا (عام 2001) أن البابا رأس الكنيسة الكاثوليكية، عندما زار اليونان في رحله حجّه، طولب بالاعتذار عما اقترفه اللاتين من مجازر وأعمال تخريب في تلك الحملة.

تملّك الإمبراطور بودوان الأول

غدا بودوان التاسع دى فلاندر الإمبراطور بودوان الأول Baudouin I^er^، واستهلّ حكمه بمشاجرة مع ملك تسالونيك، بونيفاس دى مونفيرّا[1]. وتوصل الطرفان إلى حافة خوض حرب شاملة، عندما تمكن كل من الدُّوْدْجِه البندقي والكونت ڤيلاردوان من مصالحتهما.

وفيما كان بودوان في إثر ذلك يُتمّ غزوه لتراقيا، كان بونيفاس قد أنجز غزو مقدونيا. ومن مقدونيا هذه، انطلق بونيفاس باتجاه اليونان، فبدأ بطرد السادة الإقطاعيين البيزنطيين من تساليا، ثم اجتاح منطقة الترموپيليس Thermopyles واستولى على أثينا عنوة، إلاّ أنه لم يتمكن من إسقاط قلاع كورينثا وآرغوس ونوپلي، اللواتي بقين في حوزة اليونان.

وقبل أن يستعيد مقدونية، عمد إلى توزيع إقطاعاتها. فحصل القائد الصليبي الپارمي غويدو پالاڤيتشيني Guido Palavicini على مدينة بودونيتزا في إقليم الترموپيليس، بينما نال القائد الكونتي أوتّون دى لاروش Othon de la Roche كلاً من أثينا وطيبة (1205 م).

في تلك الأثناء، كان الإمبراطور بودوان الأول يبعث بقواته إلى آسيا الصغرى لاحتلال شطآن بيثينيا وميزيا وطروادة. وفي هذه الأنحاء، كان اليونان يلملمون شملهم وينظّمون صفوفهم تحت قيادة تيودور لاسكاريس Théodore Lascaris، المستقر في نيقية وفي بروسّا (بورصة لاحقاً)، والذي أعاق في وجه اللاتين طريق المرور إلى الداخل. ثم بين نوڤمبر وديسمبر من عام 1204 م، نجح اللاتين في انتزاع نيقوميديا من لاسكاريس وكسروه عند پوامانينون ثم في آدراميت (19 مارس 1205 م).

كانت أوضاع الإمبراطورية الفرنجية بذلك على أحسن حال، عندما اصطدمت بالبلغار في شخص القيصر الفلاخي البلغاري يوهانيتزا Johannitza. كان هذا العاهل النصف بربري فيما مضى ينوي التقرّب من العالم اللاتيني، حتى أنه - بناء على طلبه - تُوِّج على يدي مبعوث بابوي من قبل البابا إينوسان الثالث (8 نوڤمبر 1204 م)، ولكن بودوان لم يفلح في استمالته فصار بالتالي عدواً له.

---

(1) أو بالإيطالية: بونيفاتشو دي مونفرّاتو، كما ذكرنا.

وفي 14 أبريل 1205 م، كبّد البلغار اللاتين هزيمة ساحقة بالقرب من أندرينوپل Andrinople (أدرنه لاحقاً)، ووقع بودوان في أيديهم أسيراً ثم مات في سجنه.

تملك هنري دى إينو

أفضت كارثة أندرينوپل إلى السقوط الفوري للإمبراطورية اللاتينية، أما البلغار الذين استقبلهم الشعب اليوناني كمحررين له، فقد أمسوا الأسياد المطلقين لتراقيا برمّتها تقريباً، باستثناء القسطنطينية. وكان شقيق بودوان، هنري دى إينو Henri de Hainaut، قد عُيّن في ظل هذه الظروف المأساوية وصيّاً على العرش، وعقب ذلك أضحى بدوره إمبراطوراً (1206 م) . واستطاع هذا الإمبراطور، بما تميّز به من شجاعة وحزم وفطنة، أن يتدارك الأوضاع المتردّية.

في ذلك الحين كان أهالي تراقيا من اليونان قد روّعتهم همجية البلغار، فوجد هنري في ذلك الفرصة الملائمة ليضمّ إليه هؤلاء اليونان ويحرّر بالتالي مدينة أندرينوپل (يونيو 1206 م). وأخيراً نجح في طرد البلغار ودفعهم إلى بلادهم حتى بورغاس Bourgas.

ثم في عام 1207 م، حصل ائتلاف خطير ما بين القيصر يوهانيتزا و«طاغية» نيقية اليوناني تيودور لاسكاريس، فهرع الأول يحاصر أندرينوپل والثاني نيقوميدية. فما كان من هنري، الذي لا يعرف الكلل، إلا أن ألحق بهما معاً هزيمة كبرى. وهذا ما دعى لاسكاريس في آسيا الصغرى إلى الجنوح إلى السلم (1207 م). ولكن في أوروبا أقدم البلغار على قتل ملك تسالونيك كونراد دى مونفيّرا (4 سبتمبر 1207 م)، بيد أن هنري في النهاية تمكن من تكبيد البلغار في فيليپوپولي Philippopoli هزيمة وضعت حدّاً نهائياً لغزواتهم (أول أغسطس 1208 م).

انهمك هنري بعد ذلك في إرساء أسس النظام في مملكة تسالونيك، حيث لم يخلّف بونيفاس دى مونفيّرا سوى ابن له من العمر اثنا عشر عاماً، هو ديمتريوس Démétrius، وحيث كان الوصي على العرش، البارون اللومباردي أوبرتو دى بلاندراته Oberto de Blandrate، يعمل على الوقوف ضد مجيء الإمبراطور .

دخل هنري تسالونيك بعنف وبادر إلى إقالة بلاندراته من منصبه (2 يناير 1209 م)، ثم مضى يملي سيادته المطلقة على بارونات اليونان الفرنجة. ورتب في راڤينيكا Ravennika بالقرب من لاميا Lamia (زيتون Zeitoun) في إقليم فتيوتيد «مجلساً للنواب»، حيث تلقى مراسم الولاء بخاصة من أوتون دى لاروش سيّد أثينا، ومن جوفروا دى ڤيلاردوان بابيل المورة (مايو 1209 م).

بعد هذه الجولة، تابع هنري في آسيا الحرب ضد «طاغية» نيقية اليونانـي، تيودور لاسكاريس، وهزمه في لوپاديون Lopadion بالقرب من لوپيركوس Luperkos (ريندا كوس Rhyndakos) في إقليم ميزيا (15 أكتوبر 1211 م) وأكره لاسكاريس على التخلي عن شطآن بيثينيا، وميزيا وطروادة .

كان هنري دى إينو سياسياً حصيفاً بقدر ما كان قائداً عسكرياً باسلاً، وكانت العقبة الرئيسية الواقفة في وجه الإمبراطورية الجديدة ناتجة عن معارضة سلك الإكليروس اليونانـي للطبقة الكنسية الرومانية. بينما لم يكف المبعوثون البابويّون، وبخاصة الكاردنيال المتعصب پيلاج Pélage، عن السعي لإرغام الإكليروس اليونانـي على التبعية، وكان ذلك من جهة أخرى على نقيض توجيهات البابا إينوسان الثالث الأكثر تسامحاً. ولم يتوان هنري عن بسط حمايته على الإكليروس اليونانـي، وذلك بإعادة فتح الأديرة الأرثوذكسية وبتحرير القساوسة اليونان السجناء.

سقوط الإمبراطورية اللاتينية

بعد موت هنري دى إينو (11 يونيو 1216 م)، لم يكن أمام الإمبراطورية اللاتينية من الانحدار بدّ، بينما في إيپيريا Epire من جهة، وفي نيقية من جهة أخرى، كانت الهيلينية تشهد إصلاحاً متسارع الخطى. وعندما استُدعي صهر هنري پيير دى كورتنيه Pierre de Courtenay لكي يخلفه، قبض عليه يونان إيپيريا أثناء اجتيازه ألبانيا في طريقه إلى القسطنطينية، ومات في سجنه (1218 م).

تولى الحكم بعد پيير ابنه الإمبراطور روبير Robert دى كورتنيه وهو يافع بليد، في الوقت الذي كانت فيه الحاجة أمسّ ما تكون إلى هنري دى إينو جديد، وأسفر حكم روبير عن سلسلة متداركة من الكوارث (1221-1228 م).

وفي عام 1222 م انتزع «طاغية» إيپيريا اليوناني تيودور آنغيلوس من اللاتين مدينة تسالونيك، وتلك كانت نهاية المملكة الصليبية التي تحمل هذا الاسم، فضلاً عن مقدونيا بأسرها. وكذلك أضاع روبير نفسه أندرينوپل التي احتلها يونانيو نيقية (1224 م) ومن بعدهم يونانيو إيپيريا (1225 م). وأخيراً أضاع غالبية الشريط الساحلي الذي غزاه الصليبيون بالأمس القريب في بيثينيا وفي ميزيا وطروادة. وأضحت الإمبراطورية اللاتينية بذلك مقتصرة عملياً على حاضرة القسطنطينية الكبرى.

كانت الحاجة ماسّة إلى رجل قوي، لكن القانون الوراثي في الحكم أفرز إلى العرش شقيق روبير، بودوان الثانـي الطفل ذو الأحد عشر عاماً (1228-1261 م). ونُصِّب كوصي على هذا الطفل وكشريك في الحكم ملك القدس القديم جان دى بريين[1] Jean de Brienne الذي كان في العقد الثامن من عمره (1231 م). ورغم أن يونان نيقية والبلغار المتحالفين كانوا في طريقهم لمحاصرة القسطنطينية، فقد أبدى جان دى بريين بالرغم من شيخوخته بسالة أدّت إلى تراجع اللأعداء وانسحابهم (1235-1236 م). ولكن بعد وفاة هذا الصليبي العجوز (1237 م) كانت تتمة فترة حكم بودوان الثانـي هزيلة مهلهلة تدعو إلى الرثاء.

ثم في 25 يوليو من عام 1261 م، وضع جيش إمبراطور نيقية ميخائيل پاليولوغوس حدّا ختامياً لحياة هذه الإمبراطورية، وذلك باقتحامهم المفاجئ مدينة القسطنطينية. في الحقيقة، كانت الإمبراطورية اللاتينية، التي لا ترجع عظمتها المؤقتة إلا إلى شخصية هنري دى إينو الفائقة وغير الاعتيادية، كانت محكوماً عليها بالزوال. فإن حفنة البارونات والفرسان الذين سادوا بين ليلة وضحاها المجتمع البيزنطي، لم تكن لديهم لا الفعاليات ولا التفوّق الحضاري اللازم لهم لكي يثبتوا أنفسهم.

وإضافة إلى ذلك، لم يكن انحراف الحملة الصليبية الرابعة - هذه القرصنة الدولية التي نالت منذ اللحظة الأولى لعنات البابا إينوسان الرابع - سوى بليّة لأوروپا نفسها. فإن غُزاة عام 1204 م قاموا بتقويض الوحدة البيزنطية دون أن يحلّوا محلها ما هو قابل للحياة والاستمرار.

---

(1) راجع أعلاه: جان دى بريين والحملة الصليبية الخامسة، ص 71.

حتى الردّة اليونانية عام 1261 م، لم تقوَ على رأب هذا الصدوع، فلم يكن بمقدورها ردّ الأراضي التي كانت تابعة للإمبراطورية القديمة عام 1203، بحيث أن «رومية» المجزأة بشكل لا يعوّض (ونصطلح ذلك هنا على اعتبارها قد أُدرجت ضمن نطاق البلقان) بعد ضربة عام 1204، دخلتها موجات الغزاة الأتراك دون أية مقاومة، وبحيث أن الحملة الصليبية الرابعة، كما سيتضح فيما بعد، كانت هي التي هيأت الأمور على المدى البعيد ولكن المؤكد لنفاذ الفتح العثماني[1].

الإمبراطورية اللاتينيّة والهيمنة البندقيّة

يرتبط تأسيس الإمبراطورية اللاتينية بالتاريخ الاقتصادي بشكل خاص، وذلك كمظهر للإمپريالية البندقية. فإثر الاستيلاء على القسطنطينية عام 1204 م اغترّ البنادقة بأنفسهم، متأملين أن يضحوا «أسياداً بكل معنى الكلمة» للإمبراطورية اللاتينية. ومن جرّاء ذلك، نرى أنهم كانوا المستفيدين الحقيقيين من هذه الإمبراطورية الوليدة.

وخلال فترة بقاء الإمبراطورية (1204–1261 م) – وبشكل مستقل خلال حصول البنادقة على ممتلكات إقليمية لاحقاً في البحار الإغريقية (انظر الفصل الثامن، فقرة 3) – مارسوا في القسطنطينية وفي مضائق البوسفور هيمنة بحرية وتجارية من دون منازع لهم. وكان اليودستا البندقي في القسطنطينية، وهو بمثابة قنصل عام لكل «رومية»[2] la Romanie يعدّ في الواقع الشخصية الثانية في الإمبراطورية.

في غضون هذه الفترة، حظي السوق البندقي بتفوق حاسم على مضاربيه، بينما استمر الجنويون والپيزيون يدفعون رسوم الدخول بنسب باهظة جداً. ثم لما ضاقت جنوة ذرعاً بهذه التبعيّة، انتهى بها الأمر إلى إلحاق نفسها بحلف ضد البندقية وضد الإمبراطورية اللاتينية مع إمبراطور نيقية اليوناني ميخائيل باليولوغوس Michel Paléologue (معاهدة نيمفايون، 13 مارس 1261).

(1) ثمّة تفاصيل وافية لذلك في كتاب رنسيمان *Fall of Constantinople* عن الفتح العثماني للقسطنطينية.

(2) أي بلاد الحضارة الرومانية (نسبة إلى روما) سواء الغربية أم الشرقية منها.

ثم باسترداد القسطنطينية على أيدي جند ميخائيل پاليولوغوس، في 25 يوليو اللاحق، انقلبت الأوضاع لصالح الجنويين. ومنذ عام 1261 وحتى عام 1453، خلص الانتفاع لهؤلاء الجنويين، في الإمبراطورية البيزنطية المرمّمة، بالأسبقية التجارية التي نعم بها البنادقة في ظل الإمبراطورية اللاتينية.

أما فيما يتعلق بالممتلكات التي حصلت عليها البندقية ما بعد 1204 في البحار الإغريقية، فسنمرّ بها لاحقاً (أنظر الفصل الثامن، فقرة 3). ونكتفي هنا بالإشارة إلى دوقية لمنوس Lemnos الكبرى، الممنوحة إلى أسرة ناڤيغايوتسي Navigajozi البندقية التي حرست مضائق البوسفور لصالح إقطاعية سان ماركو إلى أن استولى البيزنطيون على الجزيرة مجدداً عام 1276 م.

* * *

الفصل السابع

إمارة المُورة الفرنسية ودوقيّة أثينا

غيّوم دى شامپليت
وجوفروا الأول دى ڤيلاردوان

عقب تأسيس الإمبراطورية اللاتينية، قام بارونان فرنسيان من شامپانْيا، هما البارون غيوم دى شامپليت Guillaume de Champlitte وجوفروا دى ڤيلاردوان Geoffroi de Villehardouin (والثانـي قائد لقوات الأول) بانتزاع البيلوپونيز، أو المورة la Morée كما كان يدعوها الفرنجة، من أيدي اليونان (1206 م).

وببضعة مئات من الخيالة، استولوا على آخايا (باحتلال پاتراس Patras) وإليدا (احتلال أندراڤيدا التي أضحى أسمها «أندرڤيل» Andreville) واحتلال پونتيكوغاسترون التي أضحت تسمى «بوڤوار» Beauvoir)، واستولوا كذلك على مسينيا (باحتلال كالاماتا وأركاديا)، باستثناء مينائي مودون وكورون المسينيّين اللذي بقيا في أيدي البنادقة . على هذا النحو، قامت إمارة المورة أو آخايا، التي صار غيّوم دى شامپليت حاكمها الأول (1205–1209 م).

ولما آب غيّوم دى شامپليت إلى فرنسا (في مايو 1209 م)، حلّ محلّه زميله جوفروا دى ڤيلاردوان – أو جوفروا الأول – بصفة بايل Baïle أي كوصي على الإمارة (1209–1210 م)، ثم خلفه في منصبه هذا كأمير لها (1210–1218 م).

واستأنف جوفروا الأول أعمال شامپليت بأن انتزع من اليونان لاكونيا وكانتونات أركاديا المجاورات (عبر احتلال لاسيديمون التي سميّت «كريمونيا» la Crémonie عام 1210 م)، وبعدها قلاع كورنثا (في عام 1210 أيضاً) ونوپلي وأرغوس (عام 1212). ولم يعد بأيدي اليونان في البيلوپونيز (حتى عام 1248) غير ميناء مونيمڤازيا (أو «مالڤوازي» Malvoisie).

قام جوفروا أثناء ذلك بتنظيم البلاد، واعتباراً من عام 1209 ضم أندراڤيدا (أو «أندرڤيل») من أعملا أليدا، وهي المدينة التي لعبت دور العاصمة للإمارة، أو «المحكمة العليا» parlement حيث وُضعت قائمة الإقطاعات في المورة، وهذه الإقطاعات حُدِّدت نظرياً باثني عشر، وفق تقاليد النظام الكارولنجي. ومُنح كلٌّ من هذه الإقطاعات إلى أسرة حاكمة فرنسية.

كان مركز الإمارة إليدا، البلد الذي وافقت مروجه الخضراء أهواء طبقة الفرسان الغزاة. أضف إلى ذلك أن جوفروا الأول عرف، بسياسة مرسومة بحنكة، كيف يحقق انضواء عناصر السكان اليونان المحليين. ولقد تم ترك قسم من الأراضي لليونان، بينما أُدخل كبار ملاّك الأراضي (الأرخونتِس) *les archontes* في السلك الإقطاعي. ولقد تمّت المحافظة على الأديرة الأرثوذكسية على وجه العموم.

جوفروا الثانـي وغيّوم دى ڤيلاردوان

خلف جوفروا الأول في الحكم ابنه البكر جوفروا الثانـي Geoffroi II، أميراً للمورة من عام 1218 إلى عام 1245. وقام جوفروا الثانـي بإشادة قلعة «كليرمون» Clairmont الساحلية في إليدا حيث سيطرت بموقعها على البحر الإيونـي. وفي عام 1236 أغاث بنجاح إمبراطور القسطنطينية اللاتيني بودوان الثانـي لما حاصره اليونان والبلغار، وقام بترسيخ الاستيطان الفرنجي في إمارته عن طريق استجلاب العديد من الفرسان إلى المورة، من الشامپانيين والبورغينيين والكونتيين. ثم تلاه في سدّة الحكم شقيقه غيّوم دى ڤيلاردوان Guillaume de Villehardouin (1245–1278 م).

استكمل غيّوم أعمال سابقيه بأن انتزع من اليونان معقلهم الأخير في الپيلوپونيز (المورَة)، وهو ميناء مونيمڤازيا (عام 1248 م). وبغاية الضرب على أيدي الجبليين اليونان أو عبيد لاكونيا، قام بإنشاء قلعة ميسترا Mistra (1249 م) وقلعة غران مانْـيْ Grand Magne (1250 م) وقلعة بوفور[1] Beaufort (لوكترون Leuktron) (1251 م).

---

(1) هي غير قلعة بوفور (شقيف أرنون) في جنوب لبنان إلى الشمال الشرقي من صور.

وفي الخارج انضم إلى الملك لويس التاسع في حملته الصليبية ضد مصر (1249). وقد حارب كذلك في أوبيه Eubée (أي «نيغربون» Nègrepont) ضد إقطاعيي الجزيرة الإيطاليين «المثاليث» *les terciers* وضد حُماتهم البنادقة (1256–1258 م).

وأخيراً، كان على غيوّم كسر تحالف بارونات الهيلاّد الأوسط l'Hellade، وهم غي الأول دى لاروش Guy Ier de la Roche، سيد أثينا وطيبة، وتوما دى سترومونكور Thomas de Stromoncourt، سيد سالون (أمفيسا)، وأوبيرتينو پالاڤيتشيني Ubertino Pallavicini، مركيز پودونيتزا (ترموپيل). ولقد تمكن من كسرهم عند جيل كاريدي Karydi (عام 1258 م)، وأرغمهم على تجديد الاعتراف بسيادته.

كان غيوّم دى ڤيلاردوان آنذاك في أوج قوته، وكانت كل بلاد اليونان الفرانكو إيطالية معترفة به حاكماً مطلقاً، عندما مضى يقدّم العون لحميّه طاغيه إيپيرا اليونانـي، وحارب في مقدونيا العليا ضد قوات يونانية أخرى، وتلك هي قوات الإمبراطور ميخائيل پاليولوغوس . وكانت نتيجة هذه الحملة أن هُزم وأُخذ أسيراً في كاستوريا، في پيلاغونيا (أكتوبر 1259 م).

ولم يرض ميخائيل پاليولوغوس بالإفراج عن غيوّم إلا بمقابل تنازله عن أربع قلاع كبرى في لاكونيا هي: مونيمڤازيا، وكيراكي، وميسترا، وغران مانْـيْ (بموجب معاهدة القسطنطينية عام 1262 م). ولم يكن ذلك ينطوي على مجرد عودة البيزنطيين إلى الپيلوپونيز، ولكن غيوّم دى ڤيلاردوان كان قد سلّم بذلك «مفاتيح داره».

لم يتح لغيوّم على الإطلاق استعادة قلاعه الأربع الضائعة من البيزنطيين. وبغاية الحصول على دعم خارجي، أعلن نفسه تابعاً لملك صقلية شارل دانجو Charles d'Anjou (1267 م) وخطبت ابنته ووريثته إيزابيل لابن هذا الملك. بنتيجة ذلك واعتباراً من هذا اليوم ، لم تعد إمارة المورة أكثر من تابعة للمملكة الإيطالنجوية[1].

---

(1) أي المملكة الإيطالية الأنجوية le royaume italo-anjevin، ومثل هذا الأسلوب اللغوي في نحت المفردات والمصطلحات وارد في لغات أوروبا، غير أنه لا يستقيم في العربية.

أُسِّست إقطاعية أثينا وطيبة الفرنسية، كما رأينا، على يدي الصليبي الكونتي[1] أوتّون دى لاروش Otton de la Roche (1205-1225 م). ورأينا كذلك كيف وقف خليفة أوتّون وهو ابن أخيه غي الأول Guy Ier (1225-1263 م) في وجه أمير المورة غيوم دى ڤيلاردوان، ولكنه إذ هُزم في كاريدي (عام 1258 م) فقد اضطر للإذعان لتبعية الأمير. واعتباراً من عام 1260 م، اتخذ كي الأول لقب دوق، ثم خلفه كل من ابنيه جان Jean de la Roche (1263-1280 م)، وغيّوم Guillaume دى لاروش (1280-1287 م)، وبعدهما غي الثانـي (1287-1308 م)، وهو ابن غيّوم.

وكانت حظوة دوقات أثينا الثلاثة هؤلاء عظيمة، ولقد مارسوا بناءً على صلات القربى (لأن كل الفرنجة كانوا يتزوجون عن رضى من أميرات يونانيات)، وصاية حقيقية على الحكومة اليونانية الاستبدادية في «ڤالاخيا الكبرى» أي تساليا. وكان بلاطهم، مثله في ذلك مثل المورة، بؤرة جيّاشة للثقافة الفرنسية. ولقد اشتهر من بين هؤلاء غي الثانـي Guy II عند كَتَبة التاريخ، كبطل لروايات الفروسية، مغرم بالمنافسات والمبارزات.

خلف غي في الحكم ابن عمه غوتييه الخامس دى بريين (1308-1311 م) Gautier V de Brienne، وارتكب غوتييه هذا غلطة بالغة بإيوائه في دوقيّته «السريّة الكبرى» la grande compagnie القطلانية المشهورة التي كانت تحارب في آسيا الصغرى لصالح البيزنطيين ثم في تراقيا وفي مقدونية ضد البيزنطيين أنفسهم. ولما ضاقت به الأمور من تجاوزات هؤلاء الرعاع، عمل على طردهم، ولكنهم هزموه وقتلوه على ضفاف بحيرة كوپاييس Copaïs في بيوتيا Béotie (15 مارس 1311 م). وهلك في هذه الكارثة جميع أفراد طبقة الفرسان الفرنسية تقريباً.

وكان مصير دوقية أثينا وطيبة أن سقطت هكذا مرة واحدة في قبضة القطلانيين، الذين جعلوا منها شكلاً من جمهورية عسكرية تحت الحكم الاسمي لملوك صقلية الأراغونيين. ولقد بقوا على ذلك موجودين في البلاد من عام 1311 حتى 1387 م.

---

(1) كونتي comtois: نسبة إلى مقاطعة كونتيه comté في شرق فرنسا.

في إمارة المورة كما الحال في قبرص، كان للتاج «الأسبقية على طبقة الإقطاع»، طالما أن توزيع الإقطاعات الإثني عشر كان منوطاً بالأمير. إلا أن هذا الأمير، لدى تسنّمه السلطة، كان عليه كما هو الحال بالنسبة لملوك القدس أو قبرص، أن يُقسم اليمين أمام المُقطَعين المتحدين في المحكمة العليا Haute Cour والذين عليه احترام حصاناتهم و«حقوقهم». فلم يكن بوسعه أن يدين مُقطعاً، أو أن يتنازل عن قطعة من الأرض، إلخ، إلا بعد موافقة المحكمة العليا.

وكان على المُقطعين بالمقابل أن يؤدّوا له الخدمة العسكرية، وأن يدينوا له بالولاء، وإلا فإن له الحق بإدانتهم أمام المحكمة العليا (كما فعل غيّوم دى ڤيلاردوان Guillaume de Villehardouin عام 1258 م بجوفروا دى برويّير Geoffroi de Bruyère سيّد كاريتينا Karytaina، وحتى بسيّد أثينا غي الأول دى لاروش).

هذا وإن «العُرف» الذي ساد في الإمارة وفق هذه القواعد قد وُضع في دواوين رومية *Assises de Romanie*، وقد دوِّن نص هذا العرف بشكله الفعلي قرابة عام (1320).

كانت مواقف أمراء المورة الفرنجيين تجاه السكان اليونان بشكل عام على قدر كاف من التسامح، ورأينا كيف أن غالبية طبقة «الأرخونتِس» أو الإقطاعيين اليونان قد أُبقيت لهم إقطاعاتهم الزراعية *latifundia*. وقد تم الاعتراف بحقوق هؤلاء الإقطاعيين المحليين في المؤتمرات، جنباً إلى جنب مع الإقطاعية الفرنسية. يضاف إلى ذلك أن الزيجات بين الغزاة والسكان الأصليين كانت تتكرر مراراً، وكان المولّدون من آباء فرنجيين وأمهات يونانيات يُعرفون اصطلاحاً باسم الغاسمول *gasmules*.

ازدهرت الحضارة الفرنسية في القرن الثالث عشر بزخم في المورة تحت حكم آل ڤيلاردوان كما ازدهرت في أتيكا تحت آل لاروش. «كان أمراء المورة - يقول المؤرخ مونتانيه - يخطبون نساءً من أعرق الأسر في فرنسا وكان من ذلك البارونات والفرسان. وكذلك كان يُقال إن أنبل فئات الفرسان في فرنسا كانوا فرسان المورة وكانت تُحكى فيها الفرنسية بنفس الجودة التي تحكى بها في پاريس».

وينبغي الرجوع إلى «تاريخ المورة» *la Chronique de Morée* وقراءة أخبار حفلات الاستقبال ومباريات الفروسية في «مجلس العموم» بكورنثة عام 1304 م. وكان النموذج الأمثل لشعائر الفروسية المتمثلة في هذا المجتمع يتجسّد أثناء حكم غيوّم دى ڤيلاردوان (1245-1278 م) في شخصية رجل يدعى جوفروا دى برويّير سيد كاريتينا، الذي كان فارساً مغامراً خارقاً ومحارباً لا يعرف الجزع، فضلاً عن أنه كان طائشاً ولا يتورّع عن الكثير من الأعمال اللاعقلانية؛ وفي الواقع، كان ذاك هو «سيد كاريتين» le sire de Caraitaine الذي اقتاد عام 1259 م كل طبقة الفرسان هذه إلى كارثة كاستوريا التي تذكّرنا بمعركتي كريسي وآزينكور[1].

ومن أعمال الأدب الفرنسي كتاب «تاريخ غزاة القسطنطينية» *l'Histoire de la Conquète de Constantinople* الذي ألّفه ماريشال رومية جوفروا دى ڤيلاردوان، عمّ أمير المورة الثاني وسميّه في نفس الوقت؛ تم تدوين هذا التاريخ على يد ذاك الصليبي الشهير في مقاطعته التراقيّة ما بين عامي 1212 و 1218 م. وكذلك لدينا «تاريخ المورة» *la Chronique de Morée*، المكتوب بالفرنسية بين عامي 1341 و 1346 م، بالاعتماد على تأريخ إيطالي سابق له.

أما في مجال فن العمارة، فلنذكر كمثال على الفن «القوطي الموري» كنيسة هيپاپاندي l'Hypapandi والدير السيسترسياني[2] في دافني Daphni، وكلاهما في إقليم أتيكا.

كائناً ما كان الازدهار الذي اتصف به هذا المجتمع، فإن الاستيطان الفرنسي في إمارة المورة، كما في دوقية أثينا، اقتصر دوماً على مهاجرة البارونات والفرسان. وإذ تضعضع بقوة في المورة إثر كارثة كاستوريا (1259 م) وأُنهك إلى الغاية في دوقيّة أثينا إثر كارثة بحيرة كوپاييس (1311 م)، فلم يعد في وسع هذا الاستيطان أبداً إيقاف المدّ الإسپاني في أتيكا والمدّ الإيطالي في الپيلوپونيز.

* * *

---

(1) معركتا كريسي Crécy وآزينكور Azincourt، جرتا بين الفرنسيين والإنكليز في خضمّ حرب المائة عام، وقد مني فيهما الفرنسيون بهزيمة ساحقة، كانت الأولى منهما عام 1364 والثانية 1415 م.

(2) بالفرنسية: le couvent cistersien، نسبة إلى طائفة «سيتو» Cîteaux، وهو دير قرب ديجون بفرنسا، وهذه الطائفة هي أخوية من الرهبان البندكتيين التابعين لدير سيتو المذكور.

الفصل الثامن

اليونان في العهد الإيطالي

المورة[1] تحت هيمنة آل آنجو

كنا قد رأينا (الفصل السابع، الفقرة 2) كيف أن أمير المورة غيوّم دى ڤيلاردوان قد قدّم فروض الطاعة لملك صقلية شارل دانجو (عام 1267 م)، وزوج ابنته ووريثته إيزابيل من أحد أبناء هذا الملك. لقد أدّت هذه العملية إلى جعل الإمارة الفرنجية مجرد تابع بسيط لأسرة ناپولي الأنجوية.

عقب وفاة والدها، أمست إيزابيل أميرةً للمورة تحت حكم بلاط ناپولي (1278-1307 م). وعندما ترمّلت تزوجت مجدداً من فلوران دى إينو Florent de Hainaut الذي أشركته بالعرش (1289-1297 م)، ثم تزوجت من فيليپ دى ساڤوا Philippe de Savoie الذي أشركته في عرشها بالمثل (1301-1307 م). ثم في عام 1307 م انتزع بلاط ناپولي الإمارة منها، ولكن عهد به فيما تلا إلى ابنتها ماتيلد دى إينو Mathilde de Hainaut (1313-1318 م).

في عام 1318 م استعادت أسرة ناپولي الحاكمة حكم المورة من جديد، التي عوملت من قبل هذه الأسرة بازدياد كمجرد مستعمرة بسيطة. وبعد عهد حكم آخر أميرة كانت على الأقل مقيمة في المورة بعض الشيء، وهي كاترين دى ڤالوا Catherine de Valois (1333-1346 م)، لم يحكم المورة سوى متصرفين إيطاليين مؤقتين، مرسلين من ناپولي. وصارت هذه الإمارة، التي كانت بالأمس القريب فرنسية محضة تأخذ الصبغة الإيطالية شيئاً فشيئاً، في حين أن السلطة المركزية بدأت تضمحل في نفس الوقت، وبدأت البلاد تعانـي من الإهمال وتغرق في مستنقع التفرقة.

---

(1) المورة شبه جزيرة في القسم الجنوبـي من بلاد اليونان، تعرف قديماً بالپيلوپونيز.

وفي الختام، سقطت المورة في قبضة «عُصبة كبرى» من قطاع الطرق، وهي العصبة النافارية (1382-1402 م)، ثم انتقلت إلى مغامر إيطالي، هو تْشِنْتوريونِه زاكاريّا الجَنَوي Centurione Zaccaria (1404-1428 م).

بيد أن البيزنطيين، الذين استقرّوا مجدداً بدءاً من عام 1262 في لاكونيا (ومركزهم كان ميسترا)، اغتنموا هذا الانحدار فاستعادوا من اللاتيين كامل القسم الشرقي من البيلوپونيز، وردّوهم على أعقابهم إلى آخايا وإلى إليدا وميسينا. ثم بين عامي 1417 و 1430 م، أفلحوا في انتزاع هذه الأقاليم الثلاثة من تشنتوريونه زاكاريّا ومن الإقطاعيين الإيطاليين المحليين الآخرين.

في عام 1430 م كانت كل البيلوپونيز تقريباً، فيما عدا المرافئ البندقية مثل مودون وكورون، قد عادت يونانية كما كانت. كانت تلك ردّة هيلينية ناجحة، ولكنها كانت مع ذلك قصيرة الأجل: إذ في عام 1460 م سيكون مصيرها السقوط في أيدي الأتراك العثمانـيين.

دوقات أثينا الفلورنسيون

في حين أضحت إمارة المورة الفرنسية القديمة تابعة لمملكة ناپولي، سقطت دوقية أثينا وطيبة الفرنسية القديمة، كما شاهدنا (الفصل السابع فقرة 3)، تحت سيطرة «العصبة القطلانية الكبرى» (1311-1387 م)، ثم انتقلت إلى أيدي أسرة آتشايُوولي Acciaiuoli الفلورنسية.

كان آل آتشايُوولي يتعانون الصّرافة في فلورنسا تحت خدمة بلاط ناپولي الذي منحهم في المورة تحديداً (عام 1358 م) إقطاعية كورنثا. وقام أحدهم، وهو نيريو الأول Nerio I^{er} المتميّز، بانتزاع دوقية أثينا وطيبة من أواخر القطلانيين (عام 1387 م). «لقد ساقه طالعه الزاهر من فلورنسا إلى أكروكورنثا، ومن الأكروكورنثا إلى أكروپول أثينا». وعقيب البلبلة التي تلت وفاته (عام 1394 م) لم يلبث ابنه غير الشرعي الحازم أنطونيو الأول Antonio I^{er} أن أضحى، هو الآخر، دوقاً لأثينا ولطيبة (1402-1435 م).

إن نيريو وأنطونيو آتشايُوولي كليهما، هذين الفلورنسيين من القرنين الثالث عشر أو الرابع عشر اللذين دُعيا ليحكما إقليم أتيكا، يذكراننا بآل ميديتشي

Médicis. فتحت حكومتهما الواعية أضحت أثينا كفلورنسة ثانية. لقد كانا بالحق من زعماء النهضة، ومن كبار مشجعي الفنون والآداب، محبين لليونان، أو بالأحرى كانا من حيث الثقافة نصف يونانيين.

اتخذ الدوق أنطونيو مكان إقامته في الپروپيليه Propylées، فكانت له دويرة[1] كبرى بالقرب من نبع كاليرويه Callirrhoé، أحاط نفسه فيها بالفلاسفة والمتأدبين مثل خالكوكونديل Chalcocondyle. ولكن بلغ الأتراك أيضاً ذاك الموضع: ففي عام 1458 م انتزعوا أثينا من أواخر حكامها بني آتشايُوولي.

المستعمرات البندقية والجنوية

لدى اقتسام الإمبراطورية البيزنطية بين صليبيي عام 1204 م، كانت جزيرة أوبيه Eubée، التي دعيت آنذاك نيغرپون، من نصيب بعض السادة الذين يعود أصلهم إلى ڤيرونا وهم آل كارتشيري Carceri، فاقتسموها فيما بينهم مثالثة، مما أعطاهم لقب «المثاليث» terciers (عام 1205). واعتباراً من عام 1209 انضووا تحت حماية البندقية التي خلال سنوات 1276-1296، آزرت المثاليث في الدفاع عن أنفسهم ضد محاولات الهجوم البيزنطي المعاكس. وبقيت البندقية هي المسيطرة على الجزيرة حتى أوان الغزو العثماني (احتلال نيغرپون أي خالكيس Chalcis القديمة، على أيدي الترك من البنادقة، 12 يوليو 1470 م).

كان من المفروغ منه، ما بعد عام 1204 م، أن جميع جزر الأرخبيل اليوناني وقعت في حصّة البنادقة، ولكن هؤلاء لم يقوموا بحكمها مباشرة باسم مقاطعة سان ماركو. لكنهم وزّعوها بشكل إمارات ذات حكم ذاتي على أسرهم النبيلة، مثل آل سانودي Sanudi، وآل غيزي Ghisi، وغيرهم. فنال آل سانودي الجزيرة الرئيسة، ناكسوس Naxos، باللقب الدوقي، بينما حصل آل غيزي على تينوس Tinos وميكونوس Mykonos؛ وحصل واحد من أسرة داندولو Dandolo على جزيرة آندروس Andros، وحصل آل باروتسي Barozzi على جزيرة سانتورين Santorin، إلخ.

---

(1) دويرة villa هنا ليست تعني هنا بالمفهوم المتداول بيتاً ريفياً، وإنما تجمعاً سكنياً صغيراً في موقع ريفي خارج المدينة. وكلمة ڤيلا باللاتينية تعني أصلاً الريف.

أما «دوقية ناكسوس» التي تأسست بذلك، فقد بقيت لأسرة سانودي من عام 1207 إلى 1383 م، ثم آلت إلى أسرة كريسپو Crispo من عام 1383 إلى 1566. وكانت حماية جمهورية البندقية في البدء متراخية بعض الشيء في القرن الثالث عشر، لكنها أضحت فيما تلا شيئاً فشيئاً أكثر فاعلية تبعاً لتصاعد الخطر التركي. ثم في عام 1566، ورغم جهود البندقية، تم للعثمانيين احتلال جزيرة ناكسوس.

وعلى النقيض من جزر الأرخبيل، طُبّق على جزيرة كريت Crète، التي احتلها البنادقة عام 1206، منذ البداية حكمٌ مباشر لإقطاعية سان ماركو. ولم يستطع الأتراك استخلاصها من أيدي البنادقة إلا في عام 1669 م.

أفادت الحملة الصليبية الرابعة من البنادقة حيث أقامت امبراطورية استيطانية في البحار اليونانية. وبالعكس، كما رأينا، أفادت ردّة الإمبراطورية البيزنطية عام 1261 من الجنويين حلفاء اليونان (انظر ما تقدم في الفصل السادس، فقرة 6).

في عام 1267 منح الإمبراطور البيزنطي ميخائيل پاليولوغوس للمستوطنة الجنوية في القسطنطينية ضاحية پيرا - غَلَطة[1] Péra-Galata التي سرعان ما انتظمت بشكل بلدة ذات حكم ذاتي. وفي أثناء انحطاط الإمبراطورية البيزنطية إبّان عهد أواخر آل پاليولوغوس، توصلت مستعمرة پيرا الجنوية هذه، والتي كانت في نفس الوقت مشاكسة من جهة البيزنطيين وعاصية في وجه الوطن الأم، بدءاً من القرن الرابع عشر، توصلت إلى احتكار كامل تجارة مدينة القسطنطينية تقريباً.

استحصل الجنويون من البيزنطيين أيضاً على مدينة فوسية Phocée الواقعة على الساحل الإيوني، المتميزة بوجود مناجم حجر الشبّ فيها (عام 1275 م)، وكذلك نالوا جزيرة خيو Chio التي لا تقل عن الأولى أهمية لوجود مزارع المصطكاء[2] بها الذي تستخدم عصارته في صنع صمغ الملاط (1304 م). ولما نزع البيزنطيون حيازة الجنويين عن خيو (عام 1329 م) عاد هؤلاء فاحتلّوها ثانية عام 1346 م.

---

(1) تقع هذه الضاحية على القرن الذهبي المطل على خليج البوسفور، شمال شرق بيزنطة.
(2) المصطكاء (mastic): شجر يُستخرج منه اللّبان.

وأخيراً، أعطى البيزنطيون لِسبوس Lesbos لأسرة غاتّيلوزي Gattilusi الجنوية، التي حازتها من سنة 1355 إلى 1462. وفي أواسط القرن الرابع عشر، منحت جمهورية جنوة جزيرتـي خيو وفوسية إلى شركة مصرفية، هي شركة ماهونه la Mahone، التي استثمرت هاتين المستعمرتين حتى زمن الغزو التركي (1455 في فوسية، و1566 في خيو).

وأخيراً، بين عامي 1266 و 1289 م حصل الجنويون من خانات المغول في روسيا الجنوبية على منشأة تجارية في كافا Caffa بالقرم Crimée، بالقرب من تيودوسيا الحالية. ومن هناك قاموا بتصدير فراء الشمال وقمح أوكرانيا والأسماك المملّحة من بحر آزوف Azov والحرير والتوابل من آسيا الشرقية وحتى الرقيق من القپچاق. وفي القرن الرابع عشر أقاموا وكالات تجارية أخرى في القرم، وبالتحديد في سولدايا Soldaia (سوداك)، وصولاً إلى شاطئ كوبان Kouban.

وبالرغم من الخلافات العـابرة مع خانات التتار (في عام 1308، 1344-1346 م)، ظلت هذه المستوطنات الجنوية في القرم، والتي كان يديرها من جنوة مجلس منتدب خاص Officium Gazariae، حتى عام 1475 م، وهي السنة التي احتل فيها العثمانيون كافا.

فرسان رودُس

بعد الضياع التام للأرض المقدّسة (عام 1291 م)، انسحبت منظمة الإسبتارية العسكرية (فرسان مشفى القديس يوحنا الأورشليمي) إلى قبرص. وفي عام 1307-1308 م، تحت أستاذيّة ف. دى ڤيّاريه F. de Villaret، استملك الإسبتارية قاعدة إقليمية باحتلالهم جزيرة رودُس Rhodes من البيزنطيين (فتح قلعة رودُس، 15 أغسطس 1308 م).

وبنقلهم معقلهم هكذا إلى الجزيرة، قاموا من هناك في مواجهة العثمانـيين، بدور حرس بحار المشرق. وتحت قيادة معلمهم الأكبر إيليون دى ڤيلنوڤ Hlion de Villeneuve، ساهموا إلى جانب البنادقة والجنويين والقبارصة في فتح إزمير Smyrne من أيدي الأتراك (28 أكتوبر 1344). واحتفظوا بزمام إزمير حتى غزو تيمورلنك الذي انتزع منهم المدينة (ديسمبر 1402).

تعرّضت رودُس مراراً وتكراراً لغارات المسلمين، ففي عهد السيّد الأكبر جان دي لاستيك Jean de Lastic ردّ الفرسان ثلاثة هجمات موجهة من مماليك مصر (1440، 1442، 1444). وفي عهد أستاذيّة جاك دي ميّيي Jacques de Milly، لقيت العمارة البحرية المرسلة من قبل السلطان العثماني محمد الثاني إخفاقاً مماثلاً (1455). وتم أيضاً ردّ هجوم جديد عام 1480 بقيادة السيّد الأكبر پيير دوبوسّون Pierre d'Aubusson.

وفي النهاية، عام 1522 م، أفلح السلطان سليمان الأعظم[1] عقب خمسة شهور من الحصار، في إرغام رودُس على التسليم (22 ديسمبر 1522). ولكن بسالة السيّد الأكبر ڤيّيه دي ليل آدام Villiers de l'Isle-Adam في صدّ المهاجمين، دعت السلطان إلى السماح له بمغادرة رودُس معزّزاً مكرّماً.

كانت تلك هي المرة الثانية التي يُلقى فيها بالإسبتارية في البحر، فأعطاهم الإمبراطور شارلكان[2] Charles-Quint جزيرة مالطا، حيث بدأوا فترة جديدة (1530-1798). وسرعان ما هبّ الأتراك لطردهم من الجزيرة، ولكن كل الغارات العثمانية والبربرية تحطمت هناك أمام بطولة السيّد الأكبر جان دي لا ڤاليت Jean de la Valette (19 مايو - 12 سبتمبر 1565).

كانت تلك في عشية العصور الحديثة الصفحة الأخيرة من تاريخ الحروب الصليبية.

***

---

(1) هو السلطان سليمان خان القانوني، فاتح هنغاريا وصربيا وأقوى أباطرة عصره على الإطلاق.

(2) هو الإمبراطور الجرماني كارل الخامس (يسميه الفرنسيون شارل الخامس، ومنها تسميته بشارلكان)، إمبراطور الغرب 1519-1556 م، وملك إسبانيا 1516-1556. احتل تلمسان 1530 وتونس 1535 وقصف الجزائر.

الفصل التاسع

الحملات الصّليبية المتأخرة

حملة نيكوبوليس الصّليبية

لدى إذعانها لسقوط الحملات الصليبية، انتهى بالنسبة للمسيحية كل استعمار لها في آسيا الإسلامية (1291 م). وبأقل من قرن فيما بعد، كانت آسيا الإسلامية نفسها هي التي تقوم بغزو المسيحية، وذلك بمهاجمتها في أضعف نقطة فيها، أي في الإمبراطورية البيزنطية (1362 م).

ومنذ عام 1261 وقعت على عاتق الهيلينية البيزنطية من جديد مهمّة الدفاع عن المضائق، مفتاح القارة الأوروبية. لكن «الحملة الصليبية» الغربية التي قامت عام 1204 كما رأينا بإدخال «رومية» في عداد البلقان أضعفت الإمبراطورية الهرمة بشكل لا يُعوَّض. ولم يكن بوسع الهيلينية المتجددة في القسطنطينية على أيدي الأباطرة من آل پاليولوغوس (1261-1453 م) والمقتصرة على تراقيا ومقدونيا والشريط الغربـي من الأناضول أن تدافع طويلاً عن هذه المساحة المتقلّصة.

نجح الأتراك المتمركزون منذ مبدأ القرن الرابع عشر على التخوم الفريجية البيثينية بانتزاع بيثينيا منهم مع بورصة (1326 م) ونيقية (1331 م)، ثم استخلصوا مضائق الدردنيل واحتلّوا بقيادة سلطانهم مراد الأول القسم الأعظم من تراقيا بما في ذلك إدرنه Andrinople (1362). وبذلك تم تطويق بيزنطة (القسطنطينية). حيال هذا الخطر الداهم حاول البابا أوربان الخامس Urbain V بثّ حملة صليبية، فكان الحاكم الوحيد الذي استجاب لندائه كونت ساڤوا أميديه السادس Amédée VI الذي اقتصرت بعثته على استعادة غاليپولي Gallipoli الواقعة على الدردنيل بشكل جدّ مؤقت (أغسطس 1366). ثم في 20 يونيو 1389 سحق الأتراك الجيش الصربي في كوسوڤو Kossovo، وكان ذلك النصر الحاسم كفيلاً ببسط سيطرتهم على البلقان برمّته.

كان الفتح العثماني قد وصل إلى نهر الدانوب، ولما ألفى ملك هنغاريا سيغيسموند Sigismond نفسه مهدّداً بشكل مباشر، استصرخ إطلاق حملة صليبية جديدة. وتلكم كانت «حملة نيكوپوليس الصليبية»، التي تمثل في الواقع المجهود الحقيقي الأخير للغرب لإنقاذ الدول البلقانية. وكان القسم الأعظم من هؤلاء المقاتلين الصليبيين قادماً من فرنسا أو من الإمبراطورية المقدّسة، ونذكر من بينهم جان الجسور Jean Sans-Peur ولي عهد دوقيّة بورغونْـيْ، والماريشال بوسيكو Boucicaut، والأميرال جان دى ڤيين Jean de Vienne، بالإضافة طبعاً إلى ملك هنغاريا سيغيسموند.

التقت جموع الصليبيين بجيش السلطان بايزيد (Bajazet) على الضفة البلغارية لنهر الدانوب، بالقرب من نيكوپوليس في 12 سبتمبر 1396 م. ولم يدر في خلد النبلاء الفرانكو بورغونيين اللامبالين مدى التقدّم الكبير الذي أحرزته القوة العسكرية للجيش العثماني من حيث القدرة والفاعلية، فقد مضوا في حملتهم وكأنهم كانوا ذاهبين إلى حفل للمتعة.. تلك في الحقيقة كانت روح معركتي كريسي وآزينكور[1]! وقذفوا بأنفسهم إلى عسكر الإنكشارية[2] دون أن يتيحوا الفرصة للهنغار للانضمام إليهم. ولم تُجدِ شجاعتهم الجنونية في درء الكارثة، وباستثناء بعض الأمراء الذين افتدوا أنفسهم بالمال، تمّ ضرب رقاب جميع أفراد الحملة الصليبية الفرنسية بأسرهم، بما في ذلك الأسرى.

كان من جرّاء هذه الهزيمة الفادحة، أن خارت عزائم الغرب عن استثارة حملات صليبية جديدة، وأما الأربعمائة رجل الذين أرسلوا من بلاط شارل السادس لنجدة القسطنطينية تحت إمرة بوسيكو، فما كانوا بالقادرين على إنقاذ المدينة (1399 م). وكان من الواضح أن «الإمبراطورية» البيزنطية قد باتت وشيكة السقوط، عندما نجت بفعل تدخل غير متوقع؛ وذلك أن تدخّل الغازي القادم من وراء النهر تيمورلنك أسفر، في 20 يوليو 1402 م، عن الانتصار على بايزيد الرهيب وأسره في أنقرة.

---

(1) تقدّم ذكر هاتين المعركتين Crécy et Azincourt، جرتا بين الفرنسيين والإنكليز في حرب المائة عام، وهزم فيهما الفرنسيون. كانت أولاهما عام 1364 والثانية 1415 م.

(2) الإنكشارية فرق من الجيش العثماني بمثابة الوحدات الخاصة Forces d'Elite الفائقة التّدريب. والتسمية في التركية Yeniçeriler تعني: عسكر النّظام الجديد.

الحملات الصليبية الهنغارية، جان هونيادي

أدّت معركة أنقرة التي شلّت القوة التركية لفترة من الزمن إلى إتاحة مهلة جديدة من الحياة لبيزنطة لمدة نصف قرن. ولكن هذه النكسة في القدرة العسكرية العثمانية لم يُحسن أصحاب المصلحة الإفادة منها. وعندما تم تحقيق النهضة التركية من جديد هرع الإمبراطور البيزنطي جان الثامن إلى إيطاليا يلتمس دونما جدوى من البابوية إرسال حملات صليبية جديدة (1438–1439 م).

ولم يستجب لندائه هذا غير الهنغار، تحت قيادة القائد الباسل جان هونيادي Jean Hunyadi. وبالفعل، استطاع هونيادي إرغام الأتراك على رفع الحصار عن بلغراد Belgrade (1440 م)، ثم هزمهم عند نيش Nich واستعاد منهم صوفيا Sofia. وكاد السلطان مُراد الثاني الذي ثبطت همّته أن يتخلى صلحاً عن الأقاليم الدانوبية وعن بلغاريا، فقوبل بالرفض من قبل المجلس التشريعي الهنغاري، بتأثير من المبعوثين البابويين.

استمرّت الحرب، ولكن في هذه المرة تمكن مُراد الثاني من سحق الجيش الهنغاري في ڤارنا Varna ببلغاريا (10 نوڤمبر 1444 م). وأما أسطول البنادقة وأسطول البابا أوجين الرابع Eugène IV اللذين كانا يهدفان إلى تحويل أنظار العدو، فلم يتمكنا من التحرّك في الوقت المناسب. وأعاد جان هونيادي الكرّة محاولاً تحرير البلقان، لكنه هُزم من جديد على أيدي التُّرك في كوسوڤو في صربيا، بسبب خطأ البلقانيين أنفسهم جزئياً (17–19 أكتوبر 1448 م).

من سقوط القسطنطينية إلى معركة ليپانتو

إثر سقوط الحملة الصليبية الهنغارية، كانت أيام القسطنطينية قد غدت معدودة. وفي شهر أبريل من عام 1453 شرع السلطان محمد الثاني في محاصرة المدينة[1] التي كان يدافع عنها آخر أباطرة آل پاليولوغوس، الإمبراطور الباسل قسطنطين دراغازيس Constantin Dragasès. وبدا الغرب غير مكترث لما سوف يؤول إليه مصير المحصورين.

(1) اعتبر المؤرخون فتح القسطنطينية أعظم فتح إسلامي في خاتمة القرون الوسطى، حتى أنهم اتخذوه نهاية لهذه القرون وبداية للعصور الحديثة.

ولم يشارك في الدفاع سوى وحدات ضئيلة من المتطوّعة اللاتين، ومعظمهم من البنادقة أو الجنويين (البايل البندقي جيرولامو مينوتّو Girolamo Minotto، والقرصان الجنوي جوڤانّـي جوستينيانـي Giovanni Giustiniani)، أما الأسطول البندقي والبابوي المرسل من إيطاليا فقد وصل متأخراً جداً، وأما الهنغار فلم يحركوا هذه المرَّة ساكناً. وفي 29 مايو من عام 1453 م، نجح الجيش العثمانـي أخيراً بفتح القسطنطينية.

كان على المسيحية، التي لم تُبال بإنقاذ القسطنطينية، أن تدفع ثمن أثَرَتها غالياً. فما أن أضحى الأتراك أسياد المضائق، حتى صار بوسعهم التفرّغ لجبهة البحر المتوسط وجبهة الدانوب. فها هم أولاء ينـزلون في إيطاليا ويغيرون على أوترانته Otrante (11 أغسطس 1480). أما في الشمال، فبعد أن تم إخضاع البلقان جاء دور هنغاريا، فأفلح السلطان سليمان القانونـي في سحق الجيش الهنغاري في موهاكس Mohàcs (28 أغسطس 1526)، وأقبل على ڤيينا يحاصرها (27 سبتمبر - 15 أكتوبر 1529 م). ولم يتوقف الغزو العثمانـي من هذه الجهة سوى عند عاصمة آل هابسبورغ Habsburg (ڤيينا).

وفي الجهة المعاكسة، في شرقي البحر المتوسط، كان النصر حليف الأتراك أينما اتجهوا. فانتزعوا، كما رأينا، جزيرة رودُس من فرسان المشفى (22 ديسمبر 1522)، وقبرص من البنادقة (احتلال فاماغوستا، أول أغسطس 1571).

وأخيراً، وبإيعاز من البابا پيوس الخامس Pie V، تألفت رابطة مسيحية للدفاع، وضمّت إسپانيا والبنادقة وفرسان مالطا. وأحرزت أساطيل الحلفاء، تحت قيادة دون خوان دوق النّمسا Don Juan d'Autriche، في 7 أكتوبر 1571 بموقعة ليپانتو Lepanto، نصراً كان - رغم أنه لم يتبعه انتصارات حاسمة على البر - كفيلاً (بالإضافة إلى تخليص ڤيينا على صعيد البر) بإيقاف زحف الغزو العثمانـي.

* * *

خاتمـــة

الحملات الصليبية أول استعمار أوروبي

ما بين القرنين الثانـي عشر والرابع عشر، قامت شعوب الغرب، بخاصة الفرنسيون والطليان باستعمار المشرق حسب التسلسل الزمني: سوريا الساحلية وفلسطين (1098-1291 م)، وقبرص (119-1571 م)، والقسطنطينية (1204-1261 م)، وأثينا (1205-1458 م)، والپيلوپونيز (1206-1430 م)، والجزر اليونانية (القرن الثالث عشر - القرن السادس عشر). حتى أن تأثيرهم امتدّ إلى مملكة كيليكيا الأرمنيّة فوسمها بالصبغة اللاتينية (1098-1375 م).

كان ذلك أول توسع استعماري للغرب، وكان الدافع من وراءه في البداية - ثم صار الذريعة فيما بعد - الانطلاقة الرّوحية للدّعوة الصليبية. أما الباعث الدائم على المدى الطويل فكان نزعة الغزو الإقليمي لدى البارونات الفرنسيين، والمصالح التجارية لدى الجمهوريات الساحلية الإيطالية. ارتكزت هذه الدّعوة على دافعين أساسين، ألا وهما: تحرير القبر المقدّس، والقضاء على الكنيسة المنشقّة اليونانية (الأرثوذوكسية). وأجّجت هذه الدّعوة على حدّ سواء الإمپريالية السياسية لفرنسا الكاپيتية والإمپريالية الاقتصادية البندقية والجنوية.

لما ثابر أصحاب الدعوة على مبادئهم في البدء نجحوا في الوصول كل آمالهم وتطلّعاتهم، وغَدَت الفرنسية لغة عكّا ونيقوسيا وأثينا كما غَدَت الإيطالية اللغة السائدة من كريت إلى القرم. وبالنسبة لمن عاش في عصر القديس لويس لم يكن ثمّة شك في أن هذا الإشعاع الرّوحي كان جارفاً قوياً، كما لم يكن لمعاصري ماركو پولو[1] Marco Polo أيضاً أدنى شك في رسوخ تلك السيطرة الاقتصادية. مع ذلك كلّه، لم يبق لهذا التوسّع الغربـي المتألق أي أثر، فالمسلمون والهيلينيون استردّوا كل شيء وطمسوا تماماً كل ما يمتّ له بصلة.

---

(1) ماركو پولو: رحالة ورائد إيطالي شهير من البندقية (1254-1323 م) سافر من بلاده إلى بلاد المغول في أواسط آسيا وعاد عن طريق سومطرة، ووضع في وصفها كتاباً شيقاً.

ففي عام 1261 م سقطت القسطنطينية مجدداً بيد اليونان، وفي عام 1291 م وقعت عكّا من جديد - وهي العاصمة الفرنجية الأخيرة في الأرض المقدّسة - بأيدي المسلمين. وعام 1430 م عادت أواخر بقايا المورة الفرنجية إلى قبضة اليونان، قبل أن تنتقل إلى أيدي الأتراك (1460 م). في الواقع، لا يمكن لنا أن نتخيّل استعماراً أمكن كسحه وطمسه تماماً بهذا الشكل.

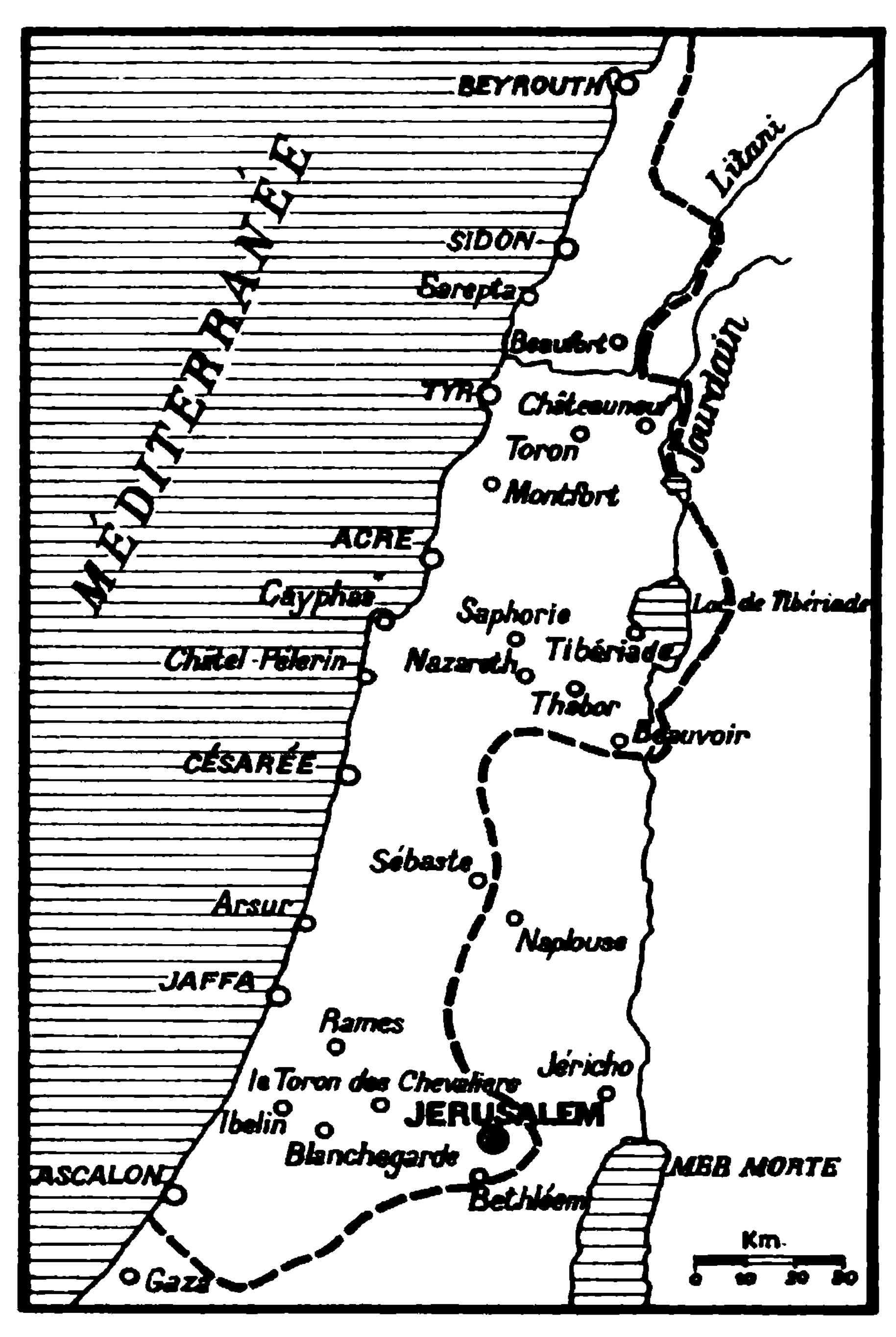
فوق ذلك، يمثّل ذلك الاستعمار أكبر جهود أوروبا منذ ثلاثة قرون، فما سبب سقوطه؟ نجد أولاً ضعف الموارد البشرية في صفوف الفرنجة، فالإمارات الفرنجية في سوريا أو في اليونان كانت مستعمرات حكّام لا مستعمرات سكان، بينما تألّف سواد أهل الريف من المسلمين أو السُّريان في سوريا، أو اليونان في قبرص والمورة. وعندما انطلق الهجوم الإسلامي المعاكس في سوريا والهجوم البيزنطي في المورة، لم يبق ممن كان من الفرنجة هناك سابقاً أي إنسان.

ثمّة سبب آخر للسقوط الفرنجي يمكن عزوه لمساوئ أنظمة الحكم الإقطاعية وتحديداً في التّفرقة السائدة، التي تعطينا «دواوين القدس» صورة واضحة عنها. إن نظاماً كهذا لو طُبِّق بحذافيره (كما تمّ مراراً) لأدّى إلى شلّ أيّ دولة حتماً ولجرّ عليها الإخفاق، فكيف بمستعمرات عسكرية مشيّدة في أراضي العدو؟

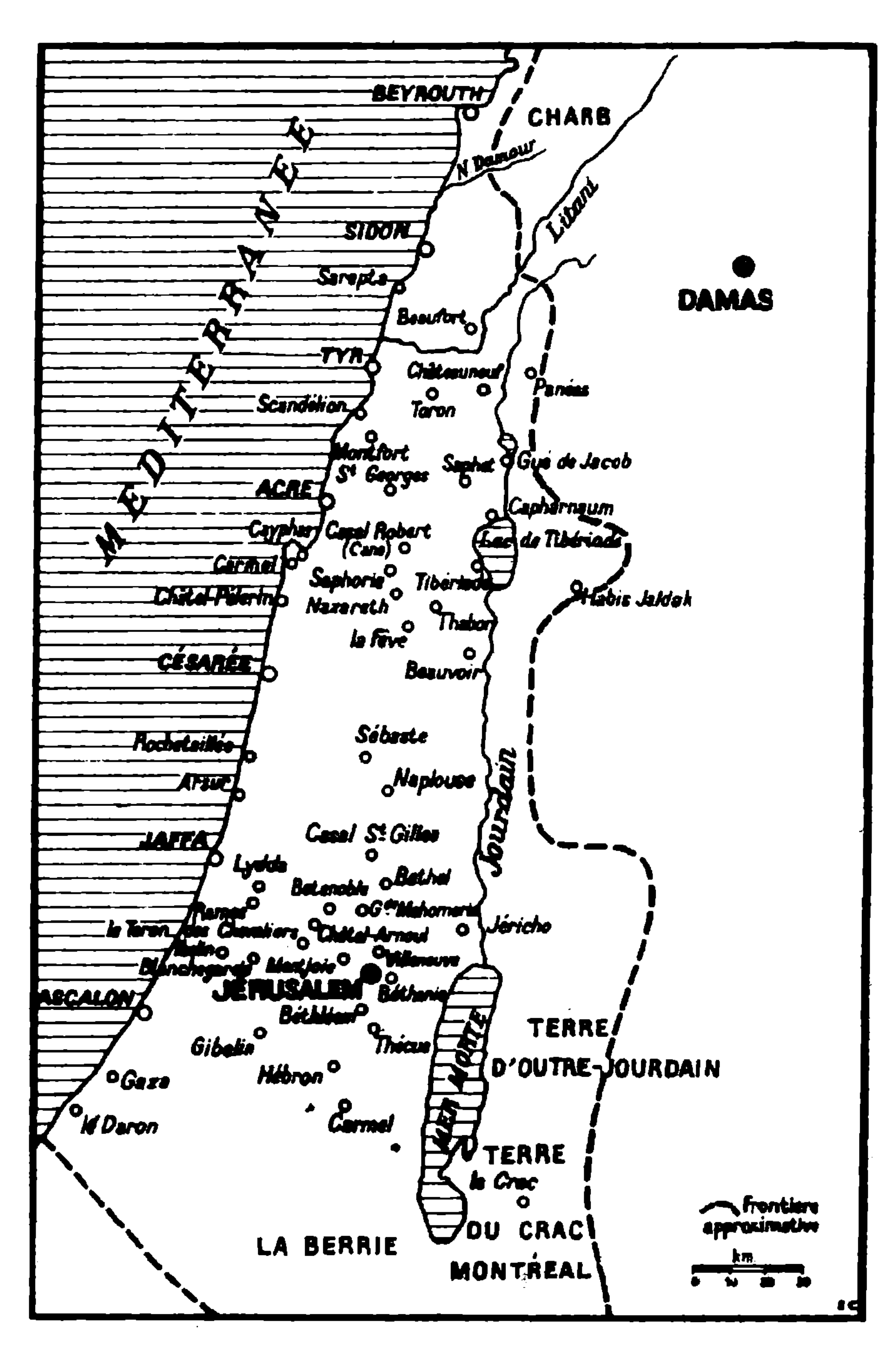
ينبغي أخيراً إدانة الصراعات الأخويّة بين اللاتين، كالصراعات في سوريا بين بطانة الملك عام 1187 م وبين ريمون الثالث، وبين آل إيبلان والإمبراطوريين، وبين القبارصة والأنجويين، وبين الداويّة والإسبتاريّة. صراعات في كل مكان في رومية كما في سوريا، وبين الجنويين والبنادقة. كان الشرق اللاتيني بكافّة أرجائه منقسماً على ذاته فجرّ بذلك على نفسه الانتحار. كانت منجزات الفرنجة تتخرّب في كل مكان بأيدي صانعيها وحُماتها وأصحاب المصلحة الحقيقية فيها.

كانت العاقبة جرّاء ذلك ارتداد آسيا بالحرب والغزو على أوروبا، فتمّ فتح قسم لا يُستهان به منها على أيدي العثمانـيين. في حوالي عام 1118 م إثر نجاح الدّعوة الصليبية، امتدّت حدود قارّة أوروبا إلى ما بين الرُّها والموصل في قلب بلاد الرافدين، أما في عام 1529 م فتقهقرت هذه الحدود إلى أبواب ڤيينا.

***



مملكة القدس اللاتينية في القرن الثانـي عشر الميلادي

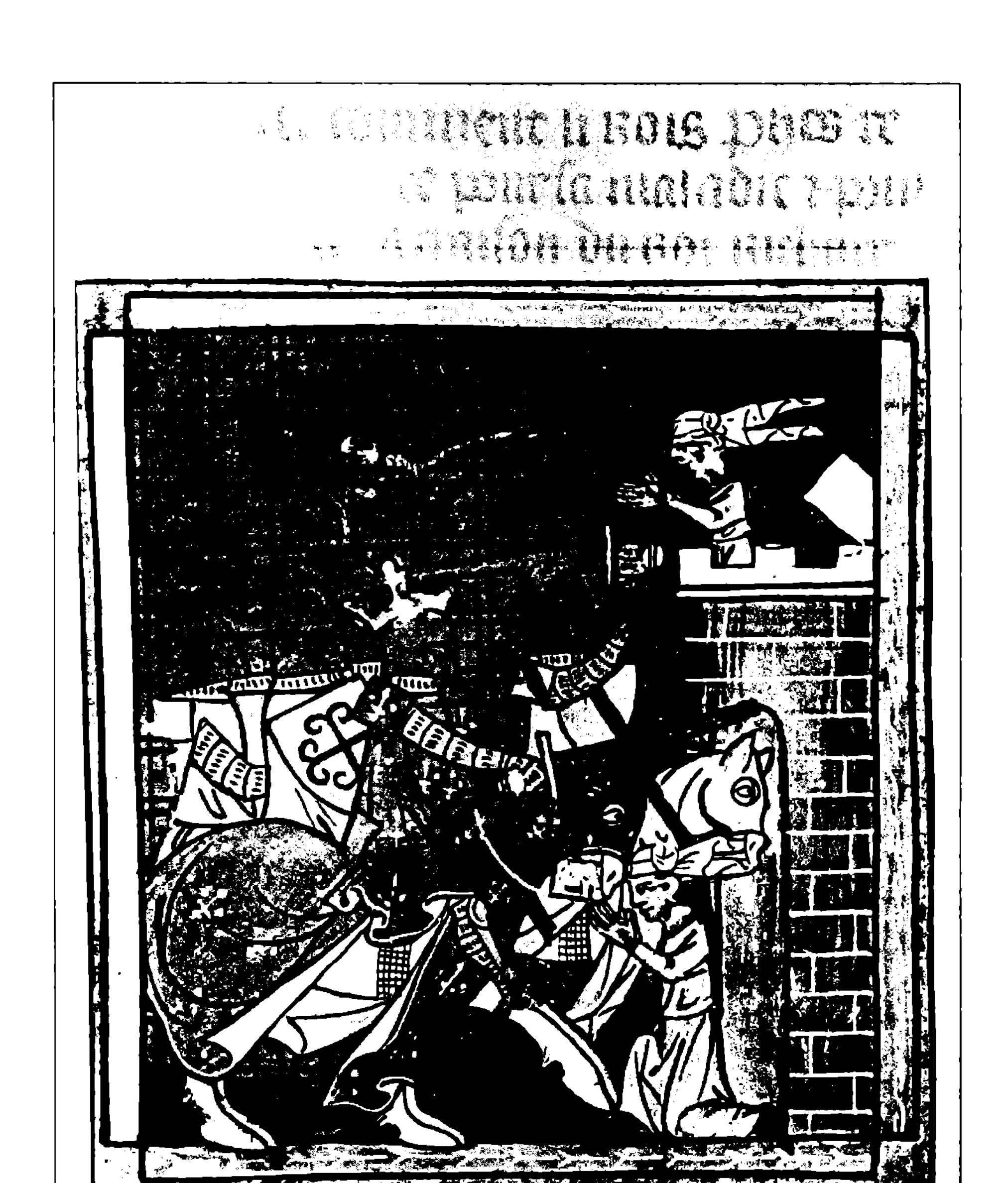


مملكة القدس اللاتينية في القرن الثالث عشر الميلادي

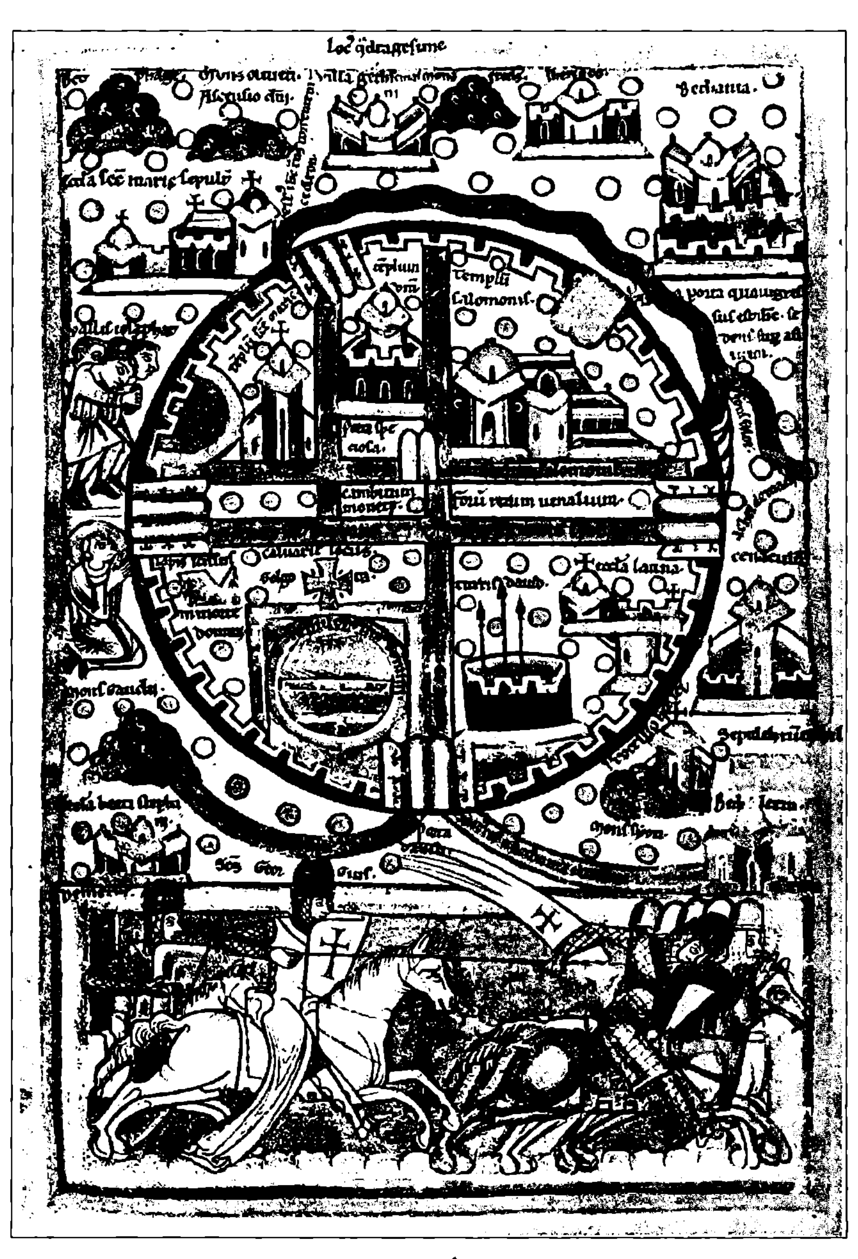
صور الكتاب

وهي ليست في الأصل الفرنسي للكتاب، قمت بإضافتها
من مراجع قديمة مختلفة، حول تاريخ الحروب الصليبيّة

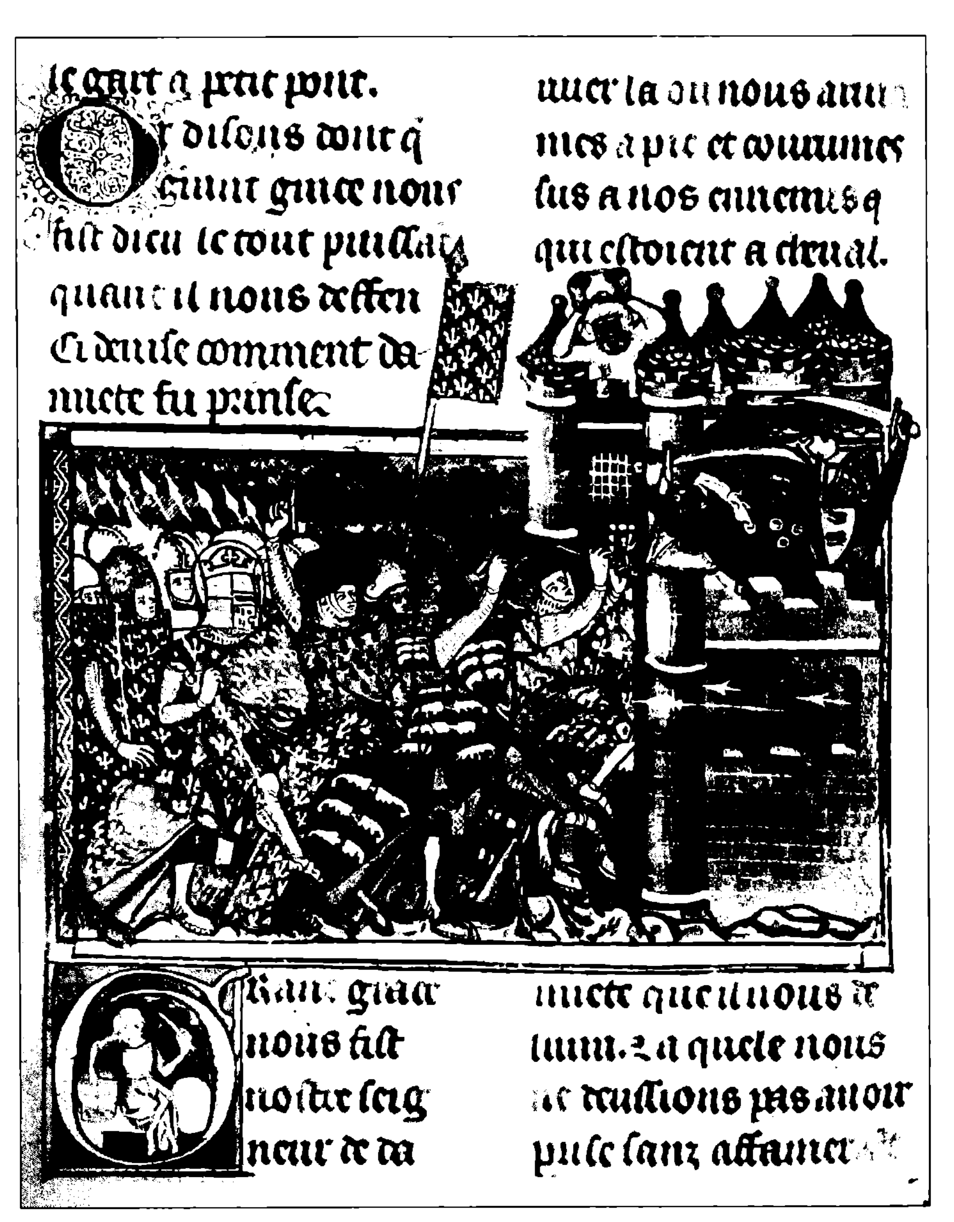




صورة قديمة تمثل الملك ريتشارد قلب الأسد على أبواب عكّا
عن مخطوطة تعود إلى القرن الثالث عشر



خريطة لبيت المقدس رُسمت حوالي عام 1170 م
تظهر فيها أهم أماكنها المقدّسة



حصار دمياط أثناء الحملة الصليبية السابعة

من مخطوطة فرنسية تعود للقرن الرابع عشر الميلادي:

Jean de Joinville: *Histoire de Saint Louis*.



نُقيشة قديمة تمثّل النّاصر صلاح الدّين الأيوبـي



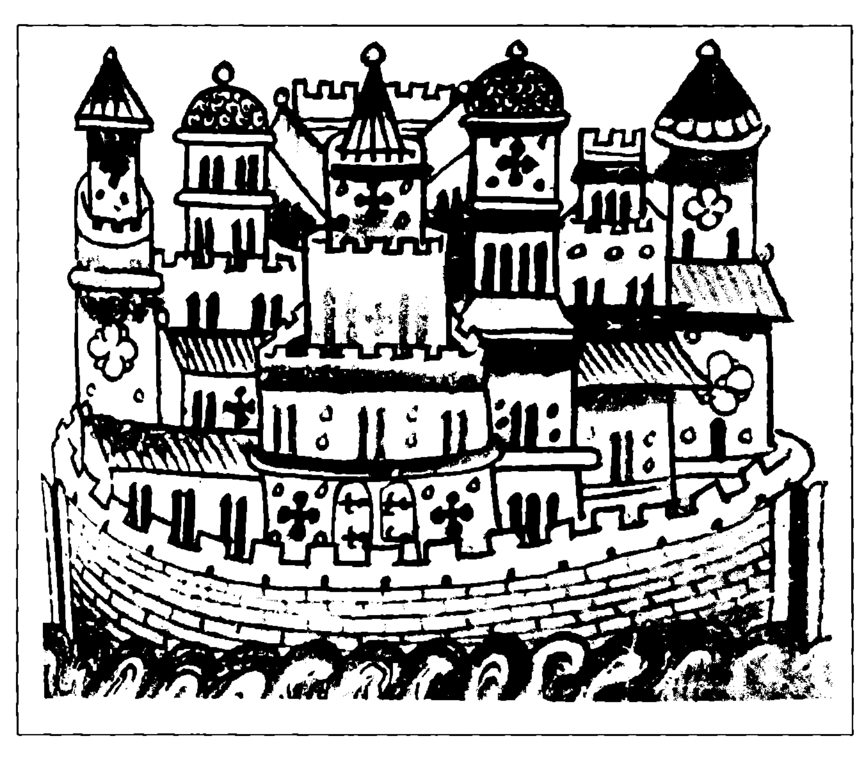
رسم لفنان إيرانـي يمثل السّلطان، مخطوطة من عام 1180 م



صورة افتراضية قديمة من مخطوط سِفر مزامير «لوترِل» *Lutrell Psalter*
تمثّل معركة بين السّلطان النّاصر صلاح الدّين والملك ريتشارد قلب الأسد



معركة حطّين، مشهد لتغلّب السّلطان النّاصر على ملك القُدس غي دى لوزينيان
مخطوطة فرنسية حوالي عام 1240 م: Mathieu Paris: *Historia Major*, tome I



دمشق إبّان الحروب الصليبيّة

صورة رمزية من مخطوطة فرنسية تعود إلى حوالي عام 1240 م:

Mathieu Paris: *Historia Major*, tome II



صورة قديمة تمّثل مدينة حلب

نُقيشة نادرة تعود إلى أواخر القرن السابع عشر



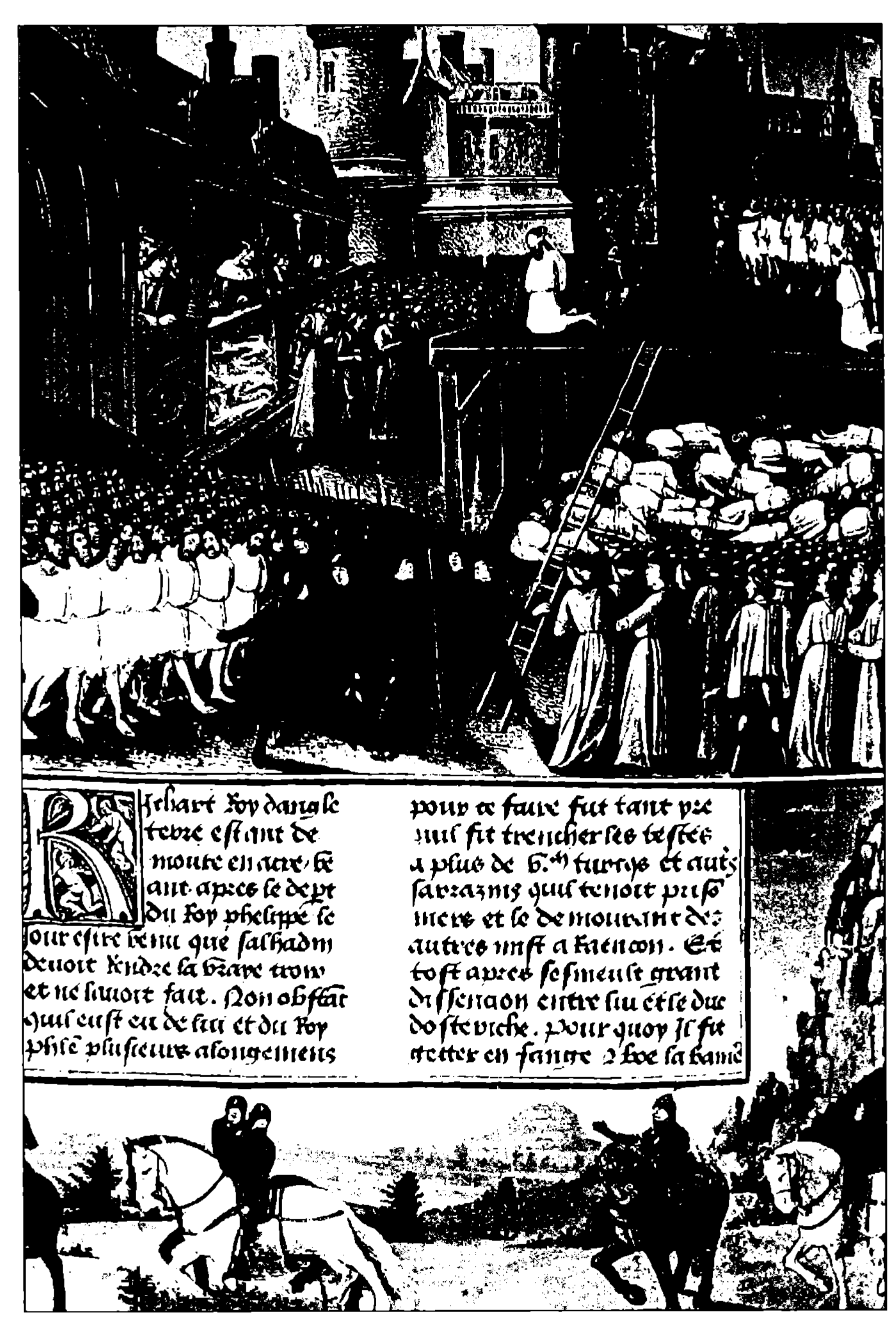
صورة قديمة تمثّل خيّالة السّلطان النّاصر صلاح الدّين، من مخطوطة فرنسية
تعود إلى حوالي عام 1337 م: «حكايات غودفروا دى بويّون وصلاح الدّين»
Les Romans de Godefroi de Bouillon et de Saladin



صورة قديمة تمثّل جيشاً صليبياً يندحر أمام هجمات الخيّالة المسلمين
عن مخطوطة إنجيل مايكوفسكي Majiekowski
من مطلع القرن الثالث عشر الميلادي



احتلال الصّليبين للقُدس عام 1099 م
مخطوطة فرنسية لتاريخ «غيّوم الصُّوري» تعود إلى أواسط القرن الرّابع عشر
Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum



صورة قديمة تمثّل إعدام حامية عكّا الإسلاميّة عام 1191 م

بحضور الملك ريتشارد، عن مخطوطة فرنسية من القرن الخامس عشر:

Livre des Passages d'Outremer.

فهرس الموضوعات

الفصل الأول : المسألة الشرقية ما قبل الحروب الصليبية

الفصل الثاني : الدول الصليبية في سوريا وفلسطين

الفصل الثالث : الحياة الحضرية في سوريا الفرنجية

الفصل الرابع : مملكة قبرص تحت حكم آل لوزينيان

الفصل الخامس : مملكة كيليكيا الأرمنيّة

الفصل السادس : إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية

الفصل السابع : إمارة المورة الفرنسية ودوقيّة أثينا

الفصل الثامن : اليونان في العهد الإيطالي

الفصل التاسع : الحملات الصليبية المتأخرة

* * *

موجز تاريخ الحروب الصليبيّة

في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسّط

ترجع أهمية الحروب الصليبية إلى أنها تشكّل تجربة فريدة في تاريخ العروبة والإسلام. هذه التجربة ليست بحال من الأحوال من التجارب العابرة المحدودة الأثر والنتائج، بل هي تجربة كبرى مليئة بالدروس، ينبغي لنا أن نتدارسها ونبحثها في كل وقت. من الواضح أن الأوضاع التي تحيط بالعالم العربي والإسلامي اليوم تجعلنا نشعر بأننا في وضع أقرب ما يكون إلى الوضع الذي عاش فيه أسلافنا منذ تسعة قرون مضت، الأمر الذي يتطلّب منا دراسة تاريخ هذه الحروب الصليبية دراسة علمية وافية. في هذا الكتاب من تأليف عضو الأكاديميّة الفرنسيّة المؤرخ الكبير رنيه غروسّيه، نقرأ لمحة موجزة إنما وافية عن تاريخ هذه الحملات التي دامت 193 عاماً: دوافعها، وقائعها، وآثارها الاجتماعيّة والثقافية. والملاحظ في هذا الكتاب إنصاف المؤرخ لحضارتنا العربية الإسلاميّة.



9 789948 015956



